الصداقة والصديق

أبو حيان التوحيدي

obeikan.com

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللّٰهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقى الجيوب، حتى نتعايش في هذه الدار مصطلحين على الخير، مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدين، آخذين بأطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعافية التي لابد من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطلاع عليها، إنك تؤتي من تشاء ما تشاء.

سمع مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة، والعشرة، والمؤاخاة، والألفة، وما يلحق بها من الرعاية، والحفاظ، والوفاء، والمساعدة، والنصيحة، والبذل، والمواساة، والجود، والتكرم، مما قد ارتفع رسمه بين الناس، وعفا أثره عند العام والخاص، وسئلت إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها في المعاش والمعاد.

وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول: اللّٰهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم.

وأقول: اللّٰهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء، والفرج معدوم، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد.

فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية. فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني! اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع، ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقي كثيرًا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل.

قال: ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفلك، وأن سهامنا واحدة، وأنصباءنا منها متساوية، أو قريبة من التساوي، فعجب وازداد بصيرة في إخلاص الصداقة، وتوكيد العلاقة.

فقلت لأبي سليمان: كيف يصح هذا، وأنت مطالبك في الفلسفة، وصورك مأخوذة من الحكمة، وجعبتك مجموعة من الحقائق، وخوضك في الغوامض والدقائق، وذاك رجل في عداد القضاة، وجلة الحكام، وأصحاب القلانس، ومخاضه الظاهر الذي عليه الجمهور، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم.

فقال: هذا هو الذي انفردنا عنه بعد أن ازدوجنا عليه والأصل أبدًا مخالف للفرع، لا خلاف الضد للضد، ولكن خلاف الشكل للشكل، وكانت مشتريه خاليًا من قوة زحل، فبرز في حلبة القضاة، وكان المشتري لي مقتبسًا من زحل، فظهرت بما ترى، فجمعتنا المشاكلة على العلم، وفرقنا الاختلاف بالفن.

قلت: هذا والله طريف، ومما يزيد في طرافته أنك من سجستان وهو من الصيمرة. فقال: الأمكنة في الفلك أشد تضامًّا من الخاتم في أصبعك، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضية من بلد إلى بلد بفراسخ تقطع، وجبال تعلى، وبحار تخرق.

فقلت: هل تجد عليه في شيء أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدي به في الأول قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفي مني فيما خالف هواي باللمحة الضئيلة، وأكتفي أنا أيضًا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، وإليه

مفزع، وقل ما نجتمع إلا ويحدثني عني بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي، ولا ندت عن صدري إلى لفظي، وذاك للصفاء الذي نتساهمه، والوفاء الذي نتقاسمه، والباطن الذي نتفق عليه، والظاهر الذي نرجع إليه، والأصل الذي رسوخنا فيه، والفرع الذي تشبثنا به، والله ما يسرني بصداقته حمر النعم، ولا أجد بها بحياتي، ما أجد بحياتي لي، وإذا كنت أعشق الحياة لأني بها أحيا، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة، وجنى لي ثمرتها، وجلب إلي روحها، وخلط بي طيبها وحلاوتها.

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب، وأما أنا فما عرفته إلا قاضيًا جليلا، صاحب جد وتفخيم وتوقير وتعظيم، وكان مع ذلك بسيط اللسان، شريف اللفظ، واسع التصرف، لطيف المعاني، بعيد المرامي، يذهب مذهب أبي حنيفة.

ثم قال أبو سليمان: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزلة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور.

قال: فأما الملوك فقد جلوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم، لانتشابهم بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويرد عليهم.

وأما التناء وأصحاب الضياع، فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير.

وأما التجار فكسب الدوانيق سد بينهم وبين كل مروءة، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة.

وأما أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم فربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العقبى.

وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس، والتحاسد، والتماري، والتماحك فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل.

وأما أصحاب المذاب والتطفيف فإنهم رجرجة بين الناس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مخازي فتنشر، ولذلك قيل لهم همج، ورعاع، وأوباش، وأوناش، ولفيف، وزعانف، وداصة، وسقاط، وأنذال، وغوغاء، لأنهم من دقة الهمم،

وخساسة النفوس، ولؤم الطبائع على حال لا يجوز معها أن يكونوا في حومة المذكورين، وعصابة المشهورين، فلهذه الأمور الحائلة عن مقارها، الزائغة إلى غير جهاتها علل وأسباب لو نفس الزمان قليلا لكنا ننشط لشرحها، وذكر ما قد أتى النسيان عليه، وعفى أثره الإهمال، وشغل عنه طلب القوت، ومن أين يظفر بالغداء، وإن كان عاجزًا عن الحاجة، وبالعشاء وإن كان قاصرًا عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طمرين للستر لا للتجمل، وكيف يهرب من الشر المقبل، وكيف يهرول وراء الخير المدبر، وكيف يستعان بمن لا يعين، ويشتكى إلى غير رحيم، ولكن حال الجريض دون القريض، ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق، والأسف، والحسرة، والغيظ، والكمد، والومد، وكأني بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنه، وأمرس نقده عليها، وأنكر علي التطويل والتهويل بها. وإنما أشرت بهذا إلى غيرك لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، واطلاعك على دخلتي، واستمراري على هذا الأنقاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي، ونكثا مرتي، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى، وحجباني عن الأسى، لأني فقدت كل مؤنس، وصاحب، ومرفق، ومشفق، والله! لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال، أو عصار، أو نداف، أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، مجتنفًا على الحيرة، محتملا الأذى، يائسًا من جميع من ترى، متوقعًا لما لابد من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص.

وفي تمجيد الصمت مر بي كلام لبعض الحكماء القدماء أنا أرويه لك هٰهنا لا لأجدد به عليك ما ليس عندك، ولكن لأذكرك، فإن الإذكار بالخبر بعث على الاهتمام به، والبعث عليه سلوك لطريقه.

قال هذا الحكيم: لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم، فحكي عنه محرفًا، فيضطر إلى أن يقول: ليس هكذا قلت، وإنما قلت كذا وكذا، فيكون إنكاره إقرارًا، ويكون اعترافه بأصل ما حكي عنه شاهدًا لمن وشى به، وادعاؤه التحريف غير مقبول منه بلا بينة يأتي بها، لكان ذلك من أكبر فضائل الصمت، وأدع هذا وأقول: كان سبب إنشاء هذه الرسالة في الصداقة والصديق أني ذكرت شيئًا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة، وتدبيره أمره الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على إذلالها جارية، فقال لي ابن سعدان: قال لي زيد عنك كذا وكذا، قلت: قد كان ذاك، قال: فدون هذا الكلام، وصله بصلاته مما يصح عندك لمن تقدم، فإن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب، فجمعت ما في الرسالة، وشغل عن رد القول فيها، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان.

فلما كان هذا الوقت وهو رجب سنة أربع مائة عثرت على المسودة وبيضتها على نحيلها، فإن راقتك فذاك الذي عزمت بنيتي، وحولي، واستخارتي، وإن تزحلقت عن ذلك فللعذر الذي سحبت ذيله، وأرسلت سيله.

وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق، ولا من يتشبه بالصديق، ولذلك قال جميل بن مرة في الزمان الأول حين كان الدين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين الناس، وقد لزم قعر البيت، ورفض المجالس، واعتزل

الخاصة والعامة، وعوتب في ذلك فقال: لقد صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنبًا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا لي عبرة، ولا قبلوا مني عذرة، ولا فكوني من أسرة، ولا جبروا مني كسرة، ولا بذلوا لي نصرة، ورأيت الشغل بهم تضييعًا للحياة، وتباعدًا من الله تعالى، وتجرعًا للغيظ مع الساعات، وتسليطًا للهوى في الهنات بعد الهنات، ولذلك قال الثوري لرجل قال له أوصني قال: أنكر من تعرفه، قال: زدني، قال: لا مزيد.

وكان ابن كعب يقول: لا خير في مخالطة الناس، ولا فائدة في القرب منهم، والثقة بهم والاعتماد عليهم، ولذلك قال الأول:

إخاء الناس ممتزج ... وأكبر فعلهم سمج
فإن بدهتك مقطعة ... فما لذنبهم فرج
فقومهم بهجرهم ... فإن لم يهجروا اعتوجوا
صروف الدهر دانية ... تقطع بينها المهج

وأنشدني أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي في إخوان الزمان لنفسه:

أيا رب كل الناس أبناء علة ... أما تعثر الدنيا لنا بصديق
وجوه بها من مضمر الغل شاهد ... ذوات أديم في النفاق صفيق
إذا اعترضوا دون اللقاء فإنهم ... قذى لعيون أو شجى لحلوق
وإن أظهروا برد الوداد وظله ... أسروا من الشحناء حر حريق
ألا ليتني حيث انتوت أفرخ القطا ... بأقصى محل في الفلاة سحيق
أخو وحدة قد آنستني كأنني ... بها نازل في معشري وفريقي

فـــذلك خـــير للفتـــى مـــن ثوائـــه بمـــسبعة مـــن صـــاحب ورفيـــق

وكان العسجدي يقول كثيرًا: الصداقة مرفوضة، والحفاظ معدوم، والوفاء اسم لا حقيقة له، والرعاية موقوفة على البذل، والكرم فقد مات، والله يحيي الموتى! استرسال الكلام في هذا النمط شفاء للصدر، وتخفيف من البرحاء، وانجياب للحرقة، واطراد للغيظ، وبرد للغليل، وتعليل للنفس، ولا بأس بإمرار كل ما لاءمه، ودخل في حوزته، وإن كان آخره لا يدرك، وغايته لا تملك.

قال صالح بن عبد القدوس:

بنـــي عليـــك بتقـــوى الإله فـــإن العواقـــب للمتقـــي
وإنـــك مـــا تـــأت مـــن وجهـــه تجـــد بابـــه غـــير مـــستغلق
عـــدوك ذو العقـــل أبقـــى عليـــك مـــ ـــن الـــصاحب الجاهـــل الأخـــرق
وذو العقـــل يـــأتي جميـــل الأمـــو ر ويعمـــد للأرشـــد الأوفـــق

فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير، وأثنى عليهم الجميل، ووصف جده بهم، ودل على محبته لهم، فغريب! قال بعضهم:

أنـتم سروري وأنـتم مـشتكى حـزني وأنـــتم في ســـواد الليـــل ســـماري
أنـــتم وإن بعـــدت عنـــا منـــازلكم نـــوازل بـــين أسراري وتـــذكاري
فـــإن تكلمـــت لم ألفـــظ بغـــيركم وإن ســـكت فـــأنتم عقـــد إضـــماري
الله جـــاركم ممـــا أحـــاذره فـيكم وحبـي لكـم مـن هجـركم جـاري

وقال آخر:

أخ لمتـــه أو لامنـــي ثـــم نرعـــوي إلى ثائـــب مـــن حلمنـــا غـــير مخـــدج

أهـــون إذا عـــز الجليـــل وربـــما أزمـــت بـــرأس الحيـــة المـــتمعج

أخبرنا أبو سعيد السيرافي، قال: أخبرنا ابن دريد قال: قال أبو حاتم السجستاني: إذا مات لي صديق سقط مني عضوًا.

كتب علي بن عبيدة الريحاني البصري إلى صديق له: كان خوفي من أن لا ألقاك متمكنًا، ورجائي خاطرًا، فإذا تمكن الخوف طفيت، وإذا خطر الرجاء حييت.

وقال جعفر بن محمد -رضي الله عنهما-: صحبة عشرين يومًا قرابة.

وقال رجل لضيغم العابد: أشتهي أن أشتري دارًا في جوارك حتى ألقاك كل وقت، قال ضيغم: المودة التي يفسدها تراخي اللقاء مدخولة.

وكتب آخر إلى صديق له: مثلي هفا، ومثلك عفا، فأجابه: مثلك اعتذر، ومثلي اغتفر.

وقال أعرابي: الغريب، من لم يكن له حبيب.

وقيل لأعرابي: من أكرم الناس عشرة؟ قال: من إن قرب منح، وإن بعد مدح، وإن ظلم صفح، وإن ضويق فسح، فمن ظفر به فقد أفلح ونجح.

وقال الفضل بن يحيى: الصبر على أخ تعتب عليه خير من آخر تستأنف مودته.

وقال عبد الله بن مسعود: ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب.

كتب رجل إلى صديق له: أما بعد: فإن كان إخوان الثقة كثيرًا، فأنت أولهم، وإن كانوا قليلا فأنت أوثقهم، وإن كانوا واحدًا فأنت هو! وقال آخر:

تركت لك القصوى لتدرك فضلها ... وقلت ترى بيني وبين أخي فرق
ولم يك بي عنها نكول وإنما ... توانيت عن حقي فتم لك الحق
ولابد لي من أن أكون مصليًا ... إذا كنت أهوى أن يكون لك السبق

قال العباس بن الحسن العلوي يصف جليسًا له: لطيب عشرته أطرب من الإبل على الحداء، والثمل على الغناء! وقال آخر:

ذهب التواصل والتعارف ... فالناس كلهم معارف
لم يبق منهم بينهم ... إلا التملق والتواصف
وعناق بعضهم لبعض ... في التساير والتواقف
صارفهم عن المودة ... إنهم قوم صيارف
إني انتقدت خيارهم ... فالقوم ستوق وزائف

وقال آخر:

فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى ... بصاحبه يومًا دمًا فهو آكله

وكتب يحيى بن زياد الحارثي إلى عبد الله بن المقفع يلتمس معاقدة الإخاء، والاجتماع على المخالصة والصفاء، فلما لم يجبه كتب إليه يعتب، فكتب له عبد الله: إن الإخاء رق، وكرهت أن أملكك رقي قبل أن أعرف حسن ملكتك.

شاعر:

وأعرض عن ذي المال حتى يقال لي ... قد أحدث هذا جفوة وتعظما
وما بي جفاء عن صديق ولا أخ ... ولكنه فعلي إذا كنت معدما

وروي أن النبي -صلى الله عليه وسلم وآله- كان يأكل تمرًا ومعه جليس له، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم وآله- إذا رأى حشفة عزلها، فقال جليسه: يا رسول الله أعطني الحشفة حتى آكلها، قال: لا أرضى لجليسي إلا ما أرضاه لنفسي.

وقال جعفر بن محمد -رضي الله عنهما-: لن لمن يجفو فقل من يصفو.

وقال علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-: قليل للصديق الوقوف على قبره.

أبو زبيد الطائي:

إذا نلت الإمارة فاسم فيها ... إلى العلياء بالحسب الوثيق
فكل إمارة إلا قليلا ... مغيرة الصديق على الصديق
ولا تك عندها حلوًا فتحسى ... ولا مرًا فتنشب في الحلوق
وأغمض للصديق عن المساوي ... مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال موسى بن جعفر -رضي الله عنهما- خير إخوانك المعين لك على دهرك، وشرهم من لك بسوق يومه.

كان أبو داود السجستاني أيام شبابه وطلبه للرواية قاعدًا في مجلس، والمستملي في حدته، فجلس إليه فتى وأراد أن يكتب فقال له: أيها الرجل استمد من محبرتك، قال: لا، فانكسر الرجل، فأقبل عليه أبو داود، وقد أحسن بخجله: أما علمت أن من شرع في مال أخيه بالاستئذان، فقد استوجب بالحشمة الحرمان، فكتب الرجل من محبرته، وسمي أبو داود حكيمًا.

وقال شاعر:

مـــولاك مـــولى عـــدو لا صـــديق لـــه كأنـــــه نفـــــر أو عـــــضه صـــــفر

وقال ابن الحشرج:

فـــلا وأبيـــك لا أعطـــي صـــديقي مكـــــاشرتي وأمنعـــــه تـــــلادي

وقال العجير:

بعيـــد مـــن الـــشيء القليـــل احتفاظـــه عليـــك ومنـــزور الرضـــا حـــين يغـــضب

وقال آخر:

أخـــوك أخـــوك مـــن تـــدنو وترجـــو مودتـــــه وإن دعـــــي اســـــتجابا

وقال ميمون بن مهران: صديق لا تنفعك حياته، لا يضرك موته.

أنشدنا علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح قال: أنشدنا ابن دريد عن الأشنانداني لأعرابي:

إن كنـــت تجعـــل مـــن حبـــاك بـــوده ظهـــر البعـــير فثـــق بأنـــك عـــاقره
مـــن ذا حملـــت عليـــه كلـــك كلـــه إلا اشـــمأز فظـــن أنـــك حـــاقره
كلـــف جـــوادك مـــا يطيـــق فبـــالحري أن يـــستقل بـــما تطيـــق حـــوافره

أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى، أخبرنا ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه الأصمعي، قال عبد الله بن جعفر: كمال الرجل بخلال ثلاث: معاشرة أهل الرأي والفضيلة، ومداراة الناس بالمخالقة الجميلة، واقتصاد من غير بخل في القبيلة؛ فذو الثلاثة سابق، وذو الاثنين زاهق، وذو الواحدة لاحق، فمن لم تكن

فيه واحدة من الثلاث لم يسلم له صديق، ولم يتحنن عليه شفيق، ولم يتمتع به رفيق.

قال ابن أبي دؤاد: صديق عدوك حربك.

قال محمد بن علي بن الحسين الباقر -رضي الله عنهم- لأصحابه: أيدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذًا بإخوان.

شاعر:

ومن يرع بقلا من سويقة يغتبق قراحًا ويسمع قول كل صديق

قال العتابي لصاحب له: ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروءة،، وإذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنفك، وإذا نكرت عرفك،

وإذا جفوت لاطفك، وإذا بررت كافأك، وإذا لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كف عنك غرب العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته استرحت.

وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال.

وقيل للخليل: استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو؟ قال: نعم، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه.

وقيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك أم القريب؟ قال: القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا.

مرض قيس بن سعد بن عبادة فأبطأ إخوانه عنه، فسأل عنهم، فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله ما يمنع الإخوان من العيادة، ثم أمر مناديًا فنادى؛ ألا من كان لقيس عليه حق، فهو منه في حل وسعة، فكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده.

قال عبد الملك بن مروان: من كل شيء قد قضيت وطرًا، إلا من محادثة الإخوان في الليالي الزهر، على التلال العفو.

شاعر:

وقل الذي يرعاك إلا لنفسه وللنفع يعتد الصديق معده

قال أبو عثمان الجاحظ: كان ابن أبي داود إذا رأى صديقه مع عدوه قتل صديقه. قال أبو حامد المروروذي: هذا هو الإسراف والتجاوز والعداء الذي يخالف الدين والعقل، لعل صديقك إذا رأيته مع عدوك يثنيه إليك، ويعطفه عليك، ويبعثه على تدارك فائتة منك، ولو لم يكن هذا كله لكان التأني مقدمًا على العجل، وحسن الظن أولى به من سوء الظن. ثم قال: ذهب الإنصاف في العداوة والصداقة، وأصبح الناس أبناء واحد في الرغبة، والرهبة، والجهل، والجبرية، والعمل على سابق الهوى، وداعية النفس، وهذا لأن الدين مرخي الرسن، مخدوش الوجه، مفقوء العين، مزعزع الركن، والمروءة ممزقة الجلباب، مهجورة الباب، ليس إليها داع، ولا لها محبب، والله المستعان.

قال الأصمعي: كان يقال: البخيل من أقرض إلى ميسرة.

قال عمر بن شبة: التقى أخوان في الله، فقال أحدهما لصاحبه: والله يا أخي إني لأحبك في الله، فقال له الآخر: لو علمت مني ما أعلمه من نفسي لأبغضتني في الله. فقال: والله يا أخي لو علمت منك ما تعلمه من نفسك لمنعني من بغضك ما أعلمه من نفسي.

وقال المدائني: إذا ولي صديق لك ولاية، فأصبته على العشر من صداقته فليس بأخ سوء.

قال فيلسوف: من عاشر الإخوان بالمكر كافأوه بالغدر.

وقال إبراهيم بن أدهم: أنا منذ عشرين سنة في طلب أخ إذا غضب لم يقل إلا الحق فما أجده.

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات: يستأسدون على الصديق وللعدو ثعالب.

اعتل بعض إخوان الحسن بن سهل، فكتب إليه الحسن: أجدني وإياك كالجسم الواحد، إذا خص عضوًا منه ألم عم سائره، فعافاني الله بعافيتك، وأدام لي الإمتاع بك.

قال ثعلب: كان يقال: لعداوة يحيى بن برامك أنفع لعدوه من صداقة غيره لصديقه.

أخبرنا القدسي، قال: أخبرنا أبو العباس أحمد بن يحيى، قال ابن الأعرابي عن المفضل: جاء رجل إلى مطيع بن إياس فقال: قد جئتك خاطبًا، قال: لمن؟ قال: لمودتك، قال: قد أنكحتكها وجعلت الصداق أن لا تقبل في مقالة قائل.

قال أبو الدرداء: معاتبة الأخ خير من فقده، ومن لك بأخيك كله، أطع أخاك، ولِنْ له، ولا تسمع فيه قول حاسد وكاشح، غدًا يأتيك أجله فيكفيك فقده، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصله؟ قال بعض السلف: عليك بالإخوان، ألم تسمع قوله تعالى: {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم}.

وأنشدنا الأندلسي:

لي صديق هو عندي عوز ... من سداد لا سداد من عوز

شاعر:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس فيصلح

وقال جعفر بن محمد -رضي الله عنهما-: حافظ على الصديق ولو في الحريق.

وقال شاعر: لست ذا ذلة إذا عضني الدهر، ولا شامخًا إذا واتاني.

أنا نار في مرتقى نفس الحاسد، ماء جار مع الإخوان. كان على حاتم أبي نواس الحسن بن هانئ إخوان ذا الزمان دود وود وزوان.

أخبرنا الطبراني، قال: سمعت عبد الله بن المعتز يقول: قال بعض الملاح: إن الناس قد مسخوا خنازير، فإذا وجدت كلبًا فتمسك به.

قال أبو العيناء في رجلين أفسد ما بينهما: تنازعا ثوب العقوق حتى صدعاه صدع الزجاجة ما لها من جابر.

قال شريح القاضي: الخليط أحق من الشفيع، والشفيع أحق من الجار، والجار أحق ممن سواه.

قال رجل لأبي مجنب: إني لا أودك، فقال: إني لأجد رائد ذاك.

كاتب: قد أهديت لك مودتي رغبة، ورضيت منك بقبولها مثوبة، وأنت بالقبول قاض لحق، ومالك لرق، والسلام.

سئل صعصعة عن طلحة، فقال: كان حلو الصداقة، مر العداوة.

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: الإخوان بمنزلة النار، قليلها متاع وكثيرها بوار.

قال الأحنف: كانت المودة قبل اليوم محضًا، فليتها تكون اليوم مذقًا.

قال أحمد بن أبي فنن: حدثنا عمرو بن سعيد بن سلام قال: كنت في حرس المأمون ليلة من الليالي نائبًا، فبرز المأمون في بعض الليل متفقدًا من حضر، فعرفته، فقال لي: من أنت؟ فقلت: عمرو - عمرك الله - بن سعيد - أسعدك الله - بن سلام - سلمك الله - فقال: أنت تكلأنا مذ الليلة. قلت يكلأك الله.

فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا صرف زمان صدعك ... بدد شمل نفسه ليجمعك

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار، فوددت أن الأبيات طالت.

قيل للعتابي: إنا نراك زاهدًا في استطراف الإخوان؟ قال: إني لم أحمد تالِدهم.

تمثل عبد الملك بقول الشاعر:

فاستبق ودك للصديق ولا تكن قتبًا يعض بغارب ملحاحا
واهجرهم هجر الصديق صديقه حتى تلاقيهم عليك شحاحا

أخبرنا أبو سعيد السيرافي، قال أخبرنا ابن دريد، حدثنا عبد الرحمن، قال: عرض عمي الأصمعي برجل كان حاضرًا فأنشد:

صديقك لا يثني عليك بطائل فماذا ترى فيك العدو يقول

فقال الرجل:

وحسبك من لؤم وخبث سجية بأنك عن عيب الصديق سئول

شاعر:

يصافيني الكريم إذا التقينا ويبغضني اللئيم إذا رآني

قال ابن عائشة: جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك.

قال أبو جعفر المنصور: من أعطى إخوانه النصفة، وعاشرهم بجميل العشرة قوي بهم عضده، وزاد بهم جلده، وبذلوا دونه المهج، وخاضوا في رضاه اللجج.

شاعر:

بيني وبين لئام الناس معتبة ما تنقضي وكرام الناس إخواني

إذا لقيت لئيم القوم عنفني وإن لقيت كريم القوم حياني

شاعر:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وأشرقني على حنق بريقي
عفوت ذنوبه وصفحت عنه مخافة أن أعيش بلا صديق

قال بعض السلف: استطرد لعدوك، وأبقه بإظهار الرضا عنه، والمداراة له حتى تصيب الفرصة فتأخذه على غرة.

قال طلحة بن عبد الله: أعظم لخطرك أن لا تري عدوك أنه لك عدو.

قال الحسن بن وهب: طرف الصداقة أملح من طرف العلاقة، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق.

شاعر:

ولقد طويتكم على علاتكم وعرفت ما فيكم من الأدغال

قيل لروح بن زنباع: ما معنى الصديق؟ قال: لفظ بلا معنى.

وأنشد هلال بن العلاء الرقي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من غم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه كأنه قد ملا قلبي محبات
والناس داء وداء الناس قربهم وفي الجفاء لهم قطع الأخوات
فلست أسلم ممن لست أعرفه فكيف أسلم من أهل المودات

ألقى العدو بوجه لا قطوب به ... يكاد يقطر من ماء البشاشات
وأحزم الناس من يلقى أعاديه ... في جسم حقد وثوب من مودات

قال الشعبي: تعايش الناس بالدين زمانًا حتى ذهب الدين، ثم تعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعايشوا بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسيتعايشون بالجهالة زمانًا طويلا.

لسعية بن عريض اليهودي:

وإذا تصاحبهم تصاحب خانة ... ومتى تفارقهم تفارق عن قلى
إخوان صدق ما رأوك بغبطة ... فإذا افتقرت فقد هوى بك ما هوى
إن الكريم إذا أردت وصاله ... لم يلف حبلي واهنًا رث القوى
أرعى أمانته وأحفظ عهده ... جهدي فيأتي بعد ذلك ما أتى
يجزيك أو يثني عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

قرع رجل باب بعض السلف في ليل، فقال لجاريته: أبصري من القارع؟ فأتت الباب فقالت: من ذا؟ قال: أنا صديق مولاك، فقال الرجل: قولي له: والله إنك لصديق، فقالت له ذلك، فقال: والله إني لصديق، فنهض الرجل وبيده سيف، وكيس، يسوق جارية، وفتح الباب وقال: ما شأنك؟ قال: راعني أمر، قال: لا بك، ما ساءك، فإني قد قسمت أمرك بين نائبة، فهذا المال، وبين عدو فهذا السيف، أو أئمة فهذه الجارية؟! فقال: الرجل: لله بلادك ما رأيت مثلك.

قال الأحنف: من حق الصديق أن يحتمل له ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة.

قال بزرجمهر: إياك وقرناء السوء، فإنك إن عملت قالوا: راءيت، وإن قصرت قالوا: أثمت، وإن بكيت قالوا: شهرت، وإن ضحكت قالوا: جهلت، وإن نطقت قالوا: تكلفت، وإن سكت قالوا: عييت، وإن تواضعت قالوا افتقرت، وإن أنفقت قالوا: أسرفت، وإن اقتصدت قالوا: بخلت.

وقال أبو بكر: قارب إخوانك في خلائقهم تسلم من بوائقهم، وترتع في حدائقهم.

قال أعرابي: دع مصارمة أخيك وإن حثا التراب في فيك.

قال عمرو بن العاص: من أفحش الظلم أن تلزم حقك في مال أخيك، فيبذله لك، ويلزمك حقه في تعظيمك إياه فتمنعه، فإذا أنت جشمته إفضال المنعمين، وابتذلته ابتذال الأكفاء.

وقال أعرابي لصديق له: كن ببعضك لي حتى أكون بكلي لك.

وفي كليلة ودمنة: صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت على النتن حملت نتنًا، وإذا مرت على الطيب حملت طيبًا.

وقال أيضًا: المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب، بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بعيد اتصالها، كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شيء، ولا وصل له.

قال عثمان بن عفان: ما ملك رفيقًا من لم يتجرع بغيظ ريقًا.

قال أبو عثمان النيسابوري، وكان من الزهاد العباد: أنكر علي أبو حفص، أيام ملازمتي وخدمتي له شيئًا، فضقت ذرعًا، وهممت لو أني بطي الأرض حتى لا يراني، فخيل إليه ذاك مني، فلما رآني قال لي: يا أبا عثمان! لا تثق بمودة من لا يحبك إلا معصومًا، قال: فسكنت وعدت إلى العادة.

قال الأصمعي فيما روى لنا المرزباني عن ابن دريد، عن عبد الرحمن، عن الأصمعي قال أعرابي: أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

قيل لمسور بن مخرمة الزهري: أي الندماء أحب إليك؟ قال: لم أجد نديمًا كالحائط، إن بصقت في وجهه لم يغضب علي، وإن أسررت إليه شيئًا لم يفشه عني.

قال ابن مناذر: كنت أمشي مع الخليل فانقطع شسع نعلي فخلع نعله فقلت له: ما تصنع؟ قال: أواسيك بالحفاء! وقال بعض السلف: إياك وكره الإخوان، فإنه لا يؤذيك إلا من تعرف وأنشد:

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ... ولا بينه ود ولا نتعارف

فما سامنا ضيمًا ولا شفنا أذى ... من الناس إلا من نود ونألف

قال شبيب بن شيبة: إخوان الصديق خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء.

قال أعرابي لصاحب له: أنزلني من نفسك منزلة عبد، أنزلك من نفسي منزلة مولى، فإنك إذا فعلت ذلك تطاوعنا بلا أمر، وتناهينا بلا زجر، وإذا كان

رقيبنا العقل الهادي إلى الرضا الذائد عن الأذى، فلا عتب يسود به وجه، ولا عذر يغض منه طرف، والسلام.

كاتب. أما بعد، فقد استجبت لإخائك، ثقة مني بوفائك، فلما أن طعمت فضلك، وسرت مسيرك، واستفرغتني مودتك، واستغرقتني مقتك، فاجأتني بتغير لونك، وانزواء ركنك، وفاحش لفظك، وشانئ لحظك.

شاعر:

ستنكت نادمًا في الأرض مني وتعلم أن رأيك كان عجزا

وقال الراجز:

إن الرفيق لاصق بقلبي إذا أضاف جنبه بجنبي
أبذل نصحي وأكف لعبي ليس كمن يفحش أو يحظنبي

قال بعض السلف: ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، ولعدوك عدلك وإنصافك.

شاعر: ترك التعهد للصديق يكون داعية القطيعة. قال أبو بكر في دعائه: اللّهم! إني أعوذ بك من نظرة غيظ نفذت من عين حاسد، غائبها حرب، وشاهدها سلم.

شاعر:

فلا تقطع أخاك من أجل ذنب فإن الذنب يغفره الكريم

وأنشد:

إذا أنكرت أحوال الصديق فلست من التحيل في مضيق

طريـــق كنـــت تـــسلكه زمانًـــا فأســـبع فاجتنبـــه إلى طريـــق

كاتب: عرضت عليك مودتي فأعرضت عني، وأعرض عنك غيري فتعرضت له، فالله المستعان على فوت ما أملته لديك، وبه التعزي عما أصبت به منك.

مر بخالد بن صفوان صديقان، فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر، فقيل له في ذلك، فقال: عرج علينا هذا لفضله، وطوانا ذاك لثقته. ويروي في مثله: عرج علينا هذا بالمقة وانصرف ذاك عنا بالثقة.

شاعر:

أعاتـــب لـــيلى إنـــما الهجـــر أن تـــرى صـــديقك يـــأتي مـــا أتـــى لا تعاتبـــه

قال أعرابي لصاحب له: قد درن ذات بيننا، فهلم إلى العتاب لنغسل به هذا الدرن، فقال له صاحبه: إن كان كما تصف فذاك لبادرة ساءتك مني، إما لك وإما لي، فهلا أخذت بقول القائل:

إذا مـــا أتـــت مـــن صـــاحب لـــك زلـــة فكـــن أنـــت محتـــالا لزلتـــه عـــذرا

والله لا صفت مودتنا، ولا عذب شربها لنا إلا بعد أن يغفر كل واحد منا لصاحبه ما يغفره لنفسه من غير منٍّ ولا أذى.

شاعر:

إذا أنـــت لم تنـــصف أخـــاك وجدتـــه عـــلى طـــرف الهجـــران إن كـــان يعقـــل

ويركـــب حـــد الـــسيف مـــن أن تـــضيمه إذا لم يكـــن عـــن جانـــب الـــسيف مزحـــل

قال العوامي: الصديق يرتفع عن الإنصاف، ويجل أيضًا عن الهجران، لأن الإنصاف ينبغي أن يكون عامًا مع الناس كلهم، وأما الهجران، فالعاقل لا يسرع إليه لعدم الإنصاف، بل يستأني، ويقف، ويكظم، ويتوقع، ويرى أن العارض في الأمر لا يزال به الأمر الثابت، والعرق النابت.

شاعر:

إذا رأيت ازورارًا من أخي ثقة ... ضاقت علي برحب الأرض أوطاني

فإن صددت بوجهي كي أكافئه ... فالعين غضبي وقلبي غير غضبان

وقال العتبي:

وصاحب لي أبنيه ويهدمني ... لا يستوي هادم يومًا وبناء

إذا رآني فعبد خاف معتبة ... وإن نأيت فثم الغمر والداء

بلغ الإسكندر الملك موت صديق له فقال: ما يحزنني موته أني لم أبلغ من بره ما كان أهله مني.

قال ابن أبي ليلى: لا أماري صديقي، فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه.

وكان بين القاضي أبي حامد المروروذي وبين ابن نصرويه العداوة الفاشية، والشحناء الظاهرة، فكان إذا جرى ذكر ابن نصرويه أنشد:

وأبي ظاهر العداوة إلا ... طغيانًا وقول ما لا يقال

وكان يقول: والله إني بباطنه في عداوته أوثق مني بظاهر صداقة غيره، وذاك لعقله الذي هو أقوى زاجر له عن مساءتي، إلا فيما يدخل في باب المنافسة، ولهذا استمر أمرنا أربعين سنة، من غير فحاشة ولا شناعة، ولقد

دعيت إلى الصلح فأبيت فقلت: لا نحرك الساكن منا، فلقديم العداوة بالعقل، والحفاظ من الذمام، والحرمة ما ليس لحديث الصداقة بالتكلف والملق، ولقد وقفني مرة على ضربة تأتت له علي كان فيها البوار، كف عنها، وأخذ بالحسنى، فأريته أختها، وكانت خافية عنده، فقال: لولا علمي بأنك تسبق إلى مثل هذه ما قابلتك بتلك، فقلت: هو والله ذاك، ووالله لقد ضرني ناس كانوا ينتحلون مودتي، ويتبارون في صداقتي، لضعف نحائزهم، ولؤم غرائزهم، ولقد ثبت لي هو في عداوته على عقل وتذمم أفضيا بهما إلى سلامة الدين، والنفس، والحال. وورد معز الدولة هذا المصر، فسأله عني سرًّا، فأثنى خيرًا وقال: ما قطن مصرنا غريب أعظم بركة منه، وإنه لجمالنا عند المباهاة، ومفزعنا عند الخلاف. ولقد سألني معز الدولة عنه سرًّا، فأثنيت خيرًا وقلت: أيها الأمير! والله ما نشأت فتنة في هذا المصر إلا وهو كان سبب زوالها، وإطفاء ثائرتها، وإعادة الحال إلى غضارتها ونضارتها. فقال معز الدولة لأبي مخلد سرًا، كيف الحال بينهما، يعنينا، فقال: بينهما نبو لا ينادى وليده، وتعَادٍ لا يلين أبدًا شديده. فقال: لئن كان كما تقول فإنهما ركنا هذا البلد، وعدتا هذا السواد، اجعلهما عيني أبصر بهما أحوال الناس في هذا المكان، وأعول عليهما في ما يريان ويشيران، فخلا بي أبو مخلد وبصاحبي، وتقدم إلينا عن صاحبه بما زادنا بصيرة وتألفًا إلى هذه الغاية، ثم قال أبو حامد: والله إن عداوة العاقل لألذ وأحلى من صداقة الجاهل، لأن الصديق الجاهل يتحاماك بعداوته، ويهدي إليك فضل عقله ورأيه، ومن فضل عداوة الجاهل أنك لا تستطيع مكاشفته حياء منه، وإيثارًا للإرعاء عليه، ومن فضل عداوة العاقل أنك تقدر على مغالبته بكل ما يكون منه إليك، ثم قال: وما أظن أنه كان فيما مضى إلى وقتنا هذا متصادقان على العقل والدين مثل أبي بكر وعمر، ومن يتحرى أخبارهما، ويقفو آثارهما وقف

على غور بعيد، هذا مع العنجهية المصحوبة أيام الجاهلية، والعجرفية المعتادة أوان الكفر، فلما أنار الله قلوبهما بالإيمان رجعا إلى عقل نصيح، ودين صحيح، وعرفان بالعرف والنكر، ونهوض بكل ثقل وخف، وإني لأرحم الطاعن فيهما، والنائل منهما، لضعف عقله ودينه، وذهابه عما خصا به، وعما فيه، وميزا عنه، ورقيا إليه، واندفع في هذا وشبهه، وكان والله بليل الريق، يستحضر كيف شاء بالطويل والعريض، والجليل والدقيق.

أطلنا هذا الفصل على ما اعتن، والمعذرة فيه مقدمة إليك، وأنت أولى من يقبلها، وزادني تفضلا من عنده عليهما، جامعًا لما شئت من الكرم، حافظًا لما قد ضاع من الذمم.

قال علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-: شر الإخوان من تكلف له، وخيرهم من أحدثت لك رؤيته ثقة به، وأهدت إليك غيبته طمأنينة إليه.

شاعر:

لو قيل لي خذ أمانًا ... من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانًا ... إلا من الإخوان

أنشد عمر بن عبد العزيز:

إني لأمنح من يواصلني ... مني صفاء ليس بالمذق
وإذا أخ لي حال عن خلق ... داويت منه ذاك بالرفق
والمرء يصنع نفسه ومتى ... ما تبله ينزع إلى العرق

وأنشد آخر:

يا أكرم الناس في ضيق وفي سعة ... وأنطق الناس في نظم وفي خطب

إنـــا وإن لم يكـــن مـــا بيننـــا نـــسب فرتبـــة الـــود تعلـــو رتبـــة النـــسب
كـم مـن صـديق يـراك الـشهد عـن بعـد ومـــن عـــدو يـــراك الـــسم عـــن قـــرب

وأنشد آخر:

فـــما منـــك الـــصديق ولـــست منـــه إذا لم يعنـــــــــه شيء عناكـــــــا

قال أعرابي: المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة.

قال محمد ابن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بدًا من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجًا.

قال أبو بكر: حق الجليس إذا دنا أن يرحب به، وإذا جلس أن يوسع له، وإذا حدث أن يقبل عليه، وإذا عثر أن يقال، وإذا أنقص أن ينال، وإذا جهل أن يعلم.

كان بعض السلف يقول في دعائه: اللّٰهم احفظني من أصدقائي، فسئل عن ذلك، فقال: إني أحفظ نفسي من أعدائي. قال أبو سليمان: إن كانوا عندك أصدقاء فما أقر عينك بهم لأنك محفوظ فيهم، وإن كانوا غير أصدقاء فما وجه فكرك فيهم.

وقال الشاعر:

تـــود عـــدوي ثـــم تـــزعم أننـــي صـديقك لـيس النـوك عنـك بعـازب
ولـــيس أخـــي مـــن ودني رأي عينـــه ولكـــن أخـــي مـــن ودني في المغائـــب
ومـــن مالـــه مـــالي إذا كنـــت معـــدمًا ومـــالي لـــه إن عـــض دهـــر بغـــارب
فـــما أنـــت إلا كيـــف أنـــت ومرحبًـــا وبـــالبيض رواغ كـــروغ الثعالـــب

قيل لبزرجمهر: ما بال معاداة الصديق أقرب مأخذًا من مصادقة العدو؟ قال: لأن إنفاق المال أهون من كسبه، وهدم البناء أسهل من رفعه، وكسر الإناء أيسر من إصلاحه.

قال أبو سليمان: لم يعمل شيئًا في الجواب؛ لأنه ماثل مسألة السائل بمسألة مثلها، فلو سأله السائل عن هذه كلها ما كان جوابه، ثم أجاب هو بكلام لا يدخل في هذه الرسالة؛ لأنه من الفلسفة التي هي موقوفة على أصحابها لا نزاحمهم عليها، ولا نماريهم فيها.

وقال الشاعر:

إذا المرء لم يطلب معاشًا لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا

قال معاوية: المودة بين السلف ميراث بين الخلف.

قال أبو العتاهية: قلت لعلي بن الهيثم: ما يجب للصديق؟ قال: ثلاث خلال: كتمان حديث الخلوة، والمواساة عند الشدة، وإقالة العثرة.

قال عبد الملك بن صالح: مشاهدة الإخوان أحسن من إقبال الزمان، وألذ من نيل الأمان، وأحلى من رضا السلطان.

وقال بزرجمهر: الإخوان كالسلاح، فمنهم من يجب أن يكون كالرمح يطعن به من بعيد، ومنهم كالسهم يرمى به ولا يعود إليك، ومنهم كالسيف الذي لا ينبغي أن يفارقك.

شاعر:

وأبثثت عمرًا بعض ما في جوانحي وجرعته من مر ما أتجرع

ولابـد مـن شـكوى إلى ذي حفيظـة إذا جعلـت أسرار نفـس تطلـع

وسمعت أبا عثمان أحد الخالديين يحكي أن عيارًا سمع رجلا يقول: إذا عز أخوك فهن، فقال للقائل: أخطأت، إذا عز أخوك فأهن شأنه، وأنا أقول: لو كان هذا الحكم من رجل نبيه له في الحكمة قدم، وفي الفضل قدم، لتأوله متأول على وجه بعيد أو قريب، ولكنه روى عن عيار، وهذا الرهط ليس لأحد فيهم أسوة، ولا هم لأحد قدوة، لغلبة الباطل عليهم، وبعد الحق عنهم، ولأن الدين لا يلتاط بهم، والفتوة التي يدعونها بالاسم لا يحلون بها في الحقيقة، وكيف تصح الفتوة إذا خالفها الدين، وكيف يستقر الدين إذا فارقته الفتوة، الدين تكاليف من الله تعالى، والفتوة أخلاق بين الناس، ولا خلق إلا ما هذبه الدين، ولا دين إلا ما هذبه الخلق، على أن ابن المعتز أبا العباس قال: لست لمن خاشنني ألين، ولا إذا عز أخي أهون، ولعل هذا مسلم لأبي العباس لسموق رتبته، وشرف نسبه، ومستفيض أدبه وكرمه، وبعد فالصراخ ممن يظن به أنه صديق ثم يخرج في مسك عدو قديم، والتشكي منه مردد، وليس إلا الصبر والإغضاء، ودفع الوقت، وطرح الأذى عن الفكر، وأنا أقول هذا لأني نظرت في حال الإنسان، وصوبت طرفي فيه وصعدت، وحسبت ماله وما عليه وحصلت، وأجملت ما به وفيه وفصلت، فلم أجد له شيئًا خيرًا من الصبر، فيه يقاوم المكروه، وتستدفع البلية، وبه يؤدى شكر النعمة، وما أحلى ما أشار إليه الشاعر حين قال:

إن الزمـان عـلى اخـتلاف مـروره ما زال يخلـط حزنـه بـسروره
لم يـصف عيـشًا منـذ كـان لمعـشر إلا وعـاد يجـد في تكـديره
فالعاقـل النحريـر يلـزم نفـسه صـبرًا عليـه في جميـع أمـوره
وأحـق مـا صـبر امـرؤ مـن أجلـه مـا لا سـبيل لـه إلى تغيـيره

وحكى العلماء أن رجلا كتب على باب داره: جزى الله من لم نعرفه ولم يعرفنا خيرًا. فإننا ما أتينا في نكبتنا هذه إلا من المعارف، وقد قال الآخر:

كفاني الله شرك يا ابن عمي فأما الخير منك فقد كفاني
نظرت فلم أجد أشفى لغيظي من أني لا أراك ولا تراني

ولقد قلت لابن أبي كانون: لم لا تخالط أصحاب ابن الرازي، فأنشد:

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تمر بواديها على حال

وإذا أردت الحق علمت أن الصداقة، والألفة، والأخوة، والمودة، والرعاية، والمحافظة قد نبذت نبذًا، ورفضت رفضًا، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه، وصرفت عنها الرغبات.

ولما غنى علويه المأمون قول الشاعر:

وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه
عذيري من الإنسان لا إن جفوته صفا لي ولا إن صرت طوع يديه

استعاده المأمون مرات ثم قال: هات يا علويه هذا الصاحب، وخذ الخلافة، قد صرنا، ولله الحمد، نرضى اليوم من الصاحب، والجار، والمعامل، والتابع، والمتبوع أن يكون فضلهم غامرًا لنقصهم، وخيرهم زائدًا على شرهم، وعدلهم أرجح من ظلمهم، وأنهم إن لم يبذلوا الخير كله لم يستقصوا الشر كله، بل قد رضينا بدون هذا، وهو أن نهب خيرهم لشرهم، وإحسانهم لإساءتهم، وعدلهم لجورهم، فلا نفرح بهذا، ولا نحزن لذاك، ونخرج بعد اللتيا والتي بالكفاف والعفاف!.

أخبرنا ابن مقسم النحوي، أخبرنا ثعلب عن أبي زيد عمر بن شيبة قال: قال مطيع بن إياس في صديق كان له يصفه بالنميمة:

إن ممـــا يزيـــدني فيـــك زهـــدًا ... أننـــي لا أراك تـــصدق حرفـــا
لا ولا تكـــتم الحـــديث ولا تنـــ ... ـــطق جـــدًّا ولا تمـــازح ظرفًـــا
وإذا منـــصف أرادك للنـــصـ ... ـــف أبيـــت الوفـــاء وازددت خلفـــا
وإذا قـــال عارفًـــا قلـــت ســـوءًا ... وإذا قـــال منكـــرًا قلـــت عرفـــا

وأنشد ابن الأعرابي فيما روى ابن مقسم عن ثعلب:

وصـلتكم جهـدي وزدت عـلى جهـدي ... فلـم أر فـيكم مـن يـدوم عـلى العهـد
تـأنيتكم جهـد الـصديق لتقـصدوا ... وتـأبون إلا أن تحيـدوا عـن القـصد
فـإن أمـس فـيكم زاهـدًا بعـد رغبـة ... فبعـد اختبـار كـان في وصـلكم زهـدي
إذا خنـتم بالغيـب عهـدي فـما لكـم ... تـدلون إدلال المقـيم عـلى العهـد
صـلوا وافعلـوا فعـل المـدل بوصـله ... وإلا فـصدوا وافعلـوا فعـل ذي الـضد
فكـم مـن نـذير كـان لي قبـل فـيكم ... وهـا أنـا ذا فـيكم نـذيرًا لمـن بعـدي
تعـزوا بيـأس عـن هـواي فـإنني ... إذا انـصرفت نفـسي فهيهـات مـن رد
أرى الغـدر ضـدًّا للوفـاء وإننـي ... لأعلـم أن الـضد ينبـو عـن الـضد

قال لقمان: من يصحب صاحب الصلاح يسلم، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم.

وقال أيضًا: جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

قال الفضيل بن عياض: قال لي ابن المبارك: ما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخًا في الله قال: فقلت له: لا يهيدنك هذا فقد خبثت السرائر، وتنكرت الظواهر، وفني ميراث النبوة، وفقد ما كان عليه أهل الفتوة.

قال بكر بن عبد الله المزني: إذا انقطع شسع نعل صاحبك فلم تقف عليه فلست له بصاحب، وإذا جلس يبول فلم تلبث له فلست له برفيق.

كان عامر بن قيس إذا توجه للغزو توسم الرفاق، فإذا رأى قومًا لهم هدى قال: يا قوم إني أريد أن أصحبكم على ثلاث خلال فيقال له: ما هن؟ قال: أكون خادمًا لكم، ومؤذنًا بينكم، وأنفق عليكم. فإذا قالوا: نعم صحبهم وإلا تركهم.

قيل لفيلسوف: من أطول الناس سفرًا؟ قال: من سافر في طلب صديق.

سمع ابن عطاء رجلا يقول: أنا في طلب صديق منذ ثلاثين سنة فلا أجده، فقال له: لعلك في طلب صديق تأخذ منه شيئًا، ولو طلبت صديقًا تعطيه شيئًا لوجدت! قال أبو سليمان: هذا كلام ظالم، الصديق لا يراد ليؤخذ منه شيء، أو ليعطي شيئًا، ولكن ليسكن إليه، ويعتمد عليه، ويستأنس به، ويستفاد منه، ويستشار في الملم، وينهض في المهم، ويتزين به إذا حضر، ويتشوق إليه إذا سفر، والأخذ والإعطاء في عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم، بلا حسد، ولا نكد، ولا صدد، ولا حدد، ولا تلوم، ولا تلاوم، ولا كلوح، ولا فتوح، ولا تعريض بنكير، ولا نكاية بتغيير.

قيل لأرسطاطاليس الحكيم معلم الإسكندر الملك من الصديق؟ قال: إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك!

سئل أبو سليمان عن هذه الكلمة وقيل له: فسرها لنا فإنها وإن كانت رشيقة فلسنا نظفر منها بحقيقة. فقال: هذا رجل دقيق الكلام، بعيد المرام، صحيح المعاني، قد طاعت له الأمور بأعيانها، وحضرته بغيبها وشهادتها، وكان ملهمًا مؤيدًا، وإنما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها، ألا ترى أن لهذه الموافقة أولا، منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، وأول هذه الموافقة توحد، وآخرها وحدة، وكما أن الإنسان واحد بما هو به إنسان، كذلك يصير بصديقه واحدًا بما هو صديق، لأن العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتين تحولان إرادة واحدة، ولا عجب من هذا، فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر بقوله:

روحه روحي وروحي روحه ... إن يشأ شئت وإن شئت يشا

وليس يبعد هذا عليكم إلا لأنكم لم ترو صديقًا لصديق، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس المقتبس، وينظمكم النوع المقتبس من الإنسان، ويؤلفكم بعد ذلك البلد أو الجوار أو الصناعة أو النسب، ثم أنتم في كل ذلك الذي اجتمعتم عليه، وانتظمتم به، وتألفتم له على غاية الافتراق، للحسد الذي يدب بينكم، والتنافس الذي يقطع علائقكم، والتدابر الذي يثير البينونة منكم، ولو استصحبتم ما شملتكم به الطبيعة الكبرى في الأول، لم تميلوا إلى ما حابتكم فيه الطبيعة الصغرى في الثاني، أعني أنكم معمومون بصورة الإنسان من ناحية النوع، كما أنكم معمومون بصورة الحيوان من ناحية الجنس، ومعرضون لنيل صورة الملائكة بالاختيار الجيد، كما أنكم معرضون لنيل صورة الشياطين بالاختيار الرديء، فلو ثبتم على الصراط المستقيم، وعلقتم حبل العقل المتين المستبين، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين، كنتم كنفس واحدة في كل حال، ذلت أو صعبت، تجمعت أو

تشعبت، تعرفت أو تنكرت، وكانت هذه الشريفة أعني الموافقة والوحدة تسري في الصديق والصديق، ثم في الثاني والثالث، ثم في الصغير والكبير، وفي المطيع والمطاع، والسائس والمسوس، وفي الجار والجار، وفي المحلة والمحلة، والبلد والبلد، حتى تبلغ الأغوار والنجود، وتشتمل على الأداني، والأقاصي، فحينئذ ترى كلمة الله العليا، وطاعته العالية، إلا أن هذا لما كان متعذرًا جدًّا؛ لأن المادة الأولى لا تنقاد لهذه الصورة، والصورة الأولى لا تلابس هذه المادة، طلب هذا المتعذر في الواحد مع الواحد، في الزمان بعد الزمان، على السنن بعد السنن، على المكان بعد المكان، بالدعوة بعد الدعوة، والهيئة بعد الهيئة، بالتعاون بعد التعاون، وإذا بعد المطلوب من جهة عامة لعلة مانعة فليس ينبغي أن يقنط من الظفر به من جهة خاصة لعلة معطية، ومن المحال أن يكون المطلوب يدل على صحته العقل ثم لا يوجد في أحد المعدنين اللذين له، ولو استحال الوصول إليه، والتمكن منه، لكان العقل لا يدل على صحته، والرأي لا يشتاق إلى تحصيله، والطبيعة لا تنحو نحو مظنته، والاختيار لا يحول في طلبه، قال فعلى هذا يحمل رمز الحكيم في قوله: الصديق إنسان هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك.

وكان كلامه أتم من هذا وأنفس، ولكني ظفرت بهذا القدر فرويته على ذلك، وقول هذا الحكيم شبيه بقول روح بن زنباع، وقد سئل عن الصديق، فقال: لفظ بلا معنى، أي هو شيء عزيز، ولعزته كأنه ليس بموجود، ولو جهل معنى الصديق لجهل معنى الصاحب، لجهل معنى الخليل، وعلى هذا، الحبيب، والرفيق، والأليف، والوديد، والموآخي، والمساعد، وهذه كلها على رزدق واحد، وإنما تختلف بالمرتبة في الأخص، والأعم، والألطف، والأكثف، والأقرب، والأبعد، والأخلص، والأريب.

قال الإسكندر لديوجانس: بم يعرف الرجل أصدقاءه، قال: بالشدائد، لأن كل أحد في الرخاء صديق.

قيل لديوخانس: ما الذي ينبغي للرجل أن يتحفظ منه؟ قال: من حسد أصدقائه، ومكر أعدائه.

قيل لثيفانوس الفيلسوف: من صديقك؟ قال: الذي إذا صرت إليه في حاجة وجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها منه.

قال فيلسوف: ليس يحسر العاقل على الصديق، لأنه إن كان فاضلا تزين به، وإن كان سفيهًا راض حلمه به.

قال انكساغورس: كيف تريد من صديقك خلقًا واحدًا وهو ذو طبائع أربع، وفي مثله قال الشاعر:

وأنى له خلق واحد وفيه طبائعه الأربع

قال أبو سليمان: يعني ألبسته على هذه الحال التي هو عليها من ناحية الطبيعة، فإنك في مسكه، وخلط على مسلكه، فاجتهد بالاختيار الرشيد، والرأي السديد أن تجعل طبائعك الأربع طباقًا لطبائعه الأربع، أو طبائعه الأربع، طباقًا لطبائعك الأربع، فإنك إذا قدرت على ذلك، قدرت بعده على أن تتعرف روائد هذه الأربع، ذاهبًا بها نحو الاعتدال الذي هو صورة من صور الوحدة، فإذا أنت صديقك، وصديقك أنت، على ما صرح به كانيًا، أو على ما كنى عنه مصرحًا، فقد بان هذا الحديث من ناحية اللفظ، والنطق، والعبارة، والإشارة، وإن كان قد بقي علينا أن نجد هذا المطلوب من ناحية العيان

والمشاهدة فإنا إن وجدنا ذلك غنينا عن الخبر والاستخبار، لأن الأثر لا يطلب بعد العين، والحلم لا يتمنى بعد اليقظة، والسكر لا يحمد بعد الصحو.

سمعت برهان الصوفي الدينوري يقول: سمعت الجنيد يقول: لو صحبني فاجر حسن الخلق كان أحب إلي من أن يصحبني عابد سيء الخلق. قال برهان: لأن الفاجر الحسن الخلق يصلحني بحسن خلقه، ولا يضرني فجوره، والعابد السيئ الخلق يفسدني بسوء خلقه، ولا ينفعني بعبادته، لأن عبادة العابد له، وسوء خلقه علي، وفجور الفاجر عليه، وحسن خلقه لي.

وفي الأخلاق كلام واسع نفيس على غير ما وجدت كثيرًا من الحكماء يطيلون الخوض فيه، ويعوصون المرام منه، بتأليف محرف عن المنهج المألوف، ولو ساعد نشاط، والتأم عتاد، وقيض معين، وزال الهم بتعذر القوت لعلنا كنا نحرر في الأخلاق رسالة واسطة بين الطويلة والقصيرة نفيد فيها ما وضح لنا بالمشاهدة والعيان، وبالنظر والاستنباط، ولكن دون ذلك أوق ثقيل، وعوق طويل، والله المستعان.

شاعر:

إذا أنت صاحبت الرجال فكن فتى ... كأنك مملوك لكل رفيق
وكن مثل طعم الماء عذبًا وباردًا ... على كبد حرى لكل صديق

أخبرنا علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح، حدثنا ابن دريد قال: أنشدنا عبد الأول لرجل من بني تميم:

كم من أخ لست تنكره ... ما دمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته ... يلقاك بالترحيب والبشر

يطـــري الوفـــاء وذا الوفـــاء ويـــل ... حـــي الغـــدر مجتهـــدًا وذا الغـــدر
فـــإن عـــدا والـــدهر ذو غـــير ... دهـــر عليـــك عـــدا مـــع الـــدهر
فـــارفض بإجمـــال مـــودة مـــن ... يقـــلي المقـــل ويعـــشق المثـــري
وعليـــك مـــن حـــالاه واحـــدة ... في العـــسر إمـــا كنـــت واليـــسر
لا تخلطـــــــنهم بغـــــــيرهم ... مـــن يخلـــط العقيـــان بالـــصفر؟

رأيت الزهيري أبا بكر يعاتب العوامي على هجر جماعة كان يألفهم

ويألفونه، ويعيد القول في ذاك ويبدي، والعوامي لا ينبس بحرف، فقال له الزهيري: إن كنت تسكت استهانة بخطابي عذلتك؟ فقال العوامي: لا ولكني كما قال إسماعيل بن يسار النسائي:

إني لـصعب عـلى الأقـوام لـو جعلـوا ... رضـوى لأنفـي خـشاشًا لم يقـودوني
نفـسي هـي الـنفس آبـى أن أواتيهـا ... عـلى الهـوان وتـأبى أن تـوآتيني

وقال: والله ما يفي أنسي بهم بالغداة باستيحاشي منهم بالعشي.

قال الزهيري: اعلم أن النداراة مطية وطيئة، وروضة موبقة، ما لبس أحد ثوبها إلا وجده فضفاضًا، وقد قال صاحب الشريعة -صلى الله عليه وآله وسلم-: مداراة الناس صدقة. وقالت العرب: من لم يدار عيشه ضل. قال العوامي: لو كانت المداراة تثنيهم لي، أو تعطفهم علي كانت مبذولة، ولكنها مضرة لهم على ما أنكر منهم، ومضرة لي فيما أعرف، ولا خير في بث خير لا يورث خيرًا.

ورأيت ابن سعدان ينشد يومًا وقد أنكر شيئًا في بعض الندماء:

عـــدو راح في ثـــوب الـــصديق شريـــك في الـــصبوح وفي الغبـــوق
لـــه وجهـــان ظـــاهره ابـــن عـــم وباطنـــه ابـــن زانيـــة عتيـــق
يـــسرك ظـــاهرًا ويـــسوء سرًا كـــذاك تكـــون أبنـــاء الطريـــق

وأنا أسمي لك، وأروي كلامًا له وصفهم به منهم: أبو علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، وابن الحجاج الشاعر، وأبو الوفاء المهندس، وأبو بكر، ومسكويه، وأبو القاسم الأهوازي، وأبو سعد بهرام بن أردشير.

وكان أوزنهم عنده وألصقهم بقلبه هو ابن شاهويه. هؤلاء أهل المجلس، سوى الطارئين من أهل الدولة، لا فائدة في ذكرهم. قال زيد بن رفاعة، وكان قريبًا له من جهة الخوف له: رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق، ويعرض على أهل الآفاق، ليستفيده الصغير والكبير.

قال: أصحابي طرائق قدد، كما قال عبد الحميد الكاتب: الناس أخياف مختلفون: وأصناف متباينون، فمنهم علق مضنة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا ينباع، وكما قال الآخر:

النـــاس أخيـــاف وشـــتى في الـــشيم وكلهـــم يجمعهـــم بيـــت الأدم

وأما ابن زرعة فكبره بالحكمة، وخيلاؤه بالثروة، قد قدحا في حافة عقله، وهو لا يحس بذلك القدح، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا النفج، والتعظيم، والتهويل بأرسطاطاليس، وأفلاطون، وسقراط، وبقراط، وفلان وفلان، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب، يا نائم، يا غافل، يا ساهي، وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء، أسيرتك

سيرتهم، أحالك حالهم؟ إنما تدعي عقائدهم باللسان، وتنتحل أسماءهم باللفظ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله، لكان محمولا مقبولا، ولكنه يأبى إلا ما ألفه، وأفاد المران عليه، وما أخوفنا أن يمل الجماعة، وإن لم تمله الجماعة.

وأما ابن عبيد فكلفه بالخطابة، والبلاغة، والرسائل، والفصاحة، قد طرحه في عمق لج لا مطمع في انتقاذه منه، ولا طريق إلى صرفه عنه، هذا مع حركات غير متناسبة، وشمائل غير دمثة، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة، ودالة أصحاب الحجة.

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين جد القاضي أبي عمر في جلسته، وحديثه، وقيامه، وتخطئته مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله، فنحن إذا نظرنا إليه تخلينا صورة سخف شوهاء في صورة عقل حسناء، ولا تخلص هذه من هذه، ولا جرم استمتاعنا به قاصر عن مرادنا منه، ودنوه منا ناب عن مراده له.

وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن الموآنسة الطيبة، والمساعدة المطربة، والمفاكهة اللذيذة، والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادي إذا تخرسن كان أحلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد، وإن شئت فضع الاعتبار على من أردت، فإنك تجد هذا القول حقًا، وهذه الدعوى مسموعة.

وأما مسكويه، فإنه يسترد بدمامة خلقه ما يتكلفه من تهذيب خلقه، وأكره له المشاغبة في كل ما يجري، لا يجد في نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن

مضاءه في فن آخر هو فيه قصير الباع، بليد الطباع، وصاحب هذا المذهب ممكور به، مصاب بجيد رأيه، وقد أفسدهن قال المهلبي، وسمعت المهلبي، كما لم يصلحه، قال ابن العميد، وفعل ابن العميد، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين، والتشيع بذكر الرجال واضع من قدر الرجال.

وأما أبو بكر فهو تميمة المجلس، ولابد للدار وإن كانت قوراء من مخرج، وهو بجهله مع خفة روحه، وقبح وجهه أدخل في العين، وألصق بالقلب من غيره مع علمه، وثقل روحه، وحسن ظاهره.

وأما الأهوازي أبو القاسم فلا حلاوة، ولا مرارة، ولا حموضة، ولا ملوحة، وإنما هو كالبصل في القدر، وكالإصبع الزائدة في اليد، على أنا نرعى فيه حقًّا قديمًا، ونرحمه الآن رحمة حديثة.

وأما سيدي أبو سعيد فوالله إني لأجد به وجدًا أتهم فيه نفسي، وما وجدت ألم سهر معه قط، وإني أرى حديثه آنق من المنى إذا أدركت، ومن الدنيا إذا ملكت، وإن تمازجنا بالعقل، والروح، والرأي، والتدبير، والنظر، والإرادة، والاختيار، والعادة ليزيد على حال توأمين تراكضا في رحم، وتراضعا من ثدي، ونوغيا في مهد، وما أخوفني أن يؤتى من جهتي، أو أوتى من جهته، وإن عاقبته موصولة بعاقبتي، لأني مأمنه وهو مأمني، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه، والله المستعان.

وأما ابن شاهويه، فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقي إلينا من تجاربه ومشاهداته، ولولا زيادته التي يضع بها من نفسه، وبعض من تجاربه لكان هدك من رجل، ولكن من لك بالمهذب، ألم يقل الأول: أي الرجال المهذب.

قال زيد بن رفاعة: قلت أيها الوزير إن طلوعك على ثنايا ضمائرهم، وعلمك بخفايا سرائرهم يطالبانك بالإفراج عنهم، وقلة الاكتراث بهم قال: لا نفعل، والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم لأعيان أهل الفضل، وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم، فرقن على الحكمة المروية، والأدب المتهادي، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء، أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم؟ قال: قلت: هذا ابن عباد بالري وهو من يعرف ويسمع قال: ويحك! وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون، ويحمقون، ويتصايحون إلى أن تبح حلوقهم، وهو فيما بينهم يصيح ويقول: قال شيخانا أبو علي وأبو هاشم، دعنا من حديثه، وغثاثته، وسعبذته، فما أحب أن أزيد في وصفه على ما أشرت إليه، والله لو تصدى إنسان متوسط في العلم، والأدب، والحنكة، والإنصاف، لذكر شأنه وسيرته، ووصف حاله وطريقته، لحكي كل غريبة، وأتى بكل أعجوبة، الرجل مجدود، وفي زمرة أهل الفضل معدود.

رويت هذا الخبر على ما اتفق، وكنت أطلب له مكانًا مذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق.

قال الشاعر:

إذا لم تدر ما الإنسان فانظر ... من الخدن المفاوض والمشير

وقال الآخر:

لا تسألن عن امرئ واسأل به ... إن كنت تجهل أمره ما الصاحب

وقال عدي بن زيد الشاعر:

عــن المــرء لا تــسأل وأبــصر قرينــه فـــإن القـــرين بالمقـــارن مقتـــدي

وقال بعض السلف: الصاحب كالرقعة في الثوب، فإن كان مشاكلا لم ينب عنه الطرف، وإن كان غير مشاكل كان الفضوح.

وذكر عند النبي -صلى الله عليه وآله- رجل كان يألفه قبل أن بعثه الله نبيًّا يقال له أبو السائب، فقال: نعم الصاحب كان أبو السائب كان لا يماري، ولا يشاري.

سمعت أبا سعيد السيرافي يقول في تفسير هذين الحرفين: أي كان لا يشغب، ولا يلج، وقال: قيل في نبزهم الشراة أنهم إنما نبزوا بهذا للجاجهم في دينهم، كما قيل أيضًا: إنما نبزوا بهذا الاسم لأنهم باعوا أنفسهم لما سمعوا الله تعالى يقول:{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}.

كتب أبو تمام الزينبي إلى ابن معروف:

فصل

أما بعد. فإن الحال التي نزدوج عليها، ونستبصر فيها، ونتقاسم حقيقتها وخالصتها، ونتذاوق حلاوتها ومرارتها، ونتهادى خلقها وجديدها تحدثني بأن العتب على تقصير يكون من أحدنا قدح في عينها، ونحت لجانبها، وخدش لوجهها، فإن كان هذا صحيحًا فالعتب محظور، وصاحب التقصير معذور، وإن كان فيه لو، أو لا، أو لعل، أو نعم فأحدنا عليه مستزاد وملوم، وأنا أعوذ بالله من أن يرد على أحدنا من صاحبه ما لا يطيق، أو يعدل بصاحبه من السعة إلى الضيق، وقد نمي إلي نبيذ مما دار بينك - أطال الله بقاءك - وبين مولانا

المطيع - أدام الله أيامه - في حديث كنت مخصوصًا به من أمر البصرة، وما أفضى إليه إصعادي عنها على الوجه المشهور عند الصديق الجافي على العدو، فسبح ظني في واد من الظنة إن كان الله قد برأك منها فقد ابتلاني بها، وإن كنت غنيًّا عنها فأنا فقير إليها، وقد جد بي الفكر في تعرف ذلك منك، فلسانك أنطق بالصدق من لسان العابد الزاهد، وعقلك أعلى وأشرف من أن تتخذني غير شاكر ولا حامد، وبالله الذي لا إله إلا هو، ما يقوم لي شعث ما بيني وبينك في المنام بحيازتي جميع الأماني في اليقظة، فإن رأيت أن تجعل لي إلى لقائك طريقًا، إما بالزيارة المشرفة، وإما بالاستزارة المستشرفة، فعلت إن شاء الله.

فأجابه أبو محمد:

فصل

أما بعد: فإن الحال التي أشرت إليها ببيانك الناصع، من أدبك البارع، فهي والله محوطة بالنفس والروح، مذبوب عنها بالخاطر، عند اللمحة والسنوح، وتالله أعوذ كما عدت من ريب تتوجه نحوها، أو شوب يدب إليها، وكيف ذاك والشفقة عليها مرفرفة، والرأفة بها موكلة، ويد الثقة بعينها وشهادتها حاضنة، والنفس إلى كل ما يرد منها أو يصدر إليها ساكنة، فهذا باب ينبو عن الكلام فيه لمغالطة مخوفة تجري عليه، فأما الحديث الذي نمى إليك نبيذ منه مما دار بيني وبين مولانا - حرس الله مكانه - ونصر سلطانه، فليس فيه إلا ما يجذب بصنعك إلى العلياء، ويقر عينك بين الأولياء، ويطيل باعك على الأعداء، ويجعلك واحد الدنيا بين الأرض والسماء، فثق بما قلت، واسكن إلى ما كتبت، فإن الخير متيقن، والسعادة مظلة، والولي مرفوع، والعدو موضوع، والله على جميع ذلك مشكور محمود، ولولا أن القلم لا يطيق صريح ما همك،

لحملته كيف ما كان إليك، واللقاء صبحة يوم الاثنين عندك على الروشن الميمون: فإن رأيت أن تصرف عن بالك، كل شاغل عن ذلك، وتملأه بكل سار بذلك فعلت، مهديًّا به إلي روحًا أتعجله، وسرورًا أنتظره، إن شاء الله.

وكتب ابن عبيد الكاتب إلى ابن الجمل الكاتب كاتب نصر الدولة شاشنيكير:

فصل

الصداقة - أطال الله مدتك - التي قد وكدها الله بيننا بالدين أولا، ثم بالجوار ثانيًا، ثم بالصناعة ثالثًا، ثم بالمماحلة رابعًا، ثم بالمنشأ خامسًا، ثم بالمعاقرة سادسًا، ثم بالتجربة سابعًا، ثم بالإلف ثامنًا، ثم بالميلاد تاسعًا، ثم بانتظام هذه كلها عاشرًا تتقاضاني لك حقوقًا، أنت عن التقصير فيها أغنى، وأنا بالإعفاء عنها أملى، وإذا كنا على هذا السياج دارجين، وفي هذه الحومة داخلين، وعنها خارجين، فليس لحاسد إلينا سبيل، ولا لمتكلف علينا دليل، والله إنك لتذكر، وأجد لذكرك عبقًا يزيد على عبق العنبر، وتوصف فأرى لوصفك ما لا يراه أحد من البشر لأحد من البشر، وربما حلمت بك في الرؤيا، فيكون في ذلك قوتي طول يومي، ومن كان هذا نعته من أجلك، فكيف ينمق بالقلم شوقه إليك، وكيف يذكر ما يختصه لك، وكيف يجهز ما يشتمل عليه من خالصته ومحبته إليك قد يقصر اللفظ للطف المعنى، كما يطول المعنى لقصر اللفظ، والإخاء إذا قدم استحصدت مرائره، واستوسقت سرائره، وعند ذلك يكون الوصف باللسان تكلفًا، والتكلف للوصف تأففًا، وقد حضر لعبدك ولدي ختان أنت أولى الناس فيه بالقيام والقعود، بين الناي والعود، فإن رأيت

أن تبدر إلى ذلك غداة غد، مكافحًا للشمس عند الطلوع، غير عائج إلى غيره فعلت إن شاء الله.

فأجابه ابن الجمل:

فصل

لقد أوتيت - مد الله في عمرك - لسانًا، وبيانًا، وقلمًا، وخطًا، فمن رام شأوك انقعص، ومن توهم اللحاق بك نكص، فلله درك من ساحر بلفظه، وخالب بقلمه، ومؤيد بعقله، ومسعود بفضله، ومقدم بفرعه وأصله، ومشهور بإنصافه وعدله، ذكرت الصداقة التي وكدها الله بيننا بالأسباب التي أحصيتها، والوجوه التي سردتها، ولو لم يكن الحال على ما وصفت لكان الذي أوجبه لك على نفسي من الطاعة إذا دعوتني، والائتمار إذا أمرتني، والتشرف إذا ناجيتني، والانتساب إليك إذا قبلتني، والاعتماد عليك إذا أذنت لي فوق مودات أهل الزمان، بدرجات عاليات، وقامات مديدات، وباقيات صالحات، فكيف ونحن نجتمع في نصاب، ونجتلي في نقاب، ليس لنا في إخلاص المودة شريك، ولا يتقدمنا فيها ضريب، وما أسأل الله بعد هذا كله إلا دوامها، وصرف العيون عنها، ومد الإمتاع بها، وسكون النفس والروح إليها. فأما ما أومأت إليه من البدار إلى خدمة ولدك سيدي - نماه الله - فإني غير ملتفت إلى فرض ونفل دونه والسلام.

وقال جعفر بن يحيى لبعض ندمائه: كم لك من صديق؟ قال: صديقان قال: إنك لمثر من الأصدقاء.

وقال سهل بن هارون: الصديق لا يحاسب، والعدو لا يحتسب له.

قيل لأبي العيناء: هل ظفرت بصديق موال؟ قال: ولا بعدو مرائي.

ولما احتاج زياد إلى الحقنة وصفت له فتفحشها فقيل له: إنما يتولاها الطبيب، قال: إن كان لابد منها فالصديق.

قيل للجنيد: ابن عطاء يدعي صداقتك فهل هو كما يقول؟ قال: هو فوق ما يقول، وأجد ذلك له من قلبي بشواهد لا تكذبني عنه، ولا تكذبه عني.

قيل لأبي علي النصير: لم لا تتخذ الأصدقاء؟ قال: حتى أفرغ من الأعداء، فوالله لقد شغلوني بأنفسهم عن كل صديق يعينني عليهم، وإحالة العدو عن العداوة أولى من استدعاء الصداقة من الصديق.

قيل لرويم: ما الذي أقعدك عن طلب الصديق؟ قال: يأسي من وجدانه.

قيل لأعرابي: ألك صديق؟ قال: أما صديق فلا، ولكن نصف صديق، قيل: فكيف انتفاعك به؟ قال: انتفاع العريان بالثوب البالي.

قيل لصوفي: صف لنا الصديق؟ قال: هو الذي إذا عرض لك بالمكروه، صرحت أنت له بالمحبوب، وإذا صرح لك بالمحبوب ساعدته عليه.

قلت للأندلسي: مم أخذ لفظ الصديق؟ قال أخذ بنظر من الصدق، وهو خلاف الكذب. ومرة قال من الصدق، لأنه يقال: رمح صدق أي صلب، وعلى الوجهين، الصديق يصدق إذا قال، ويكون صدقًا إذا عمل، قال: وصدقة المرأة وصداقها وصدقتها كله منتزع من الصدق والصدق، وكذلك الصادق، والصديق، والصدوق والصدقة، والمتصدق والمصدق، كل هذا متواخ.

سمعت القاضي أبا حامد يقول: قلت للمنصوري: ما أشغفك بابن عبدك مع تشاكس ما بينكما في البلد والمذهب، فقال: ذاك لأني وجدته كما قال الشاعر:

موفق لسبيل الرشد متبع ... يزينه كل ما يأتي ويجتنب
تسمو العيون إليه كلما انفرجت ... للناس عن وجهه الأبواب والحجب
له خلائق بيض لا يغيرها ... صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

وحدثنا حمد بن محمد كاتب ركن الدولة قال: دب بيني وبين أبي الفضل - يعني ابن العميد- بعض المفسدين، فكتب إلي:

فصل

إن تسفيق الكلام بيني وبينك موضوع، لأنك عن ذلك مرفوع، وقد رضيت أن تستأني فيما تسمع، فإذا صح به ذنب عاقبت بقدره، أباد أم أبقى، توسط أم تطرف، ولا أقول إلا ما قال الأول:

أطعت الوشاة الكاشحين ومن يطع ... مقالة واش يقرع السن من ندم
أتاني عدو كنت أحسب أنه ... علينا شفيق ناصح كالذي زعم
فلما تباثثنا الحديث وصرحت ... سرائره عن بعض ما كان قد كتم
تبين لي أن المحرش كاذب ... فعندي لك العتبي على رغم من زعم

قيل لصوفي: من الصديق؟ قال: من لم يجدك سواه، ولم يفقدك من هواه.

وقيل للشبلي: من الرفيق؟ قال: من أنت غاية شغله، وأوكد فرضه ونفله. قيل له: فمن الشفيق؟ قال: من إن دهمتك محنة قذيت عينه لك، وإن شملتك

منحة قرت عينه بك. قيل له: من الوافي؟ قال: من يحكي بلفظه كمالك، ويرعى بلحظه جمالك. قيل له: فمن الصاحب؟ قال: من إن غاب تشوفت إليه الأحباب، وإن حضر تلقحت به الألباب. قيل: فمن النديم؟ قال: من إن نأى ذكر عند الكاس، وإن دنا ملك بالاستئناس.

كتب محمد بن عبد الملك بن محمد الزيات إلى إبراهيم بن العباس الصولي أيام مقامه بالأهواز كتابًا يقول فيه: قلة نظرك لنفسك حرمتك سنا المنزلة، وإغفالك حظك حطك عن أعلى الدرجة، وجهلك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة حتى صرت من قوة الأمل معتاضًا شدة

الوجل، ومن رجاء الغد متعوضًا يأس الأبد، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة، وصرت معرضًا للرحمة بعد ما تكنفتك الغبطة، وقد قال الشاعر:

إذا ما بدأت امرءًا جاهلا ... بر فقصر عن حمله
ولم تره قابلا للجميـ ... ـل ولا عرف الفضل من أهله
فسمه الهوان فإن الهوا ... ن دواء لذي الجهل من جهله

قد فهمت كتابك، وإغراقك وإطنابك، وإضافة ما أضفت بتزويق الكتب بالأقلام، وفي كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم، وهوض منك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فكتب إليه إبراهيم يستعطفه:

أخ كنت آوي منه عند إدكاره ... إلى ظل أفنان من العز باذخ
سعت نوب الأيام بيني وبينه ... فأقلعن منا عن ظلوم وصارخ

وإني وإعـــدادي لـــدهري محمـــدًا كملـــتمس إطفـــاء نـــار بنـــافخ

فما نجع فكتب:

وكنـــت أخـــي بإخـــاء الزمـــان فلـــما نبـــا صرت حربًـــا عوانـــا
وكنـــت أذم إليـــك الزمـــان فأصـــبحت منـــك أذم الزمانـــا
وكنـــت أعـــدك للنائبـــا ت فهـــا أنـــا أطلـــب منـــك الأمانـــا

فلم يثن ذلك محمدًا فكتب إليه كتابًا غليظًا وكتب في آخره:

أبـــا جعفـــر خـــف نبـــوة بعـــد دولـــة وعـــرج قلـــيلا عـــن مـــدى غلوائكـــا
فـــإن يـــك هـــذا اليـــوم يومًـــا حويتـــه فـــإن رجـــائي في غـــد كرجائكـــا

فما مرت الأيام حتى كان من أمر محمد ما كان، وولي إبراهيم ديوان الرسائل فأمر أن ينشأ فيه رسالة بقلة طاعته ففعل.

كان بين أبي الخطاب الصابي وبين أبي كعب الداهية التي لا ترام بعد صداقة كانت زائدة على شبكة الرحم، ولحمة النسب، فقيل له - أعني أبا الخطاب - كيف أنت مع ابن كعب فأنشد:

خلـــيلان مختلـــف شـــأننا أريـــد العـــلاء ويبغـــي الـــسمن

وكان ابن الجلاء الزاهد بمكة يقول لأصحابه: اطلبوا خلة الناس في هذه الدنيا بالتقوى تنفعكم في الدار الأخرى، ألم تسمعوا الله تعالى يقول: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين}.

وقال الحراني في تصنيف الناس: منهم من هو كالغذاء الذي يمسك رمقك ولابد لك منه على كل حال، لأنه قوام حياتك، وزينة دهرك،

ومنهم من هو كالدواء يحتاج إليه في الحين بعد الحين على مقدار محدود، ومنهم من هو كالسهم الذي لا ينبغي أن تقربه فإنه سبب هلكتك.

قيل لأعرابي: كيف أنسك بالصديق؟ قال: وأين الصديق، بل أين الشبيه به، بل أين الشبيه بالشبيه به؟ والله ما يوقد نار الضغائن والذحول في الحي إلا الذين يدعون الصداقة، وينتحلون النصيحة، وهم أعداء في مسوك الأصدقاء، وما أحسن ما قال حضريكم:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقال آخر:

إذا نوبة نابت صديقك فاغتنم ... مرمتها فالدهر بالناس قلب
وبادر بمعروف إذا كنت قادرًا ... وحاذر زوالا من غنى عنك يعقب
فأحسن ثوبيك الذي هو لابس ... وأفره مهريك الذي هو يركب

أيضًا:

اجعل صديقك من إذا أحببته ... حفظ الإخاء وكان دونك يضرب
واطلبهم طلب المريض شفاءه ... ودع اللئيم فليس ممن يصحب
يعطيك ما فوق المنى بلسانه ... ويروغ عنك كما يروغ الثعلب
واحذر ذوي الملق اللئام فإنهم ... في النائبات عليك ممن يخطب
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ... والنصح أفضل ما يباح ويوهب

آخر:

خير إخوانك المشارك في الضـ ... ـر وأين الشريك في الضر أينا؟
لا ينبي جاهدًا يحوطك في الحضـ ... ـر فإن غبت كان أذنًا وعينا

أنـــت في معـــشر إذا غبـــت عـــنهم بـــدلوا كـــل مـــا يزينـــك شـــينا
وإذا مـــا رأوك قـــالوا جميعًـــا أنـــت مـــن أكـــرم البرايـــا علينـــا

وقلت لأبي المتيم الصوفي الرقي: كيف حالك مع فلان؟ قال: نتداوى بالرياء إلى أن يفرج الله، قلت: هلا تخالصتما عن الرياء والنفاق؟ فقال: والله إن خوفي من أن يصير الرياء والنفاق مكاشفة، والمكاشفة مفارقة، أشد من خوفي من الرياء. والعجب أن المئونة علينا في الصبر على هذه الحال أغلظ من المئون لو تصافينا، إلا أن التصافي لا يكون مني وحدي، ولا منه وحده، ولعله يتمنى ذلك مني، كما أتمنى ذلك منه، ولكن لا يطابق ذلك مطابقة لحيلولة الزمان، والفساد العام، وغلبة ما لا سبيل إلى تغييره، طلعت الأرض بأهلها، والحاجة ماسة إلى كلمة طرية، ودعوة فاشية، وأمر جامع، حتى تأتلف القلوب، وتنتفي العيوب، وهذا إلى الله الذي خلق الخلق، ودبر الشأن، وتفرد بالغيب، وتعزز بالقدرة، وكما أن في السنة الواحدة للزمان أحوالا في الحر المفرط، والحر المتوسط، والبرد المتوسط، كذلك للدهر المديد أحوال في الخير العام، والشر العام، والخير الخاص، والشر الخاص، والعاقل من لا يتمنى ما لا يوجد، ولكن يصبر على ما يجد إن حلوًا فحلوًا، وإن مرًّا فمرًّا، إلى أن يأذن الله بالفرج من حيث لا يحتسب.

قال معمر صاحب عبد الرزاق: ما بقي من لذات الدنيا إلا محادثة الإخوان، وأكل القديد، وحك الجرب، والوقيعة في الثقلاء.

قال الشاعر:

ومـــا بقيـــت مـــن اللـــذات إلا محادثـــة الرجـــال ذوي العقـــول
وقـــد كـــانوا إذا عـــدوا قلـــيلا فقـــد صـــاروا أقـــل مـــن القليـــل

قال الأحنف: لا خير في صديق لا وفاء له، ولا خير في منظر لا مخبر له، ولا خير في فقه لا ورع معه.

قال العتبي: قال أعرابي: إذا استخار العبد ربه، واستشار صديقه، واجتهد رأيه فقد قضى ما عليه لنفسه، ويقضي الله في أمره ما أحب.

توفي ابن ليونس بن عبيد فقيل له: إن ابن عون لم يأتك. فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أخ لا يضرنا أن لا يأتينا.

وحدثني العروضي قال: لما دعا السلطان علي بن عيسى من مكة، تلقاه قوم من بغداد إلى زبالة وإلى ما فوقها ودونها، فلما قرت به الدار بمدينة السلام أتاه قوم لم يجشموا لقيه، فقال: كم من إنسان قعد لم يرم مجلسه حتى وافيناه فكان ألوط بقلوبنا، وأسكن في أسرارنا من قوم جشموا المسير إلى زبالة، إلا أن المودة هي الأصل، والصداقة هي الركن، والثقة هي الأساس، وما عدا ذلك فمحمول عليه، ومردود إليه.

قال يحيى بن أكثم: كنت أرى شيخًا يدخل على المأمون في السنة مرة، وكان يخلو به خلوة طويلة ثم ينصرف فلا نسمع له خبرًا، ولا نرى له أثرًا، لا نقدم على المسألة عنه فلما كان بعد قال لنا المأمون: واأسفًا على فقد صديق مسكون إليه، موثوق به، يلقى إليه العجر والبجر، ويقتبس منه الفوائد والغرر، قلنا وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أما كنت ترى شيخًا يأتينا في الفرط، ونخلو به من دون الناس؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد تأخر عن إبانه، وأظن أنه قد قضي، قلت: الله يمد في عمر أمير المؤمنين، وما في ذلك؟ قال: كان صديقي بخراسان، وكنت

أستريح إليه استراحة المكروب، وأجد به ما يوجد بالولد السار المحبوب، ولقد كنت أستمد منه رأيًا أُقوِّم به أود المملكة، وأصل به إلى رضاء الله في سياسة الرعية، وآخر ما قال لي عند وداعه أن قال: يا أمير المؤمنين إذا استقش ما بينك وبين الله تعالى فابلله، قلت: بماذا يا صاحب الخير؟ قال: بالاقتداء به في الإحسان إلى عباده، فإنه يحب الإحسان إلى عباده، كما تحب الإحسان إلى ولدك من حاشيتك، والله ما أعطاك الله القدرة عليهم إلا لتُصِرَّ على إحسانك إليهم بالشكر على حسناتهم، والتغمد لسيئاتهم، وأي شيء أوجه لك عند ربك من أن تكون أيامك أيام عدل وإنصاف، وإحسان، وإسعاف، ورأفة، ورحمة، ومن لي يا يحيى بمثل هذا القائل، وأنى لي بمن يذكرني بما أنا إليه صائر.

لما وقع الاختلاف بالمدينة خرج عروة بن الزبير إلى العقيق، واعتزل الناس، فعاتبه إخوانه، فقال: رأيت ألسنتهم لاغية، وأسماعهم صاغية، وقلوبهم لاهية، فخفت أن تلحقني منهم الداهية، وكان لي فيما هنالك عنهم عافية.

قال سويد الصامت:

ألا رب من تدعو صديقًا ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يفري
مقالته كالشهد ما كان شاهدًا ... وبالغيب صاب مستفيض من الثغر
يسرك باديه وتحت أديمه ... نمية غش تلوها دبر الظهر
تحدثني العينان ما القلب كاتم ... ولا جن بالبغضاء والنظر الشزر
فرشني بخير طالما قد أردته ... فخير الموالي من يريش ولا يبري

قال يحيى بن معاذ: بئس الصديق صديق تحتاج معه إلى المداراة، وبئس الصديق صديق تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وبئس الصديق صديق يلجئك إلى الاعتذار.

قال الأعمش: أدركت أقوامًا كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهرًا وشهرين، فإذا لقيه لم يزده على كيف أنت، وكيف الحال، ولو سأله شطر ماله لأعطاه، ثم أدركت أقوامًا لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يومًا سأله عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبة من ماله لمنعه.

كأن معالم الخيرات سدت دونها الطرق
وخان الناس كلهم فما أدري بمن أثق
فلا عقل ولا حسب ولا دين ولا خلق

لقي رجل صاحبًا له فقال له: إني أحبك، فقال: كذبت، لو كنت صادقًا ما كان لفرسك برقع وليس لي عباءة.

وقيل لأبي العريب المصري: إذا كان الرجل يحب صاحبه، ويمنعه ماله، أيكون صادقًا؟ قال: يكون صادقًا في حبه، مقصرًا في حقه.

قال مالك بن دينار: إخوة هذا الزمان مثل مرقة الطباخ في السوق طيب الريح لا طعم له.

قال الأحنف: خير الإخوان من إذا استغنيت لم يزدك في المودة، وإذا احتجت إليه لم ينقصك.

قال أبو يعقوب: دخلنا على أبي المطيع القرباني نسأله الحديث فقدم إلينا طعامًا فأمسكنا عنه، فقال: يا هؤلاء كانت المواساة بين الإخوان قبلنا بالضياع، والرباع، والبراذين، والمماليك، والدور والبدور، فصارت اليوم إلى هذا وهو مروءتنا، فإن أمسكتم عن هذا أيضًا ذهب هذا القدر، وماتت سنة السلف فلا تفعلوا، فأقبلنا عليه وأكلنا.

قال بلال بن سعد: أخ لك كلما لقيك ذكرك برؤيته ربك، خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارًا.

قال يحيى بن معاذ: واشوقاه إلى حبيب إذا غضب عفا، وإذا رضي كفى.

قلت لأبي سليمان: هل يلاث ما بين الصديقين، وهل يفضيان إلى هجر، وهل يفزعان إلى عتب؟ فقال: أما ما دامت الصداقة قاصرة عن درجتها القاصية، فقد يعرض هذا كله بينهما، لكنهما يرجعان فيه إلى أس المودة، وإلى شرائط المروءة، وإلى ما لا يهتك سجف الفتوة، وأما الهجر فإن حدث حدث جميلا، ولا مستمر لحوافز الشوق إلى المعهود، ومحركات النفس إلى التلاقي، وأما العتب فربما أصلح ورد الفائت، وشعب الصدع، ولم الشعث، والإكثار منه ربما عرض بالحقد، وأحدث نوعًا من النبو، وقد قيل: وما صافيت من لا تعاتبه، وربما كان العود إلى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عهداه في الأول. وقال الأول:

أناس أمناهم فنموا حديثنا ... فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

ولم يحفظوا الود الذي كان بيننا ... ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا

قلت فما الفرق بين الصداقة والعلاقة؟ فقال: الصداقة أذهب في مسالك العقل، وأدخل في باب المروءة، وأبعد من نوازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد، وآخذ بأهداب السداد، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة.

فأما العلاقة فهي من قبل العشق، والمحبة، والكلف، والشغف، والتتيم، والتهيم، والهوى، والصبابة، والتدانف، والتشاجي. وهذه كلها أمراض أو كالأمراض بشركة النفس الضعيفة، والطبيعة القوية، وليس للعقل فيها ظل، ولا شخص، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث، وتنال منهم، وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول، وآداء النفوس، وفضائل الأخرق، وفوائد التجارب، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر، والمواعظ، ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج، والطريق الوسط. على أن العشق والمحبة وما يحويهما فيهما كلام من نحو آخر. وأنشد أبو عبيدة:

إن كنت لا تصحب إلا فتى ... مثلك لم تقرن بأمثالكا
فأغض عينيك على ما ترى ... فالمسك قد يستصحب الرامكا

يقال: رامك ورامك، سمعته من الحسن بن عبد الله الإمام السيرافي.

عتب ابن ثوابة أبو العباس على سعيد بن حميد في شيء فكتب إليه سعيد:

أقلل عتابك فالزمان قليل ... والدهر يعدل مرة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه ... إلا بكيت عليه حين يزول
والمنتمون إلى الإخاء جماعة ... إن حصلوا أفناهم التحصيل
ولكل نائبة ألمت مدة ... ولكل حال أقبلت تحويل

فلئن سبقت لتبكين بحسرة ... وليكثرن علي منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق ... حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين ... من لا يشاكله لدي عديل
وليذهبن جمال كل مروءة ... وليقفرن فناؤها المأهول
ولذاك نكلف بالعتاب وودنا ... باق عليه من الوفاء دليل
ود بدا لذوي الإخاء صفاؤه ... وبدت عليه بهجة وقبول
ولعل أيام الحياة قصيرة ... فعلام يكثر عتبنا ويطول؟

آخر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالا لزلته عذرا

آخر:

البس أخاك على تصنعه ... فلرب مفتضح على النص
ما كدت أفحص عن أخي ثقة ... إلا ذممت عواقب الفحص

آخر:

احذر مودة ماذق ... مزج المرارة بالحلاوه
يحصي الذنوب عليك ... أيام الصداقة للعداوه

سعيد بن حميد:

لقد ساءني أن ليس لي عنك مذهب ... ولا لك في حسن الضيعة مرغب
أفكر في ود تقادم بيننا ... وفي دونه قربى لمن يتقرب
وأنت سقيم الود رث حباله ... وخير من الود السقيم التجنب

تسيء وتأبى أن تعقب بعده ... بحسنى وتلقاني كأني مذنب
واحذر إن جازيت بالسوء والقلى ... مقالة قوم ودهم عنك أجنب
أساء اختيارًا أو عرته ملالة ... فعاد يسيء الظن أو يتعقب
فخبت من الود الذي كنت أرتجي ... كما خاب راجي البرق والبرق خلب

وقال أعرابي: كثرة العتاب إلحاف، وتركه استخفاف.

وحدثنا أبو السائب عتبة بن عبيد الله القاضي قال: كتب إلي أبو الشهم الحرمي أيام الشبيبة في خلافة المعتمد، والزمان مُواتٍ، والعيش رفيق، والأمل قوي، وطائر السعد مرنق، وغدير الأنس مغدودق: ما أحوجك أيها الفتى المقتبل، والصاحب المؤمل، إلى أخ كريم الأخوة، كامل المروة، إذا غبت خلفك، وإذا حضرت كنفك، وإن لقي صديقك استزاده لك من المودة، وإن لقي عدوك كف عنك غرب العادية، وإذا رأيته ابتهجت، وإذا باثثته استرحت. قال: فأجبته، هون عليك فليس هذا بأول متمنى فائت والسلام.

أخبرني المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا المبرد، حدثنا أبو عمر قال الأصمعي: دخلت على الخليل وهو جالس على حصير صغير فقال: تعال واجلس، فقلت: أضيق عليك، فقال: مه، فإن الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين، وإن شبرًا في شبر يسع متحابين!.

قال بعض السلف: ضربة الناصح خير لك من تحية الشانئ، ولا فضل للمرائي بالود على مظهر الشنآن.

قال أبو جعفر الشاشي: قد أصاب في الكلمة الأولى، فأما في الكلمة الثانية فهو مقصر، لأن المرائي له ظاهر يحمد وإن كان له باطن يذم، وليس كذلك

الشنآن، فإنه ليس له باطن يحمد، ولا ظاهر يقبل، فقد بان فضل المرائي بالود على صاحبه. والمرائي قد يبلغ لك كثيرًا من محابك، والرياء ستر سابغ، وليس بينه وبين الإخلاص إلا عقدنية، وضمير نفس، وصدق غيب، وصلاح سر.

وسمعت ابن شاهين يروي عن رسول الله -صلى الله عليه وآله-: «استعيذوا بالله من شرار الناس، وكونوا من خيارهم على حذر».

شاعر:

ثلاثة أصفيتهم إخائي ... كأنهم كواكب الجوزاء
عطارديون يرون رأيي ... كأنما أهواؤهم أهوائي

آخر:

خلان لي أمرهما عجيب ... كل لكل منهما حبيب
ما لي في نجواهما نصيب ... كأنني بينهما رقيب

وقال الأول:

قد ألبس المرء فيه العيب أعرفه ... ولا أحب إخاء الكاذب الملق
حينًا وأطويه أستبقي ملولته ... طي الرداء على أثنائه الخرق

آخر:

لحى الله من لا ينفع الود عنده ... ومن حبله إن مد غير متين
ومن هو إن تحدث له العين نظرة ... تقضت بها أسباب كل قرين
ومن هو ذو لونين ليس بدائم ... على خلق خوان كل أمين

آخر:

عـــاشر النـــاس بالجميـــل ... وســـــدد وقـــــارب
واحـــترس مـــن أذى الكـــرام وجـــ ... ـــــد بالمواهـــــب
لا يـــسود الجميـــع مـــن ... لم يقـــم بالنوائـــب
ويحـــوط الأدنـــى ويـــر ... عـــى ذمـــام الأقـــارب
فهـــم ذو فطانـــة ... عـــالم ذو تجـــارب
لا تواصـــل إلا الـــ ... شريـــف الكـــريم الـــضرائب
واجتنـــب وصـــل كـــل و ... غـــد دنيء المكاســـب
نـــيرب لا يـــزال يـــو ... قـــد نـــار الحباحـــب
لا تبـــع عرضـــك المـــصـ ... ون بعـــرض المكالـــب
أنـــا للـــشر كـــاره ... ولـــه غـــير هائـــب

آخر:

بـــلاء لـــيس يـــشبهه بـــلاء ... عـــداوة غـــير ذي حـــسب وديـــن
يبيحـــك منـــه عرضًـــا لم يـــصنه ... ويرتـــع منـــك في عـــرض مـــصون

والذين ضجوا من إخوانهم الذين وثقوا بهم فخانوهم، وبكوا بالدموع الغزيرة على ما فاتهم منهم، وساءت ظنونهم بغيرهم، فكثير بثير لا يحصيهم إلا الله تعالى. هذا فرار بن سيار روى له ابن الأعرابي قوله:

جـزى الله عنـي مـرة اليـوم مـا جـزى ... شرار المـوالي حيـث يجـزي الموالـيا
إذا مـا رأى مـن عـن يمينـي أكلبًـا ... عـوين عـوى مـستجلبًا عـن شـماليا
ويـسألني أن كيـف حـالي بعـده ... عـلى كـل شيء سـاءه الـدهر حاليـا
فحـالي أني قـد حللـت ببلـدة ... أصـبت بهـا دارًا لأهـلي ومالـيا

وحـالي أني سـوف أهـدي لـه الخنـا وأمـشي لـه المـشي الـذي قـد مـشى ليـا

وهذا الأسود بن يعفر يقول:

إن امـــرءًا مـــولاه أدنـــى داره فـــيما ألـــم وشره لـــك بـــاد
إن قلـــت خـــيرًا قـــال شرًّا غـــيره أو قلـــت شرًّا مـــده بمـــداد
فلـــئن أقمـــت لأظعـــنن لبلـــدة ولـــئن ظعنـــت لأرســـين أوتـــادي
كـــان التفـــرق بيننـــا عـــن ميـــزة فاذهـــب إليـــك فقـــد شـــفيت فـــؤادي

آخر:

إن يعلمـوا الخـير يخفـوه وإن علمـوا شرًّا أذاعـوا وإن لم يعلمـوا كـذبوا

آخر:

إن يـسمعوا ريبـة طـاروا بهـا فرحًـا منـي ومـا سـمعوا مـن صـالح دفنـوا

فهذا باب طويل لا طمع في بلوغ آخره.

وقال آخر:

مـــا ودني أحـــد إلا بـــذلت لـــه صـــفو المـــودة منـــي آخـــر الأبـــد
ولا قـــلاني وإن كنـــت المحـــب لـــه إلا دعـــوت لـــه الـــرحمن بالرشـــد
ولا ائتمنـــت عـــلى سر فبحـــت بـــه ولا مـــددت إلى غـــير الجميـــل يـــدي
ولا أقـــول نعـــم يومًـــا فأتبعهـــا منعًـــا ولـــو ذهبـــت بالمـــال والولـــد
ولا أخـــون خلـــيلي في حليلتـــه حتـــى أغيـــب في الأكفـــان واللحـــد

آخر:

لله في الأرض أجنـــــاد مجنـــــدة أرواحهـــا بيننـــا بالـــصدق تعـــترف

فـما تعـارف منهـا فهـو مؤتلـف وما تنـاكر منهـا فهـو مختلـف

وقال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب:

مـن يـشتري منـي إخـاء محمـد بـل مـن يريـد إخـاءه مجانـا
بـل مـن يخلـص مـن إخـاء محمـد ولـه رضـاه كائنًـا مـن كانـا؟

آخر:

قـل لمـن شـط المـزار بـه ليـت شـعري عنـك مـا خـبرك
أعـلى حفـظ لحرمتنـا أم عفـا مـن ودنـا أثـرك

وكتب الحراني إلى صديق له:

فصل

إن كان ذهولك عن الدنيا اخضلت، وهطل عليك سماؤها، وأربت بك ديمها، فإن أكثر ما يجري في الظن بك، بل في اليقين منك، أملك ما يكون لغنانا أن يجمع بك، ولنفسك أن تستعلي عليك، إذا لانت لك أكنافها، وانقاد في كفك زمامها، لأنك لم تنل ما نلته خطفًا وخلسًا، ولا عن مقدار أزحف إليك غير حقك، ومال إليك سوى نصيبك، فإن ذهبت إلى أن حقك قد يحتمل في قوته وسعته أن يضاف إليه الجفوة والنبوة، فيتضاءل في جنبه ويصغر عن كبيره، فغير مدفوع عن ذلك، وايم الله لولا ما منيت به النفس من الضن بك، وأن مكانك منها لا يسده غيرك لتنحيت عنك، وذهلت عن إقبالك وإدبارك، ولكان في جفائك ما يكسر من غربها، ويبرد من غليلها، ولكنه كما تكاملت النعمة لك، تكاملت الرغبة فيك.

بشار:

ربـــما يثقـــل الجلـــيس وإن كـــا ن خفيفًـــا في كفـــة الميـــزان

سمعت أحمد بن محمد الكاتب يحكي: قال العتابي: لا أحب رجلا نقل إلي ما كرهت عن صديقي فغيرني له، ولا عن عدو فحملني على طلب الانتصار منه، ومع ذلك فلم يستحي بأن واجهني بما ساءني سماعه. أما قوله:

قد كنت أبكي على ما فات من سلفي وأهـــل ودي جميعًـــا غـــير أشـــتات
فـــاليوم إذ فرقـــت بينـــي وبيـــنهم نـــوى بكيـــت عـــلى أهـــل المـــودات

فليس ما نحن فيه بسبيل، لأن الكلام في الصداقة على كرم العهد، وبذل المال، وتقديم الوفاء، وحفظ الذمام، وإخلاص المودة، ورعاية الغيب، وتوقر الشهادة، ورفض الموجدة، وكظم الغيظ، واستعمال الحلم، ومجانبة الخلاف، واحتمال الكل، وبذل المعونة، وحمل المئونة، وطلاقة الوجه، ولطف اللسان، وحسن الاستنابة والثبات على الثقة، والصبر على الضراء، والمشاركة في البأساء، والعلاقة، وإن كانت تستعير من هذه الأبواب شيئًا فليس ذلك لأنه من عتادها وأساسها، ولا ما لا يتم إلا به، ولكن من أجل التحسن والتزين، وهذا الذي قاله هذا الشيخ كلام قصد، قريب، سليم، مقبول، ولسنا نتعقبه بنقص، ولا نقدح فيه باعتراض، لأن العاشق والمعشوق ليسا من الصديق والصديق، وإن كانوا يتشابهون ببعض الأخلاق، ويتلاقون في بعض الأحوال، فليكن هذا الرسم كافيًا محفوظًا، فإن المغالطة قد تقع في هذا كثيرًا، والإنصاف يقوم عليه دائمًا.

قال القرباني محمد بن يوسف: قلت للثوري: إني أريد الشام فأوصني قال: إن قدرت أن تنكر كل من تعرف فافعل، وإن استطعت أن تستفيد مائة أخ،

حتى إذا خلصوا لك تسقط منهم تسعة وتسعين، وتكون في الواحد شاكًّا فافعل.

قد شدد هذا الشيخ كما ترى، ولست أرى هذا المذهب محيطًا بالحق، ولا معلقًا بالصواب، ولا داخلا في الإنصاف، فإن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوي له أن يأوي إلى المقابر، ولابد له من أسباب بها يحيى، وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة، بعضهم صديقًا، وبعضهم عدوًا، وبعضهم منافقًا، وبعضهم نافعًا، وبعضهم ضارًّا، ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له مرد من دين، أو عقل، أو فتوة، أو نجدة، ويستفيد هو من ذلك كله ما يكون خاصًّا به، وعائدًا بحسن العقبى عليه، إما في العاجل، وإما في الآجل، ولعزة الحال في وجدان الصديق، وتعذر السلامة على القريب والبعيد، قال القائل:

كن لثغر البيت حلسا ... وارض بالوحدة أنسا
واغرس الناس بأرض الـ ... ـزهد ما عمرت غرسا
ولكن يأسك دو ... ن الطمع الكاذب ترسا
لست بالواحد حرًّا ... أو ترد اليوم أمسا
ما وجدنا أحدًا سـ ... ـاوى على الخبرة فلسا

قال علي بن عبيدة: إنه لا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ولا إخاء لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه له حتى يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره، وحتى لا يرى منهم زللا ولا خللا.

بعث النضر بن الحارث إلى صديق له بعبادان نعلين مخصوفتين وكتب إليه: إني بعثت بهما إليك، وأنا أعلم أنك عنهما غني، لكني أحببت أن تعلم أنك مني على بال والسلام.

فأجابه: ما أنا بغني عن برك الذي يحثني على شكرك، ويخرطني في سلكك، ويزيدني بصيرة بزيادة الله عندك ومحبتك؛ لأن أعلم أني منك على بال؛ لأن يقيني بذلك راسخ، وحمدي عليه غاد ورائح، لا عدمتك لي أخًا بارًا، ولا عدمتني لك قائلا سارًّا.

وقال الشاعر:

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم كنوز إذا ما استنجدوا وظهور
وما بكثير إلف خل وصاحب وإن عُدَّ منهم واحد لكثير

وقيل: لو تكاشفتم ما تدافنتم.

قال أبو غسان غناة بن كليب: اجتمعت أنا ومحمد بن النضر الحارثي وعبد الله بن المبارك، والفضيل ورجل آخر فصنعت لهم طعامًا فلم يخالف محمد بن النضر علينا في شيء، فقال له ابن المبارك: ما أقل خلافك، فأنشد:

وإذا صاحبت فاصحب ماجدًا ذا حياء وعفاف وكرم
قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وأنشد أبو حاتم:

لعمري لقد ألفتني الهموم كما يألف الصاحب الصاحبا
فأما السرور فمثل العدو إذا ما رآني نأى جانبا

قيل لعبد الله بن أبي بكرة: أي شيء أمتع؟ قال: ممازحة محب، ومحادثة صديق، وأماني تقطع بها أيامك.

وقال الشاعر:

الناس أشباه السباع فانشمر فمنهم الذئب ومنهم النمر

والضبع العثواء والليث المبر

آخر:

أخ لي يعطيني إذا ما سألته ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

آخر:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًا له ما من صداقته بد

آخر:

إذا أنت عاتبت الخليل فلم يكن بودك لم يعتبك حين تعاتبه

سمعت ابن كعب يقول: العتاب مذلة، وقل من بدأ به متظاهرًا إلا وثاب عنه خاسرًا، وربما أورث ما هو أضر مما عتب عليه، ومن نكده أنه يضطر إليه، وله ورد حلو، وصدر مر، ومأخذ سهل، ومترك صعب، على أن المودة كلما كانت أخلص، كانت أعراضها المفسدة أكثر، وقد قال الأول:

وما أنا في عتبي بأول ذي هوى رأى بعض ما لا يشتهي فتعتبا

ولقد أحسن الآخر في قوله:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدًا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

آخر:

وليس بمغن في المودة شافع ... إذا لم يكن بين الضلوع شفيع

آخر:

رأيتك تفري للصديق نوافذًا ... عدوك من أوصابها الدهر آمن
وتكشف أسرار الأخلاء مازحًا ... ويا رب مزح عاد وهو ضغائن
سأحفظ ما بيني وبينك صائنًا ... عهودك إن الحر للعهد صائن
فألقاك بالبشر الجميل مداهنًا ... فلي منك خل ما علمت مداهن
أنم بما استودعته من زجاجة ... ترى الشيء فيها ظاهرًا وهو باطن

آخر:

عذيري من صديق لا يبالي ... أأعذر في الحوادث أم ألاما
سرت نحوي نوائبه فرادى ... فلم أجفل بها فسرت تؤاما
وأظمأني فلما رمت سقيًا ... سقاني غير مكترث سماما

آخر:

لا تطفئن جوى بعتب إنه ... كالريح تغري النار بالإحراق

آخر:

ولا خير في ود امرئ متكاره ... عليك ولا في صاحب لا توافقه

آخر:

ألا إن خير الود ود تطوعت ... به النفس لا ود أتى وهو متعب

آخر:

إني إذا مـــا الخليـــل أحـــدث لي ... صرمًـــا ومـــل الإخـــاء أو قطعـــا
لا أحتـــسي مـــاءه عـــلى رنـــق ... ولا يـــراني لبينـــه جزعـــا

سمع هذا ابن كعب، فقال: ظلم، لم لا أحتسي ماءه على رنق، ولم لا أجزع لبينه، ولم لا أستصلحه، وأتلطف له، ولم أخرج عنه إذا أحدث

لي صرمًا؟ ولعل صرمه عارض، ومله عن غير عقيدة، وقطعه غلط، كأن الصديق مكسوب بسهولة، وموجود متى طلب، وهيهات! قال المأمون لعبد الله بن طاهر:

أخـــي أنـــت ومـــولاي ... ومـــن أشـــكر نعـــماه
ومـــا أحببـــت مـــن أمـــر ... فـــإني الـــدهر أهـــواه
ومـــا تكـــره مـــن شيء ... فـــإني لـــست أرضـــاه
لـــك الله عـــلى ذاك ... لـــك الله لـــك الله

وقال آخر:

ومـولى كـأن الـشمس بينـي وبينـه ... إذا مـا التقينـا لـست ممـن أعاتبـه

آخر:

أكـــاشره وأعلـــم أن كـــلا ... عـــلى مـــا ســـاء صـــاحبه حـــريص

وقال آخر:

أكـرم رفيقـك واعلـم حـين تـصحبه ... أن الرفيـق أخ مـا ضـمه الـسفر

آخر:

الـصدق أفـضل مـا حـصرت بـه ولـربما نفـع الفتـى كذبـه
ومـن الـبلاء أخ جنايتـه علـق بنـا ولغيرنـا نـشبه

وقال عروة بن الورد:

فـدع مـا لمـت صـاحبه عليـه فـشين أن يلومـك مـن تلـوم

كتب المعتصم إلى ابن ظاهر عبد الله: إياك أن تريني وجهك، فإني لست آمن نفسي عليك، ولك من قلبي مكان، ما أوثر أن يؤثر فيه ما يحيله عن صورته، ولأن تكون بعيدًا وأنا لك، خير من أن تكون قريبًا وأنا عليك، ولأن لا تراني وأنا واثق بك، أنفع لك من أن أراك وأنا ظنين فيك، وإذا صدقتك عما حنيت عليه ضلوعي من أمرك، فقد قضيت حقك في كفايتك، واستدمت به صفاء ضميرك، ولو قرأت لي ألف كتاب بالورود، فلا تعمل عليه، ولا يرخصن عندك هذا القول فإن تحته وجدًا بك، واستنامة إليك، وابتهاجًا بمكانك، وازديانًا بخبرك وعيانك، واكتم هذه الحروف عن كل عين رائية، ولا تدل على شيء منه مصرحًا، ولا معرضًا، والزم فناء عزك، واستنشق نسيم شوقي إليك، وتطعم حلاوة ثقتي بك، وشم بارقة عتب إذا مع نقع، وإذا أمسك أهلك، وإذا در بر، وإذا أقلع أجزع.

كتب أبو بكر لرجل كتابًا في شيء جعله قطيعة له فحمله الرجل إلى عمر بن الخطاب ليمضيه: فلما نظر عمر فيه بزق عليه ومحاه، فعاد الرجل مستعرًا إلى أبي بكر، فقال: فعل عمر كذا وكذا، والله ما أدري أأنت الخليفة أو عمر، فقال أبو بكر: هو، إلا أنه أنا! وكان الزهري يرويه: إلا أنه أبلى، وعلى الوجهين المراد صحيح، والمرمى عال، والغاية بعيدة.

قيل لأعرابي: أبالصديق أنت آنس أم بالعشيق؟ فقال: يا هذا الصديق لكل شيء، للجد والهزل، وللقليل والكثير، ولا عاذل عليه، ولا قادح فيه، وهو روضة العقل، وغدير الروح.

فأما العشيق فإنما هو للعين، وبعض الريبة، والعذل إليه من أجله سريع، وفي الولوع به إفراط مزجور عنه، وحد موقوف دونه، فأين هذا من ذاك؟ نهار بن توسعة:

عتبت على سلم فلما فقدته ... وجربت أقوامًا بكيت على سلم

آخر:

ونعتب أحيانًا عليه ولو مضى ... لكنا على الباقي من الناس أعتبا

قال أعرابي: تصفح عقلك مع أخيك فالقه واستشره.

شاعر:

واحفظ صديق أبيك حين وجدته ... وأحب الكرامة من بدا فحباكها

آخر:

قبح الإله عداوة لا تتقي ... وقرابة يدلى بها لا تنفع

آخر:

فتى لا يرزأ الخلان إلا ... مودتهم ويرزأه الخليل

آخر:

وكل إمارة عما قليل ... مغيرة الصديق على الصديق

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «المؤمن مألفة».

قال أبو سعيد السيرافي: معناه أنه يؤلف ولا يجوز أن يؤلف حتى يألف، فذكر المثال الذي يقع الفعل فيه ومنه.

وقال بعض السلف: خير الناس إلف الناس للناس.

وقال الشاعر:

أقلل زيارتك الصديـ ق تكن كثوب تستجده
إن الصديق يغمه أن لا يزال يراك عنده

وقال أبو هريرة: لقد دارت كلمة العرب: زر غبًّا تزدد حبًّا، إلى أن سمعت من الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه، ولقد قالها لي.

قال العسجدي: ليست هذه الكلمة محمولة على العام، ولكن لها مواضع يجب أن تقال فيها، لأن الزائر يستحقها، ألا يرى أنه -صلى الله عليه وآله وأصحابه- لا يقول ذلك لأبي بكر، ولا لعلي بن أبي طالب وأشباههما، فأما أبو هريرة فأهل لذاك لبعض الهنات التي يلزمه أن يكون مجانبًا لها، وحائدًا عنها، وقد قال الشاعر:

إذا شئت أن تقلى فزر متواترًا وإن شئت أن تزداد حبًّا فزر غبًّا

آخر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

آخر:

زر قليلا لمن يودك غبًّا فدوام الوصال داعي الملال

للعتابي:

ولقد أقول تصبرًا وتكرمًا ... لما تخرم ودك الأيام
إن تجفني فلطالما قربتني ... هذا بذاك وما عليك ملام

سعيد بن حميد:

إذا كثرت ذنوب من خليل ... فقفه بين وصل واجتناب
وأنظره فللأيام حكم ... بذلك كل ماضي العزم آب
وعاتبه فكم أبدي عتاب ... جلية مشكل بعد ارتياب
ورج النفع في الإعراض عنه ... إذا أخفقت من نفع العتاب
وراجعه بعفوك حين يثني ... عنانًا للرجوع أو الإياب
فإن العفو عن ذي الحزم أولى ... إذا قدرت يداك على العتاب
فإنك واجد للحي ذنبًا ... وتعدم ذنب من تحت التراب

آخر:

تغير لي فيمن تغير حارث ... وكم من فتى قد غيرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما ... عتبنا وما بيني وبينك ثالث

سعيد بن حميد:

جعلت لأهل الود ألا أريبهم ... بغدر وإن مالوا إلى جانب الغدر
وإن أجزي الود الجميل بمثله ... وأقبل عذرًا جاء من جهة العذر
واحملهم مني على حكم منصف ... تعلم حزم الرأي من عقب الدهر
وإن يدعني وصل أجبه ملبيًا ... وإن يدعني هجر أجب داعي الهجر

وقال:

وكنت إذا ما صاحب مل صحبتي ... صددت وبعض الصد في الحب أمثل
وقلت جميلا حين أصرم حبله ... فإن كان لم يأت التي هي أجمل

وقال:

أشكو إلى الله جفاء امرئ ... ما كان بالجافي ولا بالملول
كان وصولا دائمًا عهده ... خير الأخلاء الكريم الوصول
ثم ثناه الدهر عن رأيه ... فحال والدهر بقوم يحول
فإن يعد اشكر له فعله ... وإن يطل هجرًا فصبر جميل

آخر:

أردت عتابكم فصفحت إني ... رأيت الهجر مبدأه العتاب

آخر:

من كان لا يرجى لرفع شان ... ودفع لأواء عن الإخوان
وليس في الدين بمستعان ... فعيشه وموته سيان

آخر:

الناس من خادع ومختدع ... وكلهم مانع لما حازا
تعاملوا بالخداع بينهم ... ما جوز الناس بينهم جازا

آخر:

وصاحب كان لي وكنت له ... أشفق من والد على ولد
كنا كساق يمشي بها قدم ... أو كذراع نيطت إلى عضد

وكـــان لي مؤنـــسًا وكنـــت لـــه ليـــست بنـــا وحـــشة إلى أحـــد
حتـــى إذا اســـترفدت يـــدي يـــده كنـــت كمـــسترفد يـــد الأســـد

وروي عـن الرسـول الله -صـلى الله عليـه وسـلم- أنـه قـال: « إذا أحـب أحدكم أخاه فليعلمه حتى يحبه، فإن القلوب تتجارى » .

وروي أيـضًا أنـه قـال -صـلى الله عليـه وسـلم-: « الأرواح جنـود مجنـدة تتلاقى في الهواء، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» .

وقال رجل لشبيب بن شيبة: إني لأخلص لك الثقة، وأصفي لك المودة، قال شبيب: أشهد على صدقك وعلى صحة ودك، قال: وكيف تشهد على غيبتي وليس معي من الشاهد إلا قولي، قال: لأنك لست بجار قريب، ولا ابن عم نسيب، ولا مشاكل في صناعة فنسترهنك أسباب المحاسدة.

قال عدي بن زيد:

وظلـــم ذوي القربـــى أشـــد مـــضاضة عـــلى المـــرء مـــن وقـــع الحـــسام المهنـــد

وقلت لأبي سليمان: لم صار التنافس والتعادي وما أشبههما في ذوي القربى أكثر وأشد، وهذا كالشيء المتعالم، وهو غني عن البرهان وإعادة القول والبيان، وليس ذلك كذلك مع الأجانب والأباعد، فإن كان كالشاذ، كما أن التصافي والتخـالص أيـضًا في ذوي الـرحم كالـشاذ؟ فقـال: إن ذوي القرابـة والـرحم والنسب يرى كل واحد منهم أنه أولى وأحق بحيازة ما لأبيه وعمه، وأن غيره في ذاك كالمزاحم والدخيل والمتدلي، فتحفزه أعراض كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس، على أن يكون هو وحده حاويًا لتلك المواريث من المال، والجاه، والقدر، والمنزلة، وهذه الأعراض لا تعتري الإنسان في البعيد والنسب،

والبلد، واللغة، والصناعة والخلق. وكان كلامه أكثر من هذا لكني أوجزته، لأن الرسالة قد طالت، وأخاف أن تمل عند القراءة، وينسب واضعها إلى سوء الاختيار.

كان من دعاء ابن هبيرة: اللّٰهم إني أعوذ بك من بوائق الثقات، ومن الاغترار بظاهر المودات.

وقال أيضًا: اللّٰهم إني أعوذ بك من صديق مطر، وجليس مغر، وعدو يسر.

وقال علي بن ثابت:

إذا أديت حقًّا لم أطأطئ ... برأسي عند لقيان الصديق
وليس على مؤدي الحق لوم ... وما هو للملامة بالحقيق
وإن ضيعت حقًّا حدث عنه ... كأني قد زنيت على الطريق

آخر:

لعمرك ما أبقى لي الدهر من أخ ... حفي ولا ذي خلة أواصله
ولا من خليل ليس فيه غوائل ... وشر الأخلاء الكثير غوائله

النمر بن تولب العكلي:

أحبب حبيبك هونًا رويدًا ... إذا أنت حاولت أن تحكما

آخر:

إذا المرء لم يحببك إلا تكرهًا ... بدا لك من أخلاقه ما يغالبه

ابن سحيم:

إنـــما مـــولاك مـــن ترمـــي بـــه مـــن ترامـــي حـــين يـــشتد الوهـــل

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

لقـد عجبـت ومـا بالـدهر مـن عجـب يـد تـشح وأخـرى منـك تأسـوني

وقال عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب:

لا يزهـــــــــــــــدنك في أخ لـــــك أن تـــــراه زل زلـــــه
مـــا مـــن أخ لـــك لا يعيـــب ولـــو حرصـــت الحـــرص كلـــه

وله أيضًا:

لا تـــــركبن الـــــصنيع الـــــذي تلـــوم أخـــاك عـــلى مثلـــه
ولا يعجبنـــك قـــول امـــرئ يخـــالف مـــا قـــال في فعلـــه

شاعر:

وأبـــيض قـــد نادمتـــه فدعوتـــه إلى بـــدوات الأمـــر حلـــو شـــمائله
أخـــي ثقـــة إن ابتـــغ الجـــد عنـــده أجـــده ويلهينـــي إذا شـــئت باطلـــه

آخر:

وجـــرب حتـــى لـــو يـــشاء إذا رأى أخـا وجـر أنبـاه بـما ضـمن الـصدر

آخر:

دعـــاني أخـــي والخيـــل بينـــي وبينـــه فلـــما دعـــاني لم يجـــدني بقعـــدد

أي بضعيف. قال أبو سعيد السيرافي هذا أحد موضعي قعدد.

شاعر:

فـــما أصـــب إلى إلـــف أفارقـــه وما تـصدع أحـشائي مـن الـشفق

آخر:

إن المحـــب إذا تقـــادم عهـــده نـسي الحبيـب وسـام صـاحبه القـلى

العرب تقول: السؤال عن الصديق إحدى القرابتين.

آخر:

بـــأي جريـــرة أشـــكو الزمانـــا لأول مـــن وثقـــت بـــه فخانـــا

آخر:

تجنـب صـديق الـسوء واصرم حبالـه فـإن لم تجـد منـه محيـصًا فـداره
وصـادق إذا صـادقت حـرًّا أو امـرءًا كـريمًا مـن الفتيـان يرعـى لجـاره

وقال:

هبـوني امـرءًا مـنكم أضـل بعـيره لـــه ذمـــة إن الـــذمام كبـــير
وللـصاحب المـتروك أعظـم حرمـة عـلى صـاحب مـن أن يـضل بعـير

آخر:

وفيـــت كـــل صـــديق ودني ثمنًـــا إلا المؤمـــــل دولاتي وأيـــــامي
فـــإنني ضـــامن ألا أكافئـــه إلا بتـــسويغه فـــضلي وإنعـــامي

آخر:

إذا كنـت ربًّـا للقلـوص فـلا يكـن رفيقـك يمـشي خلفهـا غـير راكـب

أنخهـــا فاردفـــه فـــإن حملـــتكما فـــذاك وإن كـــان العقـــاب فعاقـــب

آخر:

كنـــا نعـــاتبكم ليـــالي عـــودكم حلـــو المـــذاق وفـــيكم مـــستعتب
فـــالآن إذ ظهـــر التعتـــب مـــنكم ذهـب العتـاب فلـيس عـنكم مـذهب

آخر:

ومـا أنـا بـالنكس الـدنيء ولا الـذي إذا صـد عنـي ذو المـودة أحـرب
ولكننـي إن دام دمـت وإن يكـن لـه مـذهب عنـي فـلي عنـه مـذهب
ولـست إذا ذو الـود ولى بـوده بمنـصرف آثـو عليـه وأكـذب
ألا إن خـير الـود ود تطوعـت بـه الـنفس لا ود أتـى وهـو متعـب

يقال: أثا فلان بفلان إذا وشى به، أثوا وإثاوة، سمعت ذلك من أبي سعيد السيرافي.

وأنشد اليزيدي فيما رواه لنا ابن سيف:

ألا إن إخـوان الـصفاء قليـل فهـل لي إلى ذاك القليـل سـبيل
قس الناس تعرف غثهم من سمينهم فكـل عليـه شـاهد ودليـل

آخر:

دعنـي مـن المـرء وأعراقـه ومالـه الجـم وأوراقـه
فـما الفتـى كـل الفتـى غـير مـن يـستعبد النـاس بأخلاقـه
أخـوك مـن إن خفـت مـن حـادث حللـت منـه بـين آماقـه
لـيس بغـدار ولا خـائن ولا كـذوب الوعـد مذاقـه

ولا الـــذي يخـــبر عـــن وده ... والفعـــل لا يـــأتي بمـــصداقه
طوعـــك مـــا دامـــت لـــه ســـوقة ... حتـــى إذا ارتـــاب بأســـواقه
وأبـــصر الـــشر بـــدًّا مقـــبلا ... شـــمر للمكـــروه عـــن ســـاقه
يـــذم عنـــد النـــاس إخوانـــه ... ويمـــدح الـــذم بإشـــفاقه
يـــا ليتـــه أعفـــاك مـــن لـــسعة ... ومـــن أياديـــه وأرقاقـــه
لا خـــيره قـــام بـــه شره ... ولا أفاعيـــه بدرياقـــه

وقال آخر:

وأغـضي عـلى أشـياء لـو شئت قلتهـا ... ولـو قلتهـا لم أبـق للـصلح موضـعا
وإن يـك عـودي مـن نـضار فـإنني ... لأكـره يومًـا أن أحطـم خروعـا

آخر:

ويلقـونني بالبـشر مـا دمـت فـيهم ... فـإن غبـت عـنهم قطعـوا الجلـد بالـسب
وأغـضي عـلى أشـياء مـنهم تريبنـي ... ولولا اصطباري فاض من عظمها قلبي

آخر:

إذا المـــرء لم يحببـــك إلا تكرهـــا ... عـــراض العلـــوق لم يكـــن ذاك باقيـــا
كلانـــا غنـــي عـــن أخيـــه حياتـــه ... ونحـــن إذا متنـــا أشـــد تغانيـــا
ولـــست بهيـــاب لمـــن لا يهـــابني ... ولـــست أرى للمـــرء مـــا لا يـــرى ليـــا

كان ابن كعب يقول: أنا أستجفي هذا القائل، ولم لا أرى لصديقي فوق ما يـرى لي؟ ولم لا أعتبـده بالإعـضاء، والإحـسان، والتفـضل، والـصبر؟ ولم لا أفارضه وأقايضه؟ ولم أرى أني مغبون إذا كـان الـربح له، ولم لا أظلـم نفسي في مرضاته وإن وجب أن نتسوى أبدًا في الفعل والقول، ونتكايس في الانقباض

والانبساط، ونتحافظ على اختلاس الحظ والنصيب، فهل تركنا لأصحاب المذاب والتطفيف شيئًا من الدناءة إلا وأخذنا به، ورأيناه مرغوبًا فيه، تالله! ما هذا من الصداقة في شيء، وإنه إلى الخساسة والنذالة أقرب.

وقال بعض العلماء: التمس ود الرجل العاقل في كل حين، وود الرجل ذي النكر في بعض الأحايين، ولا تلتمس ود الرجل الجاهل في حين.

قيل لديوجانيس: ألك صديق؟ قال: نعم، ولكني قليل الطاعة له، قيل: لعله غير ناصح فلذلك أنت على ذاك، قال: لا ، بل هو غاية في النصح، نهاية في الشفقة، قيل: فلم أنت على دأبك هذا المذموم مع إقرارك بفضل صديقك؟ قال: لأن جهلي طباع، وعلمي مكسوب، والطباع سابق، والمكسوب تابع، قيل: فدلنا على صديقك هذا الناصح المشفق حتى نخطب إليه صداقته، ونجتهد في الطاعة له، والقبول منه، قال: صديقي هو العقل، وهو صديقكم أيضًا، ولو أطعتموه لسعدتم ورشدتم، ونلتم مناكم في أولاكم وأخراكم، فأما الصديق الذي هو إنسان مثلك فقلما تجده، فإن وجدته لم يف لك بما يفي به العقل، ولم يبلغ بك ما يبلغ بك العقل، وربما أتعبك، وربما حزبك، وربما أشقاك، فاكبحوا أعنتكم عن الصديق الذي يكون من لحم ودم وعظم، فإنه يغضب فيفرط، ويرضى فيسرف، ويحسن فيعدد، ويسيء فيحتج، ويشكك فيضل.

قال الشاعر:

أخي لن تستفيد الدهر مثلي ... شريكًا في الحياة وفي الممات
أتتركني وأنت ترى مكاني ... وتطلبني إذا حانت وفاتي
فليس بنافعي طلب بثأري ... وأخذك من بغاني بالترات

فـــإن أهملتنـــي وطرحـــت حقـــي ... عليـــك فـــلا تغافـــل عـــن وصـــاتي
بنـــي إذا هلكـــت فـــلا تـــضعهم ... وصـــن عمـــن يعـــاديني بنـــاتي
فلـــو كنـــت الأســـير ولا تكنـــه ... عزمـــت عـــلى حياتـــك لي حيـــاتي

قال عيسى ابن مريم -عليه السلام- فيما حدثنا ابن الجمل الكاتب النصراني لتلامذته: علامتكم التي تعرفون بها أنكم مني؛ أن يود بعضكم بعضًا.

وقال عيسى أيضًا لأيشوع تلميذه: أما الرب فينبغي أن تحبه بكل قلبك، ثم تحب قرينك كما تحب نفسك، قيل له: بين لنا يا روح الله ما بين هاتين المحبتين حتى نستعد لهما بتبصرة وبيان، قال: إن الصديق تحبه لنفسك، والنفس تحبها لربك، فإذا صنت صديقك فلنفسك تصون، وإذا جدت بنفسك فلربك تجود.

وقال الشاعر:

ومـــن لم يكـــن منـــصفًا في الإخـــاء ... إن زرت زار وإن عـــــدت عـــــادا
أبيـــــت عليـــــه أشـــــد الإبـــــاء ... وإن كـــان أعـــلى قـــريش عـــمادا
وقارضـــته الوصـــل كـــيلا بكيـــل ... ووزنًـــا بـــوزن عـــلي لـــدادا
فـــــإن هـــــو صـــــحح في وده ... جعلـــت اللـــسان لـــه والفـــؤادا
وإن بـــدل القـــول دون الفعـــال ... بـــذلت اللـــسان وصـــنت الـــودادا

قيل لعبد الله بن المبارك: إن قوما يلتقون بالبشر والسلام، فإذا تفرقوا طعن بعضهم على بعض. فقال: أعداء غيب، إخوة تلاق، تبًّا لهذه الأخلاق، كأنما شقت من النفاق.

وقال آخر:

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

آخر:

وإن امرءًا يصلي الصديق بشره لأول من يبقى بغير صديق

قال سعيد بن ميمون: لقيت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فصافحني، ثم قال:

إذا شئت أن تلقى خليلا مصافيًا لقيت وإخوان الثقات قليل

فقلت: أمثلك يقول الشعر؟ فقال: أوما علمت أن المصدور إذا نفث برأ.

وقال بزرجمهر: عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، والعامة بالرغبة والرهبة، وسوسوا السفلة بالمحاور صراحًا.

شاعر:

إذا صديق نكرت جانبه لم تعيني في مرامه الحيل

آخر:

إذا المرء لم يبذل من الود مثل ما بذلت له فاعلم بأني مفارقه
فإن شئت فارفضه فلا خير عنده وإن شئت فاجعله صديقًا تماذقه

قلت للهائم أبي علي: من تحب أن يكون صديقك؟ قال: من يطعني إذا جعت، ويكسوني إذا عريت، ويحملني إذا كللت، ويغفر لي إذا زللت، فقال له علي بن الحسين العلوي: أنت إنما تريد إنسانًا يكفيك مئونتك، ويكفلك في حالك، كأنما تمنيت وكيلا فسميته صديقًا، فما أحار جوابًا.

وقلت للبنوي ولقيته بالدسكرة سنة خمس وستين: من تحب أن يكون صديقك؟ قال: يقيلني إذا عثرت، ويقومني إذا ازوررت، ويهديني إذا ضللت، ويصبر علي إذا مللت، ويكفيني ما لا أعلم وما علمت.

وسمعت أبا عامر النجدي يقول: الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك، ويصدقك أيضًا عنك لتكون على مثله، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، فليس لكما فرحة، ولا ترحة، إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والانكماش، والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش.

وقال أيضًا: قيل لأعرابي: ألك صديق؟ قال: لا ولكن أليف.

شاعر:

ويلقونني بالبشر ما دمت فيهم ... فإن غبت عنهم قطعوا الجلد بالسب
وأغضي على أشياء منك تريبني ... ولولا اصطباري فاض عن عظمها قلبي
وما ذاك من ضعف ولا سوء محتد ... ولكن تناسي الذنب أقطع للذنب

آخر:

لقد أسمع القول الذي كاد كلما ... تذكرنيه النفس قلبي يصدع
فأبدي لمن أبداه مني بشاشة ... كأني مسرور بما منه أسمع
وما ذاك من عجب به غير أنني ... أرى أن ترك الشر للشر أقطع

آخر:

نغيب إذا غبنا بنصح ونلتقي ... بأحسن ما إلفان ملتقيان

ونخفي الهوى عمن أخاف وإننا إلى من أمناه لمشتكيان

آخر:

يحيي ويستحيي إذا ما لقيته وإن غبت أو وليت أرتع في عرضي
ولو شئت قد عض الأنامل نادمًا وأوطأته عن ذاك في منزل دحض
ولكنه إحدى يدي فلم أجد سبيلا إلى صول لبعضي على بعض

عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

فأنت أخي ما لم يكن لي حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أخا ليا
فلا ازداد ما بيني وبينك بعدما بلوتك في الحاجات إلا تماديا

وله:

أصد صدود امرئ مجمل إذا حال ذو الود عن حاله
ولست بمستعتب صاحبًا إذا جعل الصرم من باله
ولكنني صارم حبله وذلك فعلي بأمثاله
وإني على كل حال له من إدبار ود وإقباله
لراع لأحسن ما بيننا لحفظ الإخاء وإجماله

وأنشد الأصمعي:

إذا ما امرؤ ساءتك منه خليقة ففي الصفح طي للذنوب جميل
وإني لأعطي المال من ليس سائلا حفاظًا وإخوان الحفاظ قليل

حدثني أبو حامد العلوي، وكان من الحجاز، سنة سبعين وثلاثمائة بمدينة السلام قال: رمى أعرابي من بني هلال عن حيه إلى أطراف الشام فقيل له: من

خلفت وراءك؟ قال: خلفت والدًا ووالدة، وأختًا، وابن عم، وبنت عم، وعشيقة، وصديقًا، قيل له: فكيف حنينك إليهم؟ قال: أشد حنين، قيل: فصفه لنا؟ قال: أما حنيني إلى والدي فللتعزز به، فإن الوالد عضد وركن يعاذ بهما، ويئوى إليهما، وأما نزاعي إلى الوالدة فللشفقة المعهودة منها ولدعائها الذي لا يعرج إلى الله مثله، وأما شوقي إلى الأخت فللصيانة لها، والتروح إليها، وأما شوقي إلى ابن العم فللمكانفة له والانتصار به، وأما ابنة العم فلأنها لحم على وضم أتمنى أن أشبل عليها بالرقة، أو أصلها ببعض من يكون لها كفؤًا، ويكون لنا إلفًا، وأما صبابتي بالعشيق فذاك شيء أجده بالفطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المجون جواد راكض. وأما الصديق فوجدي به فوق شوقي إلى كل من نعته لك لأني أباثه بما أجل أبي عنه، وأجبأ من أمي فيه، وأطويه عن أختي خجلا منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفًا من حسد يفقأ ما بيني وبينه، وأكني عن بنت عمي بغيرها لأنها شقيقة ابن العم، ومعها نصف ما معه، وهي من الشجرة التي تلفنا عيصها، وتلتقي علينا أفنانها، ويجمعنا ظلها. فأما العشيقة فقصاري معها أن أشوب لها صدقًا بكذب، وغلظة بلين؛ لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيادة، وتحفة من حديث، وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني، وانتسابهم إلي دون الصديق الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينه إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت، إذا عززت به ذل لي، وإذا ذللت له عز بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة، لا يتوارى عني إلا حافظًا للغيب، ولا يتراءى لي إلا ساترًا للعيب. قيل له: فهل نمى إليك خبره منذ بان عنك أثره؟ قال: نعم، لحقني بعض فتيان الحي أمس فسألته قرابتي وعشيرتي فنعت لي كلا، وأطاب أخبارهم، حتى إذا سألته عن الصديق قال: ما له

هجيري سواك، إن عبر فباسمك يستقل، وإن تنفس فبذكرك يقطع، وإذا أوى إلى ندوة الحي فبلسانك ينش وجودك يذكر، لا يمر بمعهد لك إلا حياه، ولا بمكان حله معك إلا تبواه، فقلت له: كف قليلا فقد أججت في صدري نارًا كانت طافئة، وأبديت صبابة كانت خافية، وما أراني منتفعًا بالعيش دون أن أشخص إليه غير مبال بهذه الميرة والغيرة التي خرجت من جراهما.

قال أبو حامد: فضرب والله كبد راحلته إلى حيه، وترك ما كان فيه مستعرًا مستقترًا. قلت لأبي حامد: ما أفصح هذا اللفظ، وما أرق هذا الحديث، لكني أنكرت قوله: جواد راكض، قال: أراد ذو ركض، ومثل هذا يندر في كلامهم.

شاعر:

طوى الكشح عمرو للصديق على حقد وغنى له من شدة الكرب والوجد
ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجدًا على وجد
أما في صروف الدهر أن ترجع النوى بلى وبذاك القرب يومًا من البعد

وسمعت أبا دلف الخزرجي يقول: أنا أستجفي الشاعر الذي يقول:

والله لا كنت في حسابي إلا إذا كنت في حسابك
فإن تزرني أزرك أو إن تقف ببابي أقف ببابك

وكان يقول: ما هذه الغلظة والفظاظة، وما هذه المكايسة والمصادقة، أفليس لو قابلك صاحبك بمثل هذا الأمر وقف الأمر بينكما، وانتكث حبل المودة عنكما، ودبت الشحناء في طي حالكما.

وكتب أبو النفيس إلى صاحب له كان يغشاه كثيرًا، ويباثه طويلا:

فصل

ليس ينبغي - أبقاك الله - أن تغضب على صديقك، إذا نصح لك في جليلك ودقيقك، بل الأقمن بك، والأخلق لك أن تتقبل ما يقوله، وتبدي البشاشة في وجهه، وتشكره عليه حتى يزيدك في كل حال ما يجملك، ويكبت عدوك، والصديق اليوم قليل، والنصح أقل، ولن يرتبط الصديق إذا وجد بمثل الثقة به، والأخذ بهديه، والمصير إلى رأيه، والكون معه في سرائه وضرائه، فمتى ظفرت بهذا الموصوف فاعلم بأن جدك قد سعد، ونجمك قد صعد، وعدوك قد بعد والسلام.

شاعر:

وكان الصديق يزور الصديق لشرب المدام وعزف القيان
فصار الصديق يزور الصديق لبث الهموم وشكوى الزمان

شاعر:

أتطلب صاحبًا لا عيب فيه وأي الناس ليس له عيوب

قال معاوية بن أبي سفيان: أكلت الطعام حتى لم أجد طعمه، وركبت الدواب حتى استرحت إلى المشي، ونكحت الحرائر والإماء حتى ما أبالي وضعت ذكري في فرج أو حائط، وما بقي من لذتي إلا جليس اطرح بيني وبينه الحشمة.

شاعر:

وواثق باعتقادي ليس ينصفني إذا تزيدت رفقًا زاد عدوانا
أضربي حسن خلقي عند عشرته وربما ضر حسن الخلق أحيانا

وأنشد العطافي فيما رواه لنا المرزباني عن أبي عمرو عنه:

عنف العتاب ملجة ... فتوق من عنف العتاب
واستبق خلة من يلو ... م فذاك أدنى للإياب
واصفح عن الأمر الذي ... إعلانه هتك الحجاب

آخر:

كفى حزنًا ألا صديق ولا أخ ... أفاد غنى إلا تداخله كبر
وإلا التوى أو ظن أنك دونه ... وتلك التي جلت فما عندها صبر
فلا زاد فوق القوت مثقال ذرة ... صديق ولا أوفى على عسره يسر
وما ذاك إلا رغبة في إخائه ... وإلا حذار أن يميل به الغدر
ومن صحب الأيام عاتب صاحبًا ... وحالف عذالا وأدبه الدهر

امرؤ القيس:

وخليل قد أفارقه ... ثم لا أبكي على أثره

شاعر:

لا مرحبًا بوصال ذي ملق ... تكدي مودته ولا تجدي
وإذا الصديق ذممت خلته ... صيرت قطع حباله وكدي
حتى أرى خلا يعاشرني ... بمودة أطرى من الورد

آخر:

وصلتك لما كان ودك خالصًا ... وأعرضت لما صار نهبًا مقسمًا
ولن يلبث الحوض الوثيق بناؤه ... على كثرة الوراد أن يتهدما

شاعر:

ليهنئــك بغــض في الــصديق وظنــة تحــدثك الــشيء الــذي أنــت كاذبــه

وكتب عبد الله بن المعتز إلى صديق له: قد أعدت ذكر تصحيح المودة وإخلاص الموالاة بعد أن أكدهما الله لك مني، ومنك عني، وحللت أعلى المراتب من قلبي، وحزت أجزل الحظوظ من ودي، وخاطبك بذلك ضميري، وظهر شاهده من فعلي، فلا تزرين على ما بيننا بالاستزادة بما لا مزيد فيه، والتذكير بما لا ينسى، والتجديد لما لا يخلق، والوصف لما قد عرف، حتى كأن الإخاء معتل، وعقد الوصل منحل، والثقة لم تقع، والهجر متوقع، وسوء الظن يفري ويدع.

لآخر: أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما.

وكتب آخر: أنا والله الولي المخلص، والواد المصحح، ومن إذا شد عقدة أوثقها، وإذا عقد مودة صدقها، والمماذق أخو المنافق، والشاهد هدف للغائب، والرجل يعرف موقع رأيه إذا مال ووالى، وإذا انحرف وعادى، وإذا اجتنب واجتبى، وحركات الإنسان ملحوظة، وأعماله محفوظة، وتصرفه بين ولي مشفق، وعدو مطرق، وكل يرصده وينقده، وللسانه فلتات، ولقلبه هفوات.

وقال بعض البلغاء: ليس تكمل محاسن الصفح إلا بالإضراب عن مذلة التوبيخ، فإن التأنيب أوجع وقعًا في وجه الكريم، من وقع الضرب في بدن اللئيم.

وقال أعرابي: الموبخ بعد العفو أولى بالتوبيخ، لأنه أفسد النعمة بالتذكير، وقبح الصفح بالتعبير.

وقال سهل بن هارون: العفو الذي يقوم مقام العتق ما سلم من تعداد السقطات، وخلص من تذكار الزلات.

وقال رجل للفضل بن سهل ذي الرئاستين: أنت أحق من تغمد هذه الفرطة، واغتفر هذه السقطة.

وقال أعربي: الودود من عذر أخاه، وآثره على هواه.

وكتب النصير إلى صديق له: سقيًا لدهر لما خلي بنا، خلا منا، ولما تصدى لنا، تولى عنا، تلك أحق الأيام بالذكرى.

وقال الأحوص المدني: اجعل أنسك آخر ما تبذل من ودك ومن الاسترسال، حتى تجد له مستحقًا.

وقال أعرابي: إذا جاد لك أخوك بأكثره، فتجاف له عن أيسره.

وقال آخر: الحر يؤثر كرم الاستبقاء، على لؤم الاستقصاء.

وكتب الجراحي إلى صديق له: حرسني الله من الشك في إخلاصك، وأعاذني من سوء التوكل عليك، وأجارني مما يوحش منك، ويباعد عنك.

وقال النصير لصاحب له: أرجو أن يكون فيما لنا عندك، دليل على ما عندنا لك، وإن كنت بالفضل أولى، وبالمكرمة أحرى.

وأخبرنا علي بن عيسى قال: أنبأنا ابن دريد قال: أنشدنا عبد الرحمن عن عمه الأصمعي قال: وأظنها لابن قيس الرقيات:

لا يعجبنك صاحب حتى تبين ما طباعه
ماذا يضن به عليك وما يجود به اتساعه
أو ما الذي يقوى عليه وما يضيق به ذراعه
وإذا الزمان رمى صفاتك بالحوادث ما دفاعه
فهناك تعرف ما ارتفاع ه ـوى أخيك وما اتضاعه

آخر:

فمن يك لا يدوم له وصال وفيه حين يغترب انقلاب
فعهدي دائم لهم وودي على حال إذا شهدوا وغابوا

وأنشد الأصمعي ولم يسم قائله:

تبدي لك العين ما في نفس صاحبها من الشناءة أو ود إذا كانا
إن البغيض له عين يصد بها لا يستطيع لما في الصدر كتمانا
وعين ذي الود ما تنفك مقبلة ترى لها محجرًا بشًّا وإنسانا
والعين تنطق والأفواه صامتة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

قال أبو هاشم الحراني: ومن طباع الكريم وسجاياه رعاية اللقاءة الواحدة، وشكر الكلمة الحسنة الطيبة، والمكافأة بجزيل الفائدة، وأن لا يوجد عند عرض الحاجة مستعملا سوم عالة.

وأنشدنا ابن كعب لعبد الله بن معاوية:

العهد عهدان فعهد امرئ يأنف أن يعذر أو ينقضا

وعهـــــد ذي لـــــونين ملالـــــة يوشـــــك إن ودك أن يبغـــــضا
إن لم تـــزره قـــال قـــد ملنـــي وبـــالحري إن زرت أن يعرضـــا
شـــيمته مثـــل الخـــضاب الـــذي بينـــا تـــراه قانيًـــا إذا نـــضا

قال العباس بن الحسن العلوي لما مات الزبيري: رحم الله أبا بكر فقدته فما تمسكت بعده من أخ بعروة إلا تجذمت في يدي.

وعزى يزيد بن جرير آخر فقال: إني لم آتك شاكًّا في عزمك، ولا زائدًا في علمك، ولكنه حق الصديق على الصديق، فإن استطعت أن تسبق السلوة بالصبر فافعل.

وكتب عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي إلى صديق له: أما بعد فمثل إعظامي إياك دعا إلى الانقباض عنك، ومثل ثقتي بك دعا إلى الانبساط إليك، فلما تكافأ هذان في نفسي كان أملكهما بي، وأولاهما بالأثرة عندي أقربهما إلى موافقتك، وأوقعهما بمحبتك. فعلمت أن أسر إخوانك لك أفزعهم عند الملمات إليك، وأوثقهم عند حوادث الأمور بك، ثم شفع ذلك عندي ما يدعو إليه المرء نفسه، وتنازعه نحوه من الطلب وتثقل عليه المئونة فيدمن الإمساك.

وكتب غسان بن عبد الحميد المدني إلى جعفر بن سليمان الهاشمي يعاتبه: بلغني أن غاشًّا ظالمًا أتاك بأمر لم أكن له أهلا، ولم تكن بقبوله خليقًا، لأنني لم أكن بأشباهه معروفًا، ولم تكن على استماع مثله مخوفًا، فوجد له فيك مساغًا، وعندك مستقرًا، وكنت أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حصن حصين، ومحل مكين، لا تناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويل المفترين، وذلك أن الكاذب كان بالتهمة علي في منزلي وحرمتي أحق مني بالتهمة على

رأيي وخلقي، وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي أحق منه بالتصديق في عضيه إياي، فإن الأخ المخبور أولى بالثقة من الساعي بالكذب والزور، وإذا كان تحافظ الإخوان إنما هو معلق بأيدي السفهاء إذا شاءوا سعوا، فقيل قولهم، فكيف تبقى على ذلك أخوة، أو ترعى معه حرمة، أو يصلح عليه قلب، أو يسلم معه صبر؟.

سهل بن هارون:

وما العيش إلا أن تجود بنائل وإلا لقاء الأخ بالخلق العالي

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى الحسن بن وهب:

لعمرك ما عيشة رغدة لدي إذا غبت بالراضيه
وإني إلى وجهك المستنير في ظلمة الليلة الداجيه
لأشوق من مدنف خائف لقاء الحمام إلى العافيه

قيل لأبي زياد الكلابي: إنك فيما نراك تداجي إخوانك كثيرًا، وهذا خلق أنت عالق به قال: لأن أداجيهم مستديمًا لما بيني وبينهم أحب إلي من أن أدع المداجاة التي أملكها ولا أملك المصافاة التي قد فقدتها.

وسمعت ابن كعب الأنصاري ينشد كثيرًا:

يا أخًا كان يرهب الدهر من ذكري له عند نائبات الحقوق كنت تحتل حبة القلب من قلبي، وتجري مجرى دمي في عروقي كنت مني مكان بعضي من بعضي فأصبحت في مدى العيوق ما قذى عينك التي كنت ترعاني بها مرة وأنت صديقي أم بدت حاجة إليك أحلتني محل البعيد منك السحيق صرت تشري إذا التحفت بثوبي وتوحي إذا سلكت طريقي، سمعت علي بن القاسم الكاتب

يقول: قلت لأبي الفضل، يعني ابن العميد: ما ينقضي عجبي من إقدامك على الحاجب النيسابوري بعد التصافي الذي كنتما عليه، والملح الذي تجتمعان له، والرضاع الذي تتراوحان فيه، ووالله ما يفصل الناظر بينكما الظالم من المظلوم منكما، وإن إشكال الحال فيكما يدعو إلى سوء الظن بكما، وتوجيه اللائمة الشنيعة إليكما. فقال: يا أبا الحسن والله لقد كدت أن أكونه لولا أن الله بسط يدي عليه، وأظفرني به، إنه لما استحال الحال بيني وبينه أظلم الجو في عيني، وعزب عني رأيي، ووجلت من صولته وجولته، وكان كما علمت خطيب اللسان، بعيد الغور، خفيف الفور، يمري من ثبج بحر، ويتلقى جميع أموره بصدر ونحر، فما هنأني عيش، ولا طاب لي شرب، ولا فارقني وسواس حتى كان منه ما كان، فقلت له: كيف استحالت الحال بعد توكدها وتعهدها؟ قال: طلب من الحظوة عند ركن الدولة ما كنت أنا قد أفنيت شبابي، وعمري، وذخري له، فلم تسمح نفسي أن أفرج له عنه، ومنازل الأولياء عند الملوك محوطة بالغيرة الشديدة، والحمية المشتعلة، وليست الغيرة عليها إلا فوق الغيرة على السراري الحظيات، وبنات العم الموافقات، وفوق غيرة الضرة من الضرة، وإن الذي يعتري الرجال في هذه الأحوال أزيد من الذي يعتري النساء، إلا أن الرجال لا يتواصون بترك هذا الخلق، ولا يغير بعضهم بعضًا باستعماله، فقلت له: أفكان يرتقي لو بقي إلى أكثر من الحجابة التي أنت مسلم لها إليه، وغير منازع له في شيء منها؟ فقال: ما أسلم صدرك، وأصدأ نصلك، الرجل كان يحدث نفسه بالوزارة، ويوسوس إلى صاحبه بإثارة المال من الوجوه المجهولة، أفكان يجوز لي أن أحلم بهذا في النوم، ثم أتمتع بالعيش باليقظة؟ لا والله! وبعد فأنا كما قال الشاعر:

ولست مكلفًا أبدا صديقًا معاشرتي على خلق ممض

ولا أن يستقيم على اعوجاجي ... ويغفر بعض أحوالي لبعض
ولكني له عبد مطيع ... على علاته أرضى وأغضي
حرير حين يلمسني صديقي ... حديد تحت ضرس رام عضي
فإن باشرتني فإليك أمري ... وإن باغضتني فإليك بغضي

وكما قال الآخر:

ألم تعلمي يا عصم كيف حفيظتي ... إذا السر خاضت جانبيه المجارح
أفر حذار الشر والشر تاركي ... وأطعن في أنيابه وهو كالح

قلت لعلي بن القاسم: كيف كان يستجيز قتل النفوس وهو يتفلسف؟ قال: يا هذا الدين الذي نشره على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- ينافق به، ويكذب فيه، والفلسفة التي وضعت على ألسنة قوم مجهولين لا يجوز أن ينافق بها، ويكذب فيها، إنما كان يتشيع بما يقوله ويدعيه، ويجب أن تكون مباينًا لهذا السواد الذي هو فيه، وحب الجاه، وحب الرئاسة، وحب المال مهالك الخلق أجمعين، نسأل الله تعالى أن يكره إلينا الدنيا، ويرغبنا في التقوى، ويختم لنا ولك بالحسنى بمنه وقدرته.

شاعر:

عدو صديقي داخل في عداوتي ... وإني لمن ود الصديق صديق

أخبرنا أبو السائب القاضي قال: حدثني أحمد بن أبي طاهر قال: سمعت علي بن عبيدة يقول لصديق له: قسم الله لنا من صفحك ما يتسع لتقصيرنا، ومن حلمك ما يردع سخطك عنا، ويعيد ما كان منك لنا، وزين ألفتنا بمعاودة

وصلك، واجتماعنا بزيارتك، وأيامنا الموحشة لغيبتك برؤيتك، وسر بقربك القلوب، وبحديثك الأسماع.

شاعر:

فلا تله عن كسب ود الصديق ولا تجعلن صديقًا عدوًا
ولا تغترر بهدو امرئ إذا هيج فارق ذاك الهدوا

آخر:

فبعدك يا شغب اجتويت صحابتي ولاحظني الأعداء بالنظر الشزر
وأبدى لي الشحناء من كان مخفيًا عداوته لما تغيب في القبر

آخر:

ولئن كنت لا تصاحب إلا صاحبًا لا يزل ما عاش نعله
لا تجده ولو جهدت وإني بالذي لا يكون يوجد مثله
إنما صاحبي الذي يغفر الـ ذنب ويكفيه من أخيه أقله

وأخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا أبو العيناء قال: رأيت علي بن عبيدة يعاتب رجلا ، ثم قال في كلامه: العجب أني أعاتبك وأنت من أهل القطيعة! وحدثنا أبو عبد الله النمري قال: لما وزر أبو محمد المهلبي سنة أربعين بعد وفاة أبي جعفر الصيمري كتب إلى أبي الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل:

فصل

إني - حفظك الله - وحفظني لك، وأمتعك بي وأمتعني بك، قد بلوتك طول أيام أبي جعفر - قدس الله روحه - فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك، حسن الكفاية فيما يوكل إليك، كتومًا للسر إذا استحفظته، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه، وقد حداني هذا كله على اجتبائك، وتقريبك، وإدنائك، وتقديمك، وغالب ظني أنك تعينني على ذلك بميمون نقيبتك، ومأمون ضريبتك، وجعلت دعامة هذا كله أني أجريك مجرى الصديق الذي يفاوض في الخير والشر، ويشارك في الغث والسمين، ويستنام إليه في الشهادة والغيب، ولي معك عينان، إحداهما مغضوضة عن كل ما ساءني منك، والأخرى مرفوعة إلى كل ما سرني فيك، فإن كنت تجد في نفسك على قولي هذا شاهدًا صدوقًا، وإمارة نطوقًا، فعرفني لأعلم أن فراستي لم تفل، وحدسي عن طريق الصواب لم يمل، والحال التي قد جددها الله لي هي محروسة لك، ومفرغة عليك، ومستقلة بك، فأشركني فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء، فلك الأمنة من حيلولة الاعتقاد، والسكون إلى عفو الاجتهاد، وثق بأن الذي خطبته منك إنما أريده لك، فلا تقعن في وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقًا لنقص، أو لمحب لنا فيه بابًا إلى الزيادة، واكتف بهذا القدر الذي دللتك عليه، واستقبل أمري وأمرك بالذي أرشدتك إليه، وإياك أن تستشير فيه غير نفسك، فإنك بعرض حسد يكون عقالا لحظك، والله يهديك للحسنى، ويقيني فيك غوائل العيون المرضى والسلام.

قلت للنمري: فبماذا أجابه؟ قال: من له بجواب في هذا السبك على هذه الحلاوة؟ إلا أنه استعان بأبي عبد الله فكتب له:

فصل

الوزير - أطال الله بقاءه - قد خاطبني بما إن لو غلطت في نفسي، وادعيت ما لا يليق بي، لكان في ذلك عذري، ولست من أصحاب البراعة، فأسهب خاطبًا، أو أخطب مطنبًا، وأنا - وإن فاتني هذا بفوت الصناعة - فلن يفوتني إن شاء الله ما يستحق علي من القيام بالخدمة وبذل الطاعة، حتى يكون جوابي صادرًا على مذهب الخدم، كما كان ابتداؤه صادرًا على مذهب أرباب النعم، وها أنا قد وكلت ناظري بلحظه، ووقفت سمعي على لفظه، انتظارًا لأمره ونهيه اللذين إذا امتثلت أحدهما وملت عن الآخر ملكت المنى، وأحرزت الغنى، وكانت شمسي به دائرة وسط السماء، وعيشي جاريًا على النعماء والسراء، فلا يبقى لي غم إلا تفرى، ولا وغم إلا تسرى، ولا إرادة إلا مبلوغة، ولا بغية إلا مدركة، وقد رفلت. ومن نعمة الوزير - أدام الله أيامه - في عطاف من المسرة، الله أسأل إسباله علي مدى الدهر، بنفاذ أمره، وجواز خاتمه، وجريان قلمه، وشعاع شمسه، وسلامة نفسه، ودوام أنسه، وهو يجيب الداعي إذا أخلص في دعائه، ويعطي السائل سؤله إذا صفى ضميره في سؤاله، ولرأي الوزير العلو في قبول ما جاد به عنده من طاعته، وقابل به دعوته من إجابته، إن شاء الله.

وقال آخر:

أبا يعقوب صرت قذى لعيني ... وسترًا بين طرفي والمنام

وكنت على الحوادث لي معينًا ... فصرت مع الحوادث في نظام

وكنت على المصائب لي سلوًا ... فصرت من المصيبات العظام

وقال عبدة بن الطبيب:

إن الـــذين تـــرونهم خلانكـــم يـشفي صـداع رءوسـهم أن تـصرعوا
فـضلت عـداوتهم عـلى أحلامهـم وأبـت ضـباب صـدورهم لا تنـزع

وقال أبو إسحاق السبيعي: ثلاث يصفين لك ود أخيك: السلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب أسمائه، وأن لا تماريه.

سمعت العوامي يقول لعلي بن عيسى الوزير: إن الحال بينك وبين ابن مجاهد صفيقة فما الذي قربه منك، ونفقه عليك، وأولعك به؟ قال: وجدته متواضعًا في علمه، هشًّا في نسكه، كتومًا لسره، حافظًا لمروءته، شفيقًا على خليطه، حسن الحديث في حينه، محمود الصمت في وقته، بعيد القرين في عصره، والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلا واحدة لكان محبوبًا ومقبولا.

شاعر:

إذا أنـــا عاتبـــت الملـــول فـــإنما أخطـط في جـار مـن المـاء أحرفـا
فهبـه ارعـوى بعـد العتـاب ألـم تكـن مودتـــه طبعًـــا فـــصارت تكلفـــا

آخر:

يعـــاتبكم يـــا أم عمـــرو بحـــبكم ألا إنـــما المقـــلي مـــن لا يعاتـــب

آخر:

إذا مـــا تقـــضى الـــود إلا تكـــاشرًا فهجـــر جميـــل للفـــريقين صـــالح
تلونـــت ألوانًـــا عـــلي كثـــيرة ومـــازج عـــذبًا مـــن إخائـــك مـــالح

ولي عنك مستغنى وفي الأرض مذهب ... فسيح ورزق الله غاد ورائح
لتعلم أني إذ أردت قطيعتي ... وسامحت بالهجران إني مسامح

آخر:

إذا ما المرء لم يحببك إلا ... مغالب نفسه سئم الغلابا
ومن لا يعط إلا في عتاب ... يخاف يدع به الناس العتابا
أخوك أخوك من تدنو وترجو ... مودته وإن دعي استجابا
إذا حاربت حارب من تعادي ... وزاد سلاحه منك اقترابا
يواسي في الكريهة كل يوم ... إذا ما معضل الحدثان نابا

وقال رجل لصاحب له: إنما اشتد غضبي، لأن من كان علمه أكثر، كان ذنبه أكبر، قال: فهلا جعلت سعة علمي سبيلا إلى حسن الظن بنزوعي، أو إلى أني غالط في تفريطي، مخطئ بقصدي، غير معاند لك، ولا جريء عليك.

ورأيت الزهيري وقد كتب إلى ابن الأزرق كتابًا كتب في آخر هذه الأبيات:

اذهب فلا حاجة لي فيكا ... غطت على عيني مساويكا
وارغبتا فيك بدت سوءتي ... واسوءتا من رغبتي فيكا
قد كنت أرجوك أخًا لي فلا ... أفلح من أمسى يرجيكا

وقال بعضهم: تركتني معرفة الناس فردًا.

وأنشد آخر:

تركتني صحبة الناس ومالي من رفيق ... لم أجد إشفاق ندماني كإشفاق الصديق

قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق، وما يتصل بالوفاق، والخلاف، والهجر، والصلة، والعتب، والرضا، والمذق، والرياء، والتحقق، والنفاق، والحيلة، والخداع، والاستقامة، والالتواء، والاستمانة، والاحتجاج، والاعتذار، ولو أمكن لكان تأليف ذلك كلؤه أتم مما هو عليه، وأجرى إلى الغاية في ضم الشيء إلى شكله، وصبه على قالبه، فكان رونقه أبين، ورفيقه أحسن، ولكن العذر قد تقدم، ولو أردنا أيضًا أن نجمع ما قاله كل ناظم في شعره، وكل ناثر من لفظه لكان ذلك عسيرًا، بل متعذرًا، فإن أنفاس الناس في هذا الباب طويلة، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة، لأنه لا يخلو أحد من جار، أو معامل، أو حميم، أو صاحب، أو رفيق، أو سكن، أو حبيب، أو صديق، أو أليف، أو قريب، أو بعيد، أو ولي، أو خليط، كما لا يخلو أيضًا من عدو، أو كاشح، أو مداج، أو مكاشف، أو حاسد، أو شامت، أو منافق، أو مؤذ، أو منابذ، أو معاند، أو مزل، أو مضل، أو مغل، وقد قال الأوائل: الإنسان مدني بالطبع، وبيان هذا أنه لابد له من الإعانة، والاستعانة، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه، وهذا ظاهر، وإذا كان مدنيًّا بالطبع كما قيل، فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ، والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، ما يكون سببًا لانتشار الأمر، ولا محالة أن هذه وأشباهها مفضية إلى جملة ما نعته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم، وكتبنا جورهم وإنصافهم، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه، وعيون ما ذكروه ونشروه، ونروي في هذا الموضع بقية أبيات وإن عن شيء حكيناه، ونغلق الرسالة فإنها إذا طال بغضت، وإذا بغضت هجرت، وربما نيل من عرض صاحبها، وأنحي باللائمة عليه من أجلها، وهو لم يقصد إلا الخير، ولا أراد إلا الرشاد، وقد يؤتى الإنسان من حيث لا يعلم، ويرمي من حيث لا

يتقي، كما يأتي من حيث لا يحتسب، وينجو وقد أشفى، ويدرك وقد غلب اليأس. قال العطوي:

لا تبك إثر مول عنك منحرف ... تحت السماء وفوق الأرض أبدال
الناس أكثر من أن لا ترى خلقًا ... ممن زوى وجهه عن وجهك المال
ما أقبح الوصل يدنيه ويبعده ... بين الصديقين إكثار وإقلال

الصنوبري:

يا ناصحًا ما زال يتبع نصحه ... غشًا إذا نصح الصديق صديقه
فله العزاء بروم لست أرومه ... قلت السلو يطاق لست أطيقه

آخر:

رميت هواي من مرمى قريب ... وكنت أخي فصرت أخا الخطوب
قدرت من الجسوم على تناء ... ولكن لا تنائي للقلوب
فمن تطلب الإنصاف يومًا ... إذا جار الأديب على الأديب

آخر:

كم من صديق صادق الظاهر ... متفق الأول والآخر
أطمعني في مثله مطمع ... من خاطري لا كان من خاطر
حتى إذا ما قلت فازت يدي ... بمثله فوز يد القامر
وجدت في كفي منه كما ... قد ملئت منه يد الزامر

آخر:

أخو ثقة يسر بحسن حالي ... وإن لم يدنه مني قرابه
يسر بما أسر به ويشجى ... إذا ما أزمة نزلت رحابه

أحـــب إلي مـــن ألفـــي قريـــب ... بنـــات صـــدورهم لي مـــستر ابه

آخر:

ولا تـــصل حبـــل غـــادر ملـــق ... فالغـــدر مـــن شر شـــيمة الرجـــل
لا خـــير في غـــادر مودتـــه ... كالـــصاب والقـــول عنـــه كالعـــسل

آخر:

مـــا لي جفيـــت وكنـــت لا أجفـــى ... ودلائـــل الهجـــران لا تخفـــى
مـــا لي أراك نـــسيتني بطـــرًا ... ولقـــد عهـــدتك تـــذكر الإلفـــا

آخر:

أخلقـــت عنـــده الملالـــة وجهـــي ... كيـــف لي عنـــده بوجـــه جديـــد؟

آخر:

أتعجـــــب إن جفـــــاك أخ ... لغـــــيرك عنـــــك منتقـــــل
فـــــلا تعجـــــب لجفوتـــــه ... ثقلـــــت فملـــــك الرجـــــل

آخر:

عهـــدي بطرفـــك لا يـــزال ملاحظـــي ... يرنـــو إلي رنـــو طـــرف الحـــافظ
فـــاليوم تنبـــو عـــن جنـــاني نبـــوة ... وأراك مـــن بعـــد الإســـاغة لافظـــي

آخر:

تـــوق مـــن الإخـــوان كـــل ممـــازح ... يـــزول مـــع الأفنـــاء حيـــث تـــزول
فـــلا تـــصحبن مـــستطرفًا ذا ملالـــة ... فلـــيس عـــلى عهـــد يـــدوم ملـــول

obeikan.com

آخر:

وحقك ما تركي عتابك من قلى ... ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم أصبر اليوم طائعًا ... فلابد منه مكرهًا غير طائع
إذا أنت لم تعطفك إلا شفاعة ... فلا خير في ود يكون بشافع

إبراهيم بن العباس الكاتب:

أخ بيني وبين الدهر صاحب أينما غلبا
صديقي ما استقام فإن نبا دهر علي نبا
وثبت على الزمان به فعاد به وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخًا حدبا

آخر:

كنت عبدًا لك مأمونًا على دنيا ودين
بعتني سمحًا بقول جاء من غير يمين
ليت شعري عنك لم حكمت ظنًّا بيقين
سترى ما تكشف الخبرة من غيب الظنون

آخر:

خليل نأى عني الزمان بوده ... فأعرض واستولى على أمره الغدر
فألبسته الثوب الذي اختار لبسه ... وأحسن من ود يضيق به الصدر
وأفضل من أمر يريبك تركه ... وأجمل من مال يرم به الفقر
فإن عاش فالأيام بيني وبينه ... وإن مات لم أجزع لمن ضمه قبر
إذا ما امرؤ جارت عليك ظنونه ... وسامك ما فيه المذلة والصغر

فكلـــه إلى حكـــم الحـــوادث إنـــه كفـــى منـــصفًا ممـــن تظلمـــك الـــدهر

آخر:

عـاشر أخـاك عـلى مـا كـان مـن خلـق واحفـظ مودتـه بالغيـب مـا وصـلا
فـأطول النـاس غـمًّا مـن يريـد أخًـا ذا خلـــة لا يـــرى في وده خلـــلا

آخر:

أجفـــوتني في مـــن جفـــاني وجعلـــت شـــانك غـــير شـــاني
ونـــسيت منـــي موضـــعًا لـــك لم يكـــن لـــك فيـــه ثـــاني
وسررت يومًـــا واحـــدًا أن لا أراك ولا تـــــراني
وهجرتنـــي وقطعتنـــي وقليتنـــي في مـــن قـــلاني
أفعلتهـــا فالمـــستعـــان الله أفـــضل مـــستعان

آخر:

تملقتـــه جهـــدي فلـــما رأيتـــه إذا لان منـــي جانـــب عـــز جانبـــه
جريـت لـه في الـصدر منـي مـودة وخليـت عنـه مهمـلا لا أعاتبـه
أطـين عـين الـشمس كـيلا يقـال لي طبائعـــه مذمومـــة ومذاهبـــه
وأطريـه بـالقول الجميـل وعنـده مـن التيـه مطريـه سـواء وعائبـه

آخر:

غلـــط الفتـــى في قولـــه مـــن لا يـــردك فـــلا تـــرده
مـــن نـــاقش الإخـــوان لم يبـــد العتـــاب ولم يعـــده
عاتـــب أخـــاك إذا هفـــا واعطـــف بفـــضلك واســـتعده

وإذا أتـــــاك بعيبـــــه واش فقـــــل لم يعتمـــــده
فلقلـــما طلـــب الفتـــى عيبًـــا لخـــل لم يجـــده

جرير:

وإني لمغـــرور أعلـــل بـــالمنى ليـــالي أرجـــو أن مالـــك ماليـــا
بـــأي ســـنان تطعـــن القـــوم بعـــدما نزعـــت ســـنانًا مـــن قناتـــك ماضـــيا

وقال آخر:

تبـــدلت بعـــدي والملـــول إذا نـــأت بـــه الـــدار عـــن أحبابـــه يتبـــدل
فبـــان القـــلى لي منـــك واتـــضح الخفـــا ولاح لنـــا منـــه الـــذي كـــان يـــشكل
أحـــين أنـــارت للمـــودة بيننـــا ريـــاض بـــدا نوارهـــا يتهلـــل
ودامـــت ســـماء اللهـــو تنهـــل ســـحة علينـــا بـــأنواع الوفـــاء وتهطـــل
تنكبـــت قـــوس اللهـــو ثـــم رميتنـــي وخليتنـــي أبكـــي الوصـــال وأعـــول
ســـأحفظ مـــا ضـــيعته مـــن إخائنـــا لـــتعلم أني عنـــه لا أتبـــدل

ابن أبي فنن:

إذا كنـــت تغـــضب مـــن غـــير ذنـــب وتعتـــب مـــن غـــير جـــرم عليـــا
طلبـــت رضـــاك فـــإن عـــزلي عـــددتك ميتًـــا وإن كنـــت حيـــا
قنعـــت وإن كنـــت ذا حاجـــة فأصـــبحت مـــن أكثـــر النـــاس شـــيا
فـــلا تعجـــبن بـــما في يـــديك فـــأكثر منـــه الـــذي في يـــديا

وقال آخر:

وأخ كـــــان لي ودودًا محبًـــــا ناصـــحًا ومقًـــا ورفيقًـــا وشـــفيقا

كان أحلى من الجنى بصيب ... المزن يرضيك صامتًا ونطوقا
لم لما أصابني الدهر بالجفوة ... منه صار البعيد السحيقا
يا صديقي ما كنت لي بصديق ... إنما كنت للزمان صديقا
صرت تشرى إذا التحفت بثوبي ... وتشكي إذا سلكنا طريقا

آخر:

وأخ كان لي فأصبحت منه ... كأشل اليدين أو كالأجب
ضاق ذرعًا بزلة لي كانت ... فانتحى لانتهاك سري وثلبي
أفما كان في المودة والحر ... مة حق يريه غفران ذنبي؟

وقال آخر:

وكل ملمات الزمان وجدتها ... سوى فرقة الأحباب هينة الخطب
لئن كنت أمسيت العشية سيدًا ... شديد شحوب اللون مختلف العضب
فما لك من مولاك إلا حفاظه ... وما المرء إلا باللسان وبالقلب
هما الأصغران الذائدان عن الفتى ... مكارهه والصاحبان على الخطب
فإلا أكن كل الكريم فإنني ... أكف عن الجاني وأصبر في الجدب

ماني الموسوس:

رأيتك لا تختار إلا تباعدي ... فباعدت نفسي لاتباع هواكا
فبعدك يؤذيني وقربي لكم أذى ... فكيف احتيالي يا جعلت فداكا؟

آخر:

رأيتك تجفوني فأحدثت عزلة ... لتخفي الذي يأتي إلي فتعذرا

آخر:

أطـــل حبـــل الـــشناءة لي وبغـــضي وعـــش مـــا شـــئت فـــانظر مـــن تـــضير
فـــــما بيـــــديك خـــــيرًا أرتجيـــــه وغـــير صـــدودك الخطـــب الكبـــير
إذا أبـــــصرتني أعرضـــــت عنـــــي كـــأن الـــشمس مـــن قـــلي تـــدور

آخر:

ومـــولى كـــأن الـــشمس بينـــي وبينـــه إذا مـــا التقينـــا لـــيس ممـــن أعاتبـــه

قـال ابـن المرزبـان الكاتـب: سـمعت الخليفـة المطيـع يقـول: صـديقك صـديقك، وصـديق صـديقك صـديقك، وعـدوك عـدوك، وصـديق عـدوك عدوك، وعدو صديقك عدوك، وعدو عدوك صديقك.

وقال آخر:

وذوي ضـــباب مظهـــرين عـــداوة قرحـــى القلـــوب معـــاودي الأكبـــاد
ناســـيتهم بغـــضاءهم وتـــركتهم وهـــم إذا ذكـــر الـــصديق أعـــادي

وسـمعت ابـن بابويـه القمـي العـالم يقـول: قـال جعفـر بـن محمـد: مناغـاة الصديق أعبث بالروح، وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق إلى الصديق، ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق.

وحدثني ابن السراج قال: كتبت إلى ابن الحارث الرازي: كتبت إليك عن محـل قـد ابـتهج بـودك، وانـزعج لـصدك، يناديـك، ألا إن القلـب قـد تـألم بمفارقتك، فمتى يلم شعث الأنس بمشاهدتك، فأجبته: كلا وإن امتزج فرح الاتصال، بترح الانفصال، فما ضر مباعدة الأشباح مع مساعدة الأرواح، قال: فأجابني: أما صدر كتابك فغني عن دلالتك عليه، لإحساسي بشاهده عندي،

وكيف أعدم الشاهد عليه وأنا الأول فيه، والجالب له، وأما عجزه فشديد الأخذ بطرف من القسوة، لسلوك بأحد الأمرين عن الآخر، ولو علمت أن تمام الأفراح، بمساعدة الأرواح، ومشاهدة الأشباح، لم تقل ما قلت، ولم يبلغ - أكرمك الله - في اللطافة أن يكون من غير هذا النوع الذي نحن منهن، لكني أقول: كتبت إليك من محل موحش لبعدك، بلفظ مضطرب أنس بذكرك مستوحشًا، واستوحش إلى رؤيتك مستأنسًا، ولو كنت قريبًا مني لكان هذا كله مطرحًا، والأمل مدركًا مقترحًا، والعائق مرفوعًا، والطرف متنزهًا، والزمان نضرًا، والدهر محمودًا، والسلام.

شاعر:

وحسبك حسرة لك من صديق يكون زمامه بيدي عدو

أخبرنا ابن مقسم قال: سمعت أحمد بن يحيى يقول: كتب رجل إلى الزبير بن بكار يستجفيه فأجابه:

ما غير الدهر ودًّا كنت تعرفه ولا تبدلت بعد الذكر نسيانا
ولا حمدت وفاء من أخي ثقة إلا جعلتك فوق الحمد عنوانا

وكتب سعيد بن جبير إلى أخ له: أما بعد، يا أخي، فاحذر الناس، واكفهم نفسك، ويسعك بيتك.

قال رجل لمحمد بن واسع: إني لأحبك في الله، قال: فأطع من تحبني فيه.

قال أبو خازم المدني لسلمة بن دينار: لأن يبغضك عدوك المسلم خير من أن يحبك عدوك الفاجر.

سمعت ابن الجلاء يقول بمكة: يقال: من لا إخوان له فلا عيش له، ومن لا ولد له فلا ذكر له، ومن لا مال له فلا مروءة له، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة.

قال أبو عثمان النصيبِي: من لا إخوان له فلا تعب له، ومن لا ولد له فلا حجاب عليه، ومن لا مال له فلا حساب عليه، ومن لا عقل له فهو في الجنة.

شاعر:

هبني أسأت كما زعمت فأين عاقبة الأخوه وإذا أسأت كما أسأت فأين فضلك والمروه

وقال أعرابي: نصح الصديق تأديب، ونصح العدو تأنيب.

قال الفضل بن يحيى: الصبر على أخ يعتب عليه خير من أخ يستأنف مودته.

وسمعت ذا الكفايتين ابن العميد ببغداد يقول: إنشاء المعرفة صعب، فلما ندرنا من مجلسه قال أبو إسحاق الصابي: تربيتها أصعب من إنشائها. عرضت هذا الكلام على أبي سليمان فقال: أما الإنشاء فإنما صعب؛ لأنه لا أوائل له يناط بها، ويؤسس عليها، وأما التربية فإنما صعبت أيضًا لأنها تستعير من الإنسان زمانًا مديدًا هو يشح به، وعناء متصلا يشتد صبره عليه، ومالا مبذولا قلما تطيب النفس بإخراجه إلا إذا كان الكرم له طباعًا، ويجد من ضريبته إليه نزاعًا.

وقال ذو الشامة يرثي أخاه:

ذكرت أخي أخا الخير رضي الله عنه الذي لم يبق لي خلفا
ولا أرجوه إلا الله منه الدهر مؤتنفا

أخًـــا مـــا كـــان لي كـــأخ ... وبي بـــــرأ وبي لطفـــــا
كفـــى مـــن كنـــت كافيـــه ... وســـد مـــسد مـــن ســـلفا
وحـــق لعـــين مـــن أمـــسى ... بـــما أمـــسيت معترفـــا
مـــن الإيحـــاش والإيجـــا ... س والإفـــراد أن يكفـــا

وقال أبو بكر: خير إخوانك من آساك، وخير منه من كفاك، وخير مالك ما أغناك، وخير منه ما وقاك.

قال المأمون الخليفة: من لم يؤاس الإخوان في دولته خذلوه في شدته.

وقال:

لا أعرفنـك بعـد المـوت تنـدبني ... وفي حيـاتي مـا زودتنـي زادي

وقال آخر:

لـيس عنـدي وإن تغـضبت إلا ... طاعـة حـرة وقلـب سـليم
وانتظـار الرضـا فـإن رضـا ... الـسادات عـز وعتـبهم تقـويم

رجل من بلعنبر:

لقـد ألـبس المـولى عـلى غـش صـدره ... وأفقـأ بيـضات الـضغائن بـالهجر
يثـير التـداني بيننـا كـل دمنـة ... ويـشفي التنـائي بيننـا وخـز الـصدر

آخر:

ضـعفت عـن الإخـوان حتـى جفـوتهم ... عـلى غـير زهـد في الإخـاء ولا الـود
ولكـن أيـامي تحـرمن منيتـي ... فـما أبلـغ الحاجـات إلا عـلى جهـد

آخر:

من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كيسه ... فإذا غدرت به فأنت ثقيل

آخر:

أيام أن قلت قال في سرع ... وإن كرهنا بدا تأبيه
مساعد مونق أخو كرم ... فليس شبه له يدانيه

آخر:

قل للذين صحبناهم فلم نرهم ... إلا لمن صحبوا يرضون بالدون
سلامة الدين والدنيا فراقكم ... وقربكم آفة الدنيا مع الدين
أنا النذير لمغبون بصحبتكم ... محارف جاهل بالأمر مفتون
خاب الغبين الذي يبغي مودتكم ... وليس هاجركم عندي بمغبون

وأخبرنا ابن مقسم، قال: أنشدنا أحمد بن يحيى الشاعر:

وإني لتصفو للخليل مودتي ... وقد جعلت أشياء منه تريب
أخاف لجاجات العتاب بصاحبي ... وللجهل من قلب الحليم نصيب
فإن فاء لم أعدد عليه ذنوبه ... وهل بعد فيئات الرجال ذنوب

ابن عروس:

يا فتى كانت به دنه ... ياي تصفو وتطيب
وله كانت تضيق الـ ... ـأرض بي حين يغيب
ما الذي رابك والـ ... ـأيام ما زالت تريب
فيم إعراضك عني ... أيها الحر اللبيب

أمـــــــلالا فهـــــــو مـــــــا لـــــــيس يداويـــــــه طبيـــــــب
أم لظـــــــن فـــــــامتحن فـــــــ الظـــــــن يخطـــــــي ويـــــــصيب
أم لعتـــــــب فعتـــــــاب الـــــــ ـــــــحر يجـــــــدي ويثيـــــــب
أم لـــــــذنب فلـــــــك الله بـــــــأني ســـــــأتوب

شاعر: كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان آخر:

وإذا أرادك صـــــاحب بجنايـــــة جعـــل التجنـــي للجفـــاء ســـبيلا
فـــترى دواعـــي الهجـــر في حركاتـــه وكفـــى بـــذلك شـــاهدًا ودلـــيلا

وأخبرنا المزباني قال: حدثنا ابن أبي الأزهر قال: أنبأنا بندار قال: أنشدني ابن السكيت:

إني لأصـــبر مـــن عـــود بـــه جلـــب عنـــد الملـــمات إلا عنـــد هجـــران
إذا رأيـــت ازورارًا مـــن أخـــي ثقـــة ضـــاقت عـــلي برحـــب الأرض أوطـــاني
ومـــا صـــدود ذوات الـــدل أرمـــضني لكـــنما الهجـــر عنـــدي هجـــر إخـــواني
فـــإن صـــدفت بـــوجهي كـــي أجازيـــه فـــالعين غـــضبي وقلبـــي غـــير غـــضبان

أخبرنا المرزباني أبو عبد الله، حدثنا الصولي، حدثنا أبو العيناء قال: كان ابن أبي داود يقول: لو أراد العباس بن الأحنف بقوله:

المـــــرء قـــــد يـــــرزق أعـــــداؤه منـــه ويـــشقى بالـــصديق الـــصديق

إصلاحًا بين قبيلتين من العرب، أو إقامة لخطبة، أو إرسالا لمثل وحكمة لكان أبلغ وأحسن.

وله أيضًا:

إذا امتنع القريب فلم تنله ... على قرب فذاك هو البعيد

أخبرنا القاضي أبو السائب، حدثنا ابن أبي طاهر، قال الكندي:

العباس - والله - ظريف، مليح، حكيم، وشعره جزل، وكان قليلا ما يرضى الشعر، فكان ينشد هذا كثيرًا له:

ألا تعجبون كما أعجب ... صديق يسيء ولا يعتب
وأبغي رضاه على سخطه ... فيأبى علي ويستصعب
فياليت حظي إذا ما أسأت ... أنك ترضى ولا تغضب

وقال لنا الناقط: كتب أبو الحوراء إلى صديق له: الله يعلم أنك ما خطرت ببالي في وقت من الأوقات إلا مثل الذكر منك لي محاسن تزيدني صبابة إليك، وضنًّا بك، واغتباطًا بإخائك.

أخبرنا ابن سحرة، حدثنا أبو إسماعيل الحريمي قال: دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وكنت قد تأخرت عنه فقال:

رأيت جفاء الدهر بي فجفوتني ... كأنك غضبان علي مع الدهر

فقلت: أيها الأمير لو علمت أني أسمع هذا لأعددت له جوابًا يناضل عني في الاعتذار، ويتقدمني بطلائع الشوق إليك، ويقوم لي مقام العذر قبلك، ولقد بدهتني بمفحمة، وتركبتني بمظلمة، وبالله الذي أسأله الزلفة عندك إني ما تأخرت إلا لعذر خافيه كالشمس وضوحًا، وغائبه كالحاضر عيانًا، ومظنونه كالمشاهد يقينًا، ومع ذلك فلم أخل من خاطر شوق كالسنان، ونزاع نفس كالجمة، وتبرم بالعيش كالحمام، أفأنا أجفوك مع الدهر، وأكون ألبًا له عليك،

وأنا ألحاه على جفائه لك، إنحائه على إرادتك بما خالف هواك، كلا، والذي شق البصر، وجعلك الوزر والعصر. فقال لي: هذا جوابك عما لم تعد له، فكيف بنا لو غمرتنا منك سحابتك الغداقة، ومزنتك الدفاقة، لله درك بادهًا ومرويًّا، وسابقًا، ومصليًا.

آخر:

غير ما طالبين ذحلا ولكن ... مال دهر على أناس فمالوا

الخليع:

لا تعجبن لملة صرفت ... وجه الأمير فإنه بشر
وإذا نبا بك في سريرته ... عقد الضمير نبا بك النظر

أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن علي الهجيمي قال: حدثنا أبو داود الطائي قال: جاء رجل إلى حماد بن زيد فقال له: يا أبا سعيد اطلب لي رفيقًا إلى مكة، ما بينك وبين سنة، فلما جاء الحول جاء رجل إلى حماد، فقال: أنا أطلب رفيقًا إلى مكة مذ سنة فجمع بينهما فمضيا إلى ابن عون فودعاه وقالا له: أوصنا، قال: أوصيكما بخصلتين، قالا: وما هما، قال: كظم الغيظ، وبذل المال، قال: فأتى أحدهما في منامه أن ابن عون أهدى لهما حلتين.

وقال الزبرقان:

ومن الموالي موليان فمنهما ... معطي الجزيل وباذل النضر
ومن الموالي ضب جندلة ... لحز المروءة ظاهر الغمر
يجني عليك إذا استطاع ولا ... يعيطك عند غنى ولا فقر
وإذا حباك الله أرغمه ... ودعا لتصبح غير ذي وفر

آخر:

ومولى كداء البطن لو كان قادرًا ... على الدهر أفنى الدهر أهلي وماليا

آخر:

ومولى قد رعيت الغيب فيه ... ولو كنت المغيب ما رعاني

آخر:

فما حياة امرئ أضحت مدامعه ... مقسومة بين أحياء وأموات؟

قيل لابن المقفع: بأي شيء يعرف الأخ؟ قال: أن ترى وجهه منبسطًا، ولسانه بمودته ناطقًا، وقلبه ببشره ضاحكًا، ولقربه في المجلس معجبًا، وعلى مجاورته في الدار حريصًا، وله فيما بين ذلك مكرمًا.

شاعر:

لهفي لأيام مضت ... مشغولة بك فرغا

آخر:

وبي برح شوق لو فرشتك كنهه ... لأيقنت أني في ودادك مخلص

ولا تأس من روح اجتماع يضمنا ... إلى برد أيام بقربك يخلص

آخر:

أتاني عنك ما ليس ... على مكروهه صبر

فأغضيت على عمد ... وقد يغضي الفتى الحر

وأدبتك بالهجر ... ولما ينفع الهجر

فلما زادني المكـ ... ـروه واشتد بي الأمر

تناولتـــــــك مـــــــن شري ... بـــــما لـــــيس لـــــه قـــــدر
فحركـــــت جنـــــاح الـــــ ... ـــــذل لمـــــا مـــــسك الـــــضر
إذا لم يـــــــصلح الخـــــــير ... امـــــرءًا أصـــــلحه الـــــشر

آخر:

ولمـــــا رأيتـــــك لا فاســـــقًا ... تهـــــاب ولا أنـــــت بالزاهـــــد
ولـــــيس عـــــدوك بـــــالمتقى ... ولـــــيس صـــــديقك بالحامـــــد
أتيـــت بـــك الـــسوق ســـوق الرقيـــق ... فناديـــت هـــل فيـــك مـــن زائـــد؟
عـــلى رجـــل غـــادر بالـــصديق ... كفـــــور لنعمائـــــه جاحـــــد
فـــما جـــاءني رجـــل واحـــد ... يزيـــد عـــلى درهـــم واحـــد
ســـوى رجـــل حـــان منـــه الـــشقاء ... وحلـــت بـــه الـــدعوة الوالـــد
فبعتـــك منـــه بـــلا شـــاهد ... مخافـــــة ردك بالـــــشاهد
وأبـــت إلى منـــزلي ســـالمًا ... وحـــل الـــبلاء عـــلى الناقـــد

آخر:

أخ لي كأيـــام الحيـــاة إخـــاؤه ... يلـــون ألوانًـــا عـــلي خطوبهـــا
إذا عبـــت منـــه خلـــة فهجرتـــه ... دعتنـــي إليـــه خلـــة لا أعيبهـــا

وكان المهلبِي يعجب من أبيات المثقب العبدي على ما حدثني به ابن البقال الشاعر:

فأمـــا أن تكـــون أخـــي بحـــق ... فـــأعرف منـــك غثـــي مـــن ســـميني
وإلا فـــــاطرحني واتخـــــذني ... عـــــدوًا أتقيـــــك وتتقينـــــي
فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي ... خلافـــك مـــا وصـــلت بهـــا يمينـــي

إذا لقطعتهـــا ولقلـــت بينـــي كـــذلك أجتـــوي مـــن يجتـــويني

وقال آخر:

بلـــوتهم واحـــدًا واحـــدًا فكلهـــم ذلـــك الواحـــد
وكلهـــم خـــيره نـــاقص وكلهـــم شره زائـــد

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما رواه لنا ابن شاهين: تصافحوا فإن التصافح يذهب غل الصدور، وتهادوا فإن الهدية تذهب السخيمة.

قال أعرابي: البشر سحر، والهدية سحر، والمساعدة سحر.

وقال الأحوص:

فـإن تـشبعي منـي وتـروي ملالـة فـإني وربي منـك أروى وأشـبع

شاعر:

إذا كتـب الـصديق إلى صـديق فقـد وجـب الجـواب عليـه فرضـا

آخر:

وصـاحب سـلفت منـه إلي يـد أبطـت عليـه مكافـاتي فعـاداني
لمـا تـيقن أن الـدهر حـاربني أبـدي التنـدم فـيما كـان أولاني
أفسدت بـالمن مـا أوليـت مـن حسن لـيس الكـريم إذا أولى بمنـان

أبو السائل مولى بني كهلان:

أرى فيـك أخلاقًـا حـسانًا قبيحـة وأنـت صـديق كالـذي أنـا واصـف
قريـب بعيـد أبلـه ذو فطانـة سـخي بخيـل مـستقيم مخـالف

كـــذاك لـــساني شـــاتم لـــك مـــادح ... كـــما أن قلبـــي جاهـــل بـــك عـــارف
تلونـت حتـى لـست أدري مـن العمـى ... أريـح جنـوب أنـت أم أنـت عاصـف
ولـست بـذي غـش ولـست بناصـح ... وإني لمـــن جهـــل بـــشانك واقـــف
أظنـــك كالـــستوق مـــا فيـــك فـــضة ... فـــإن كنـــت مغـــشوشًا فإنـــك زائـــف

آخر:

أأمنحـــــه ودي ويمنحنـــــي الأذى ... لحـــى الله مـــن تـــرضى بهـــذا خلائقـــه

آخر:

بنفـــسي مـــن إن قـــال خـــيرًا وفَّى بـــه ... وإن قـــال شرًّا قالـــه وهـــو مـــازح

آخر:

يرانـــا ســـواء فيعطـــي الـــسواء ... عـــلى كـــل حـــال وإن زدت زادا

آخر:

وقـــد تتعـــايش الأقـــوام حينًـــا ... بتلفيـــق التـــصنع والنفـــاق

آخر:

أراني إذا عاديـــت قومًـــا وددتهـــم ... وأنـــأى بـــود القلـــب عمـــن أقاربـــه
ويأتيـك ودي وهـو سـهب وقـد أبـى ... فـــؤادك إلا النـــأي مـــا لم يغالبـــه
فـصلني فـإني مـن جناحـك منكـب ... ومـا خـير رشـد بـان منـه مناكبـه

وقال فيلسوف: خير الأصحاب من ستر ذنبك فلم يقرعك ومعروفه عندك فلم يمنن عليك.

وقال فيلسوف: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإن اضطررت إليها فلا تصدقه، ولا تعلمه أنك تكذبه فينتقل عن ودك ولا ينتقل عن طبعه.

وقال فيلسوف: حسبك من عدوك كونه في قدرتك.

وقال فيلسوف: لا تقطع أحدًا إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه، ولا تتبعه بعد القطيعة وقيعة فينسد طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب ترده إليك، وتصلحه لك.

وقال فيلسوف: لا يزال الإخوان مسافرين في المودة حتى يبلغوا الثقة، فتطمئن الدار، ويقبل وفود التناصح، وتؤمن خبايا الضمائر، وتلقى ملابس التخلق، وتحل عقد التحفظ.

وقال فيلسوف: إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوسل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والأمن والثقة؛ ثم يوكلون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيرًا ونالوه لم يذكروه ولم يشكروه، وإن رأوا شرًّا أظنوه أذاعوه ونشروه، فإن أدمت مواصلتهم فهو الداء المعضل المخوف على المقاتل، وإن استرحت إلى مصارمتهم ادعوا الخبرة بك لطول العشرة لك، فكان كذب حديثهم مصدقًا، وباطلهم محققًا.

شاعر:

إني لآمل أن ترتد ألفتنا بعد النذائر والبغضاء والإحن

قال أفلاطون: صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله.

قال سقراط: لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك.

وقال أفلاطون: عمر الدنيا أقصر من أن تطاع فيها الأحقاد.

قال الشاعر:

والعمر أقصر مدة من أن يمحق بالعتاب

وقال أفلاطون: إذا صحبت حازمًا فأرضه في إسخاط حاشيته، وإذا صحبت أحمق فأسخطه في رضاء حاشيته.

قيل لديوجانس: ما الذي ينبغي للمرء أن يتحفظ منه؟ قال: من حسد إخوانه، ومكر أعوانه.

وقال أفلاطون: الأشرار يتتبعون مساوئ الناس، ويتركون محاسنهم كما يتتبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح.

وقيل لأبارينوس: ما لفلان أعرض عنك؟ فقال: ما أشبه إقباله بإدباره، ومن زعم أنه يضرني فلينفع نفسه.

وقيل لثيفانون: من صديقك؟ قال: الذي إذا صرت إليه في حاجة وجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها.

وقال انكساغورس: إن الشدائد التي تنزل بالمرء محنة إخوانه.

وقال أفلاطون: لا ينبغي للعاقل أن يتمنى لصديقه الغنى فيزهى عليه، ولكن يتمنى له أن يساويه في الحال.

قيل لبشار: ما تقول في العتاب؟ قال: هو من الرجال خير، ومن النساء شر.

وقال أعرابي: ما افترق متعاتبان قط إلا على حسيكة.

وقال الأحنف: ما عاتبت أحدًا إلا وما انثال علي منه أكثر مما عاتبته عليه.

وقال ابن همام السلولي: ما عاتبت أحدًا إلا وهو مغيظ مزهو، وما اعتذر إلا وهو ذليل مقفو، فإذا كان العذر لا يسلم من الكذب، فكيف يسلم العتاب من الحقد؟ وسمعت ذا الكفايتين بمدينة السلام، يقول لابن فارس: ما عاتبت أحدًا إلا بلسان يخرج عن طبع صحيح، وقلب نصيح، وفؤاد سجيح.

شاعر:

خليل لي جزاه الله خيرًا كلما ذكرا أطاع بهجرنا قومًا أطاروا بيننا شررا

وقال العتابي: قلت لأعرابي قح: إني أريد أن أتخذ صديقًا فابعثه لي حتى أطلبه قال: لا تبعث فإنك لا تجده، قلت: فابعثه كيفما كان حتى أتمناه وإن كنت لا ألقاه، قال: اتخذ من ينظر بعينك، ويسمع بأذنك، ويبطش بيدك، ويمشي بقدمك، ويحط في هواك، ولا يراه سواك، اتخذ من إن نطق فعن فكرك يستملي، وإن هجع فبخيالك يحلم، وإن انتبه فبك يلوذ، وإن احتجت إليه كفاك، وإن غبت عنه ابتداك، يستر فقره عنك لئلا تهتم له، ويبدي يساره لك لئلا تنقيض عنه.

قالت امرأة عبد الله بن مطيع لعبد الله: ما رأيت ألام من أصحابك، إذا أيسرت لزموك، وإذا أعسرت تركوك، فقال: هذا من كرمهم، يغشوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال العجز منا عنهم.

وقلت للعباداني: من الصديق؟ قال: من شهد طرفه لك عن ضميره بالوفاء والود، فإن العين أنطق من اللسان، وأوقد من النيران.

شاعر:

أصد صدود امرئ مجمل ... إذا حال ذو الود عن حاله
ولست بمستعتب صاحبًا ... إذا جعل الصرم من باله
ولكنني صارم حبله ... وذلك فعلي بأمثاله
ومهما أدل بحق له ... عرفت له حق إدلاله
وإني على كل حال له ... من إدبار ود وإقباله
لراع لأحسن ما بيننا ... بحفظ الإخاء وإجلاله

وكتب الزهيري إلى ابن السكن في آخر كتابه، وابن السكن إذ ذاك بالأهواز، والزهيري ببغداد:

لئن غاب عن عيني شخصك بالنوى ... لما غاب عن قلبي المصافاة والود
ولا نسيتك النفس مني ساعة ... ولا انتقض الميثاق والود والعقد

وأنشدنا علي بن هارون سنة خمسين وثلاثمائة ومات سنة ستين:

لئن غبت عن عيني بالبعد والنوى ... لما غبت عن فكري وعن ناظر القلب
أراك على بعد المسافة بيننا ... كما تبصر العينان مني على القرب

وقال روح أبو همام:

وعين السخط تبصر كل عيب وعين أخي الرضا عن ذاك تعمى
ولو يمنى يدي تكرهتني إذًا لحسمتها بالنار حسما

وقال ابن هبيرة في دعائه: اللّٰهم إني أعوذ بك من جليس مغر، وصديق مطر، وعدو مسر، وأعوذ بك من أرجام النوكى، وكل ما أوجب ملابسة الحمقى، وأعوذ بك من أدب التجار، ومن أخلاق الصغار، ومن خلطة كل محرم تصعب رياضته، وكل حريص يغره حرصه، ونعوذ بالله من صحبة من غايته خاصة نفسه، والانحطاط في هوى مستسيره، وأستعيذ بالله ممن لا يلتمس خالص مودتك، إلا بالتأتي لمواقع شهوتك، وأعوذ بالله ممن يساعدك على ساعتك، ولا يفكر في حوادث غدك، ولا يبالي في أي أقطارها نزلت، ومن أي أعيانها سقطت، ولذلك قالوا: صاحب السوء قطعة من النار، ولذلك قال القائل: ما رأينا في كل خير وشر خيرًا من صاحب. وكان يقول: اللّٰهم احفظني من بوائق الثقات، وعداوة ذوي القرابات.

شاعر:

إذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي يكون قليلا لم تشاركه في الفضل

آخر:

إذا قل مال المرء قل صديقه وضاقت عليه أرضه وسماؤه
إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازمًا أقدامه خير له أم وراؤه

آخر:

ستذكرني إذا جربت غيري ... وتعلم أنني لك كنت كنزا
بذلت لك الصفاء بكل ود ... وكنت كما هويت فصرت جبزا
وهنت إذا عززت وكنت ممن ... يهون إذا أخوه عليه عزا
فرحت بمدية فحززت حبلي ... بها مودتي بيديك حزا
فلم تترك إلى صلح مجازًا ... ولا فيه لمطلب مهزا
ستنكت نادمًا في الأرض بعدي ... وتعلم أن رأيك كان عجزا

آخر:

أخوك الذي لو جئت بالسيف قاصدًا ... لتضربه لم يستغشك في الود
ولو جئت تدعوه إلى الموت لم يكن ... يردك إشفاقًا عليك من الرد
يرى أنه في ذاك وانٍ مقصر ... على أنه قد آد جهدًا على جهد

وقال رجل من بني نهشل بن دارم:

إذا مولاك كان عليك عونًا ... أتاك القوم بالعجب العجيب
فلا تخنع إليه ولا ترده ... ورام برأسه عرض الجنوب
فما لشئافة في غير ذنب ... إذا ولى صديقك من طبيب

قال أبو سعيد السيرافي إمام الدنيا: يقال: شئفت الرجل أشائفه شأفًا وشأفة، ويقال أيضًا: شئفته وشئفت له.

قال عبد الله بن جعفر لصديق له: إن لم تجد من صحبة الرجال بدا فعليك بصحبة من إذا صحبته زانك، وإن خففت له صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن رأى منك خلة سدها، أو حسنة عدها، وإن وعدك لم يخرصك، وإن كبرت عليه لم يرفضك، وإن سألته أعطاك، وإن أمسكت عنه ابتداك.

وقال دعبل في معاذ بن سعيد الحميري:

فإذا جالسته صدرته ... وتنحيت له في الحاشيه
وإذا سايرته قدمته ... وتأخرت مع المستأنيه
وإذا ياسرته صادفته ... سلس الخلق سليم الناحيه
وإذا عاشرته ألفيته ... شرس الرأي أبيًا داهيه
فاحمد الله على صحبته ... واسأل الرحمن منه العافيه

وأتى رجل الحج فأتى شعبة بن الحجاج فودعه، فقال له شعبة: أما إنك إن لم تر الحلم ذلا، والسفه أنفًا سلم حجك.

وقال كثير:

ولست براض من خليل بنائل ... قليل ولا راض له بقليل
وليس خليلي بالملول ولا الذي ... إذا غبت عنه باعني بخليل
ولكن خليلي من يدوم وصاله ... ويحفظ سري عند كل دخيل

آخر:

لا تثقن بأمري طويته ... غش ويندي اللسان بالملق
فربما يلبس الجديد لأ ... ن يستر ما تحت ما الخلق

شاعر:

ولربما غفل الفتى عن نفسه ... ولحاظ عين عدوه ترعاه
حتى إذا ظفر العدو بفرصة ... نفث الذي في بغضه أرداه

شاعر:

تغربت أسأل من قد أرى ... من الناس هل من صديق صدوق
فقالوا عزيزان لن يوجدا ... صديق صدوق وبيض الأنوق

وقال ثا مسطيوس: الإنسان بلا أصدقاء كالشمال بلا يمين.

وقال أرسطوطاليس: أخلص الإخوان مودة من لم تكن مودته عن رغبة ولا رهبة.

وقال هرمس: القرابة تحتاج إلى المودة، والمودة لا تحتاج إلى القرابة.

وقال سقراط: مما يدل على عقل صديقك ونصيحته أنه يدلك على عيوبك، وينفيها عنك، ويعظك بالحسنى، ويتعظ بها منك، ويزجرك عن السيئة، وينزجر عنها لك.

وقال خالد بن صفوان يصف رجلا: ليس له صديق في السر، ولا عدو في العلانية.

شاعر:

ومما يسكن قلب الغريب ... رفيق تطيب به الصحبه

آخر:

فلا تصحب أخا الجهل ... وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى ... حليمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء ... إذا ما هو ما شاه
وفي الشيء من الشيء ... مقاييس وأشباه

عبد الرحمن بن حسان:

ومتخـــذ ودًا لمـــن لا يـــوده كمعتـــذر عـــذرًا إلى غـــير عـــاذر

المتلمس:

احفـظ نـصيحة مـن بـدا لـك نـصحه وكـذاك رأي الحـر جهـدك فاقبـل

للقطامي:

لعلـــك إن رددت عـــلي نـــصحي ســـيندمك الـــذي عملـــت يـــداكا

وأنشدنا أبو الفتح بندار بن غانم الكاتب، وكان عامل حلوان، هذين البيتين:

يختـــار عمـــرو عـــداوتي ســـفهًا وأبتغـــي ســـلمه ويمتنـــع
كلـــه إلى بغيـــه سيـــصرعه والـــدهر بينـــي وبينـــه جـــدع

كان يبلغ محمد ابن الحنفية عن عبد الله بن الزبير ما يكره، فقال له أصحابه: إن إمساكك عنه يجرئه عليك، قال: ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد بدًّا من معاشرته بالمعروف حتى يجعل الله له منه فرجًا ومخرجًا، وقد يدفع الله باحتمال المكروه مكروهًا أعظم منه.

أنشدنا أبو علي النحوي الشاعر:

كيـف أصـبحت كيـف أمـسيت ممـا يـــزرع الـــود في فـــؤاد الكـــريم

شاعر:

ومـــن النـــاس مـــن يـــودك حقًّـــا صـــافي الـــود لـــيس بالتكـــدير
فـــإذا مـــا ســـألته دفـــع فلـــس ألحـــق الـــود بـــاللطيف الخبـــير

openkan.com

آخر:

فـــلا تغـــرزك خلـــة مـــن تـــواخي ... فـــما لـــك عنـــد نائبـــة خليـــل

آخر:

ومـــن شـــيمتي أني إذا المـــرء ملنـــي ... وأظهـــر إعراضًـــا ومـــال إلى الغـــدر
أطلـــت لـــه فـــيما يحـــب عتابـــه ... وفارقتـــه في حـــسن مـــس وفي ســـتر
فـــإن عـــاد في ودي رجعـــت لـــوده ... وإن لم يعـــد أهملـــت ذاك إلى الحـــشر
لـــولا شـــماتة أقـــوام ذوي حـــسك ... أو اغـــتمام صـــديق كـــان يرجـــوني
لمـــا خطبـــت إلى الـــدنيا مطامعهـــا ... ولا بـــذلت لهـــا نفـــسي ولا دينـــي

آخر:

أحـــب مـــن الإخـــوات كـــل مـــؤات ... وكـــل غـــضيض الطـــرف عـــن عثـــراتي
يـــساعدني في كـــل أمـــر أحبـــه ... ويحفظنـــي حيًّـــا وبعـــد وفـــاتي
فمـــن لي بهـــذا ليـــت أني وجدتـــه ... فقاســـمته مـــالي مـــن الحـــسنات

شاعر:

كـــريم لـــه مـــن نفـــسه بعـــض نفـــسه ... وســـائر للحمـــد والـــشكر أجمـــع

آخر:

لم يبـــق ممـــا فـــاتني كـــسبه ... إلا فتـــى يـــسلم لي قلبـــه
ينـــأى فـــلا يفـــسده نأيـــه ... عنـــي ولا يـــصلحه قربـــه
يكـــون حـــسبي مـــن جميـــع الـــورى ... وفي كـــل حـــال وأنـــا حـــسبه

شاعر:

عتبي عليك مقارن العذر ... قد ذاد عنك حفيظتي صبري
فمتى هفوت فأنت في سعة ... ومتى جفوت فأنت في عذر
ترك العتاب إذا استحق أخ ... منك العتاب ذريعة الهجر

آخر:

اقبل معاذير من يلقاك معتذرًا ... إن بر عندك فيما قال أو فجرا
خير القرينين من أغضى لصاحبه ... ولو أراد انتصارًا منه لانتصرا

آخر:

صديقك حين يذخر عنك خيرًا ... وآخر لست تعرفه سواء

آخر:

فإن تنأ عنا لا تضرنا وإن تعد ... تجدنا على العهد الذي كنت تعلم

آخر:

بلوت الناس قرنًا بعد قرن ... فلم أر غير خلان المقال
ولم أر في الخطوب أشد هولا ... وأصعب من معاداة الرجال
وذقت مرارة الأشياء طرًّا ... فما طعم أمر من السؤال

آخر:

فإنك لن ترى طردًا لحر ... كإلصاق طرف الهوان
ولم تجلب مودة ذي وفاء ... بمثل البذل أو لطف اللسان

وقال فيلسوف: من لم يرض من أخيه بحسن النية لم يرض منه بحسن العطية.

وقال أعرابي: الحفاظ عمود الإخاء.

وقال فيلسوف: لكل جليلة دقيقة، ودقيقة الموت الهجر.

شاعر:

إذا أنت لم تترك أخاك لزلة ... إذا زلها أوشكتما أن تفرقا

آخر:

إذا أنت لم تغفر ذنوبًا كثيرة ... تريبك لم يسلم لك الدهر صاحب
ومن لا يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

آخر:

أردت لكيما لا ترى لي زلة ... ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل
ومن يسأل الأيام نأى صديقه ... وصرف الليالي يعط ما كان يسأل

آخر:

نضع الزيارة حيث لا يزري بنا ... كرم المزور ولا يعاب الزور

آخر:

قل للذي لست أدري من تلونه ... أناصح أم على غش يداجيني
إني لأكثر مما سمتني عجبًا ... يد تشج وأخرى منك تأسوني
تغتابني عند أقوام وتمدحني ... في آخرين وكل عنك يأتيني
هذان أمران شتى بون بينهما ... فاكفف لسانك عن ذمي وتزييني

آخر:

كل يوازيك المودة بالسوا ... يعطي ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل ... مالت مودته مع الرجحان

آخر:

والصدق أفضل ما لفظت به ... إن النفاق سجية تردي
إني وإن أظهرت شكركم ... أخفي وأضمر غير ما أبدي
لا مرحبًا بوصال ذي ملق ... يكدي مودته ولا يجدي
وإذا الصديق ذممت خلته ... صيرت قطع حباله وكدي
حتى أرى رجلا يعاشرني ... بمودة أطرى من الورد

وله أيضًا:

فلو أن كفي غير نافعتي ... لقطعتها بالفأس من زندي
عيني إذا قذيت ضحرت بها ... فأود لو سالت على خدي
أنا عبد من أرضى مودته ... ثم الخليفة بعد ذا عبدي
وأفر ممن خانني فرقًا ... إن الخيانة علة تعدي

قال ديوجانس للإسكندر لما ملك: أيها الملك، إني إلى اليوم كنت أخًا، وأنا اليوم تابع، وشتان بين الأخ والتابع، فقال الإسكندر: إن الأخوة قبل اليوم كانت أنعم بك، وهذه الحال اليوم أرفع لك، وإذا كنت تباطنني على ما تعهدناه قديمًا لم يضرك أن يكون تظاهرك على ما نستديم به أنسنا حديثًا.

شاعر:

لعمري لئن ريح المودة أصبحت ... شمالا لقد بدلت وهي جنوب

آخر:

وإني لمكـــــرام لمكـــــرم نفـــــسه ... وأبتـــذل المـــرء الـــذي لا يـــصونها
متـــى مـــا تهـــن نفـــسي عـــلى مـــن أوده ... أهنـــــه ولا يكـــــرم عـــــلي مهينهـــــا

آخر:

مـــن نـــم في النـــاس لم تـــؤمن عقاربـــه ... عـــلى الـــصديق ولم تـــؤمن أفاعيـــه
فالويـــل للعهـــد منـــه كيـــف ينقـــضه ... والويـــل للـــود منـــه كيـــف يفنيـــه

آخر:

وعـين الفتـى تبـدي الـذي في ضـميره ... ويعـرف بـالفحوى الحـديث المغمـس

وقال أعرابي: عاشر أخاك بالحسنى.

وقال أعرابي: أوحش قريبك إذا كان في إيحاشه أنسك.

شاعر:

فـلا أدع ابـن العـم يمـشي عـلى شـفًا ... وإن بلغتنـــي مـــن أذاه الجنـــادع
ولكـــن أواســـيه وأنـــسى ذنوبـــه ... لترجعـــه يومًـــا إلي الرواجـــع
وحـــسبك مـــن ذل وســـوء صـــنيعة ... منـــاواة ذي القربـــى وإن قيـــل قـــاطع

آخر:

فـــلا تغـــترر بـــرواء الرجـــال ... وإن زخرفـــوا لـــك أو موهـــوا
فكـــم مـــن فتـــى يعجـــب النـــاظرين ... لـــــه ألـــــسن ولـــــه أوجـــــه
ينـــام إذا حـــضر المكرمـــات ... وعنـــد الـــدناءة يـــستنبه

الخليل النحوي: رغبتك في الزاهد فيك ذل نفس، وزهدك في الراغب فيك قصر همة.

شاعر:

تنكـــرت حـــال الـــصديق فبعـــده عنـــي ومـــضجره لـــدي ســـواء
وبـــدت عـــلي مـــن الأعـــادي رقـــة ومـــن الـــصديق فظاظـــة وجفـــاء
وألفـت ضـنك العـيش عنـدك فـاس تـوت عنـدي بـه الـسراء والـضراء
وعـــلى الليـــالي أن تلـــم صروفهـــا وعـــلى الكـــريم تحمـــل وعـــزاء

قال مالك بن دينار: نقل الحجارة مع الأبرار أنفع لك من أكل الخبيص مع الفجار.

وقال النبي -صلى الله عليه وآله -:« تهادوا تحابوا».

وقال الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا وتبسم كل واحد منهما لصاحبه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر، فقلت: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول: {لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم}، فعلمت أنه أفقه مني.

قال ثابت البناني: جالست الناس خمسين سنة فما جالست أحدًا إلا وهو يحب أن تنقاد الناس لهواه، وإن الرجل ليخطئ فيحب أن تخطئ الناس كلهم.

التقى يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم -عليهما السلام- فتبسم يحيى في وجه عيسى، وقطب عيسى في وجه يحيى، فقال عيسى ليحيى: أتبتسم كأنك

آمن، فقال له يحيى: أتعبس كأنك قانط، فأوحى الله: إن ما فعله يحيى أحب إلي.

شاعر:

عمرت مع الناس دهرًا طويلا ... وعاشرت شبانهم والكهولا
وجربت أحوالهم في الخطوب ... فشرًّا كثيرًا وخيرًا قليلا

آخر:

إلى الله أشكو من خليل أوده ... ثلاث خلال كلها لي غائض
فمنهن ألا يجمع الدهر تلعة ... بيوتًا لنا يا تلع سيلك غامض
ومنهن ألا أستطيع كلامه ... ولا وده حتى يزول عوارض
ومنهن ألا يجمع الغزو بيننا ... وفي الغزو ما يلقى العدو المباغض
كفى بالفتور صارمًا لو رعيته ... ولكن ما أعلنت باد وخافض

وقال مبذول العذري:

ومولى كضرس السوء يؤذيك مسه ... ولابد إن آذاك أنك فاقره
دوي الجوف إن ينزع يسؤك مكانه ... وإن يبق تصبح كل يوم تحاذره
يسر لك البغضاء وهو مجامل ... وما كل من يجني عليك تناكره
فلا يك أدنى الناس منك محلة ... جوى الصدر يخفي غشه ويكاشره
وما كل من مددت ثوبك دونه ... لتستره مما أتى أنت ساتره

آخر:

فأبلغ مصعبًا عني رسولا ... وقد يلقى النصيح بكل واد
تعلم أن أكثر من تناجي ... وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

آخر:

إنـــما شـــيب الذؤابـــة منـــي ... وبـــراني مقـــاطع الإخـــوان

آخر:

عليـــك ســـلام الله أمـــا قلوبنـــا ... فمـــرضى وأمـــا ودنـــا فـــصحيح

آخر:

عزمـت عـلى هجـر فلـما أبـى الهـوى ... رجعـــت إلى قلـــب عليـــك شـــفيق

فـلا يمكـن الهجـران مـن ذات بيننـا ... فيعيـــى صـــديق عـــن لقـــاء صـــديق

آخر:

لعمـــرك إننـــي وأبـــا ربـــاح ... عـــلى طـــول التجـــاور منـــذ حـــين

ليبغـــضني وأبغـــضه وأيـــضًا ... يـــــراني دونـــــه وأراه دوني

آخر:

وأصـــبح عمـــي بعـــد ود كأنـــه ... إلي مـــن البغـــضاء شـــهباء مـــاحض

آخر:

متحـت لنـا سـجل العـداوة معرضًـا ... كأنـــك عـــما يحـــدث الـــدهر غافـــل

آخر:

فتـى غـير محجـوب الغنـى عـن صـديقه ... ولا مظهـــر الـــشكوى إذا النعـــل زلـــت

آخر:

إذا أقبلـــت منـــه المـــودة أقبلـــت ... وإن غمـــزت منـــه القنـــاة اكفهـــرت

شاعر من الأعراب:

إني وإن كـــان ابـــن عمـــي غائبًـــا ... لمقـــاذف مـــن دونـــه ووراءه
وأعـــده نـــصري وإن كـــان امـــرءًا ... مترجرجًـــا في أرضـــه وســـمائه
ومتـــى أجـــده في الـــشدائد مـــرملا ... ألـــق الـــذي في مـــزودي بوعائـــه
وإذا تتبعـــت الجلائـــف مالـــه ... خلطـــت صـــحيحتنا إلى جربائـــه
وإذا بي مـــن وجهـــة بطريفـــة ... لم أطلـــع ممـــا وراء خبائـــه
وإذا اكتـــسى لونًـــا جمـــيلا لم أقـــل ... يـــا ليـــت أن عـــلي حـــسن ردائـــه
وإذا غـــدا يومًـــا ليركـــب مركبًـــا ... صـــعبًا قعـــدت لـــه عـــلى سيـــسائه
وإذا اســـتراش وفرتـــه وحمدتـــه ... وإذا تـــصعلك كنـــت مـــن قرنائـــه

السيساء: فقار الظهر هكذا قال أبو سعيد السيرافي الإمام.

وقال آخر:

حبـــاك خليلـــك القـــسري قيـــدًا ... لبـــئس عـــلى الـــصداقة مـــا حباكـــا

آخر:

ومـــولى أمتنـــا داءه تحـــت جنبـــه ... فلـــسنا نجازيـــه ولـــسنا نعاقبـــه
رأى الله أعطـــاني فـــأغلق صـــدره ... عـــلى حـــسد الإخـــوان فـــازور جانبـــه
فويـــل لهـــذا ثـــم ويـــل لأمـــه ... علينـــا إذا مـــا حربتنـــا حواربـــه

مطيع بن إياس:

لـــيس مـــن يظهـــر المـــودة إفكًـــا ... وإذا قـــال خـــالف القـــول فعلـــه
وصـــله للـــصديق يـــوم وإن طـــا ... ل فيومـــان ثـــم ينبـــت حبلـــه

وقال العرجي:

ولا بعـــدي يغـــير حـــال ودي ... عـــن العهـــد الكـــريم ولا اقـــترابي
ولا عنـــد الرخـــاء أخـــوان يومًـــا ... ولا في فاقـــة دنـــست ثيـــابي
ولا يغـــدو عـــلي الجـــار يـــشكو ... أذاتي مـــا بقيـــت ولا اغتيـــابي
ومـــا الـــدنيا لـــصاحبها بحـــظ ... ســـوى حـــظ البنـــان مـــن الخـــضاب
إذا مـــا الخـــصم جـــار فقـــل صـــوابًا ... فـــإن الجـــور يـــدمغ بالـــصواب
فـــإني لا يغـــول النـــأي ودي ... ولـــو كنـــا بمنقطـــع الـــتراب

وقال آخر:

فلـــولا أن فرعـــك حـــين ينمـــي ... وأصـــلك منتمـــي فرعـــي وأصـــلي
وإني إن رميـــت رميـــت عظمـــي ... ونـــالتني إذا نالتـــك نـــبلي
لقـــد أنكرتنـــي إنكـــار خـــوف ... يـــضم حـــشاك عـــن شـــتمي وأكـــلي

المتلمس:

ولـــو غـــير أخـــوالي أرادوا نقيـــصتي ... جعلـــت لهـــم فـــوق العـــرانين ميـــسما
ومـــا كنـــت إلا مثـــل قـــاطع كفـــه ... بكـــف لـــه أخـــرى فأصـــبح أجـــذما
يـــداه أصـــابت هـــذه حتـــف هـــذه ... فلـــم تجـــد الأخـــرى عليهـــا مقـــدما
فلـــما اســـتفاد الكـــف بـــالكف لم يجـــد ... لـــه درکًـــا في أن تبينـــا فـــأحجما
فـــأطرق إطـــراق الـــشجاع ولـــو يـــرى ... مـــساغًا لنابيـــه الـــشجاع لـــصمما

آخر:

وإذا شـــئت فتـــى شـــئت حديثـــه ... وإذا ســـمعت غنـــاءه لم أطـــرب

آخر:

لـــه خلائـــق بـــيض لا يغيرهـــا صرف الزمـان كـما لا يـصدأ الـذهب

آخر:

ســـــبكناه ونحـــــسبه لجينـــــا فأبـدى الكـير عـن خبـث الحديـد

النابغة:

ولـــست بمـــستبق أخًـــا لا تلمـــه عـلى شـعث أي الرجـال المهـذب؟

ولما جفت سعد سيدها الأضبط بن قريع تحول عنهم إلى قبيلة أخرى فظلموه وآذوه، فقال: بكل واد بنو سعد.

شاعر:

إني ليردعنـي عـن ظلـم ذي رحـم لـب أصـيل وحلـم غـير ذي وصـم
إن لأن لنـت وإن دبـت عقاربـه مـلأت كفيـه مـن صـفح ومـن كـرم

آخر:

ولـو أخاصـم أفعـى نابهـا لبـق أو الأسـاود مـن صـم الأهاضـيب
لكنـتم معهـا إلبًـا وكـان لهـا نـاب بأسـفل سـاق أو بعرقـوب

آخر:

أذيـتم بقـربي مـنكم ومـودتي فأغتيـت عـنكم مـا أذيـتم بـه منـي
وأصـبحت عـنكم غانيًـا في عـدوكم وأغنـاكم تقـصير رأيكـم عنـي

آخر:

لعمـرك لـو أني أخاصـم حيـة إلى فقعـس مـا أنـصفتني فقعـس

آخر:

أفكر ما ذنبي إليك فلا أرى ... علي سبيلا غير أنك حاسد
وإنا لموسومان كل بوسمة ... أقر مقر أم أبى جاحد

آخر:

بني عمنا لا تقربوا البطل إنه ... يضيق وأن الحق مأتاه واسع
فلا الضيم أعطيكم لطول وعيدكم ... ولا الحق من بغضائكم أنا مانع

آخر:

لقد زادني حبًّا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وإني شقي باللئام ولا ترى ... شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل
إذا ما رآني قطع الطرف بينه ... وبيني فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها ... من الضيق في عينيه كفة حابل
أكل امرئ ألفى أباه مقصرًا ... معاد لأهل المكرمات الأوائل

آخر:

ومولى كولى الزبرقان دملته ... كما دملت ساق يهاض بها كسر
ترى الشر قد أفنى دوائر وجهه ... كضب الكدى أفنى براثنه الحفر
تراه كأن الله يجدع أنفه ... وأذنيه إن مولاه ناب له وفر

آخر:

إخوة ما شهدت سرون برون فـ ... إن غبت فالذئاب الجياع
لا لسوء البلاء مني ولكن ... ظهرت نعمة علي فلاعوا

آخر:

ستعلم أينا أبذى وأفرى ... وأقول للعظيم ولا يبالي
ومن بتواتر السبات أحرى ... إذا نحن ارتمينا في النضال
ومن أخلاقه قذع ولؤم ... ومن يرمي بأمثال الجبال

الخريمي:

فلم أجزه إلا المودة جاهدًا ... وحسبك مني أن أود فأجهدا

مسكين الدارمي:

ولا تحمد المرء قبل البلاء ... ولا يسبق السيل منك المطر
وإني لأعرف سيما الرجال ... كما يعرف القائفون الأثر

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد: إن الله إذا أحب عبدًا حببه إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك. وقالوا: إذا أحب الله عبدًا ألقى مودته على الماء فلم يشرب منه أحد إلا أحبه، وإذا أبغض الله عبدًا ألقى بغضه على الماء فلم يشرب منه أحد إلا أبغضه.

وسمعت ابن سمعون الصوفي يقول: ما يقف البشر على بعد غور قول الله تعالى لكليمه: {وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني}، فإن في هاتين الكلمتين ما لا يبلغ كنهه، ولا ينال آخره، ولو أن أرق الناس لسانًا، وألطفهم بيانًا أراد أن يتوسط حقيقة هذا القول لم يستطع وعاد حسيرًا، ونكص بهيرًا، وبقي عاجزًا. ثم قال: اللّهم حبب بعضنا إلى بعض، واجمع شملنا إلى رضاك عنا مع إحسانك إلينا، إنك أهل ذلك، والجواد به.

وقال بعض السلف الصالح: خير الناس خير الناس للناس.

وقال آخر: من أحب الناس صنع ما يحبه الناس.

وقال رجل من قريش: خالطوا الناس مخالطة إن غبتم حنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم.

وقال بكر بن عبد الله المزني: لو كان هذا المسجد، يعني مسجد البصرة، مفعمًا بالرجال ثم قيل: من خيرهم؟ لقلت: أخيرهم لهمز، وقال معاذ بن جبل: خير الرجال الألوف وشرهم العزوف.

شاعر:

وما الود إلا عند من هو أهله ... وما الشر إلا عند من هو حامله

وقال ابن دارة:

إذا أنت لم تستبق يومًا صحابة ... على عتبة أكثرت بث المعاتب

آخر:

أخي وصفيي فرق الدهر بيننا ... بكره ولكن لا عتاب على الدهر
تصبر على جنب الخوان مبصرًا ... تصبر بحاجات المجاور والصهر

آخر:

إذا أنت أكثرت الأخلاء صادفت ... بهم حاجة بعض الذي أنت مانع
إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة ... وتحمل أخرى افدحتك الودائع

آخر:

ومحتمل ضغنًا علي وشامت ... شديد اللسان ودَّ لو أتضعضع
ملأت عليه الأرض حتى كأنما ... يضيق عليه عرضها حين أطلع

آخر:

عجبت لبعض الناس يبذل وده ... ويمنع ما ضمت عليه الأصابع
إذا أنا أعطيت الخليل مودتي ... فليس لما لي بعد ذلك مانع

آخر:

وكم من أخ فارقت لو كان أمره ... إلي طوال الدهر لم نتفرق

آخر:

أنا ابن عمك إن نابتك نائبة ... ولست ذاك إذا ما نعتك اعتدلا

آخر:

إذا شئت أن لا يبرح الود دائمًا ... كأفضل ما كانت تكون أوائله
فآخ فتى لا المقرفات ولدنه ... كريمًا كنصل السيف حلوًا شمائله
فذاك الذي يرضيك صارم حده ... ويكفيك من لهو الكواعب باطله

آخر:

ومولى كداء البطن ليس بزائل ... تدب أفاعيه لنا والعقارب
دملت على أشياء منه لو أنها ... تنم لم يسلم عليهن صاحب
أمولاي إني لا تكون عداوتي ... عليك ولكني بوترك طالب

آخر:

فتب واتخذني جنة تتقي بها ... عدوك إن نابت عليك النوائب

آخر:

إني ليحمـــدني الخليـــل إذا احتـــوى ... مـــالي ويكرهنـــي ذوو الأضـــغان

آخر:

إني تـــودكم نفـــسي وأمـــنحكم ... حبـــي ورب حبيـــب غـــير محبـــوب

آخر:

أجامـــل ذا الـــضغن المبـــين ضـــغنه ... وأضـــحك حتـــى يبـــدو النـــاب أجمـــع
وأهديـــه عمـــدًا بـــالمقول ولـــو يـــرى ... سريـــرة مـــا أخفـــي لظـــل يفـــزع

آخر:

ومـــــا المـــــرء إلا بإخوانـــــه ... كـــما تقـــبض الكـــف بالمعـــصم
ولا خـــير في الكـــف مقطوعـــة ... ولا خـــير في الـــساعد الأجـــذم

آخر وهو جاهلي:

إني لأبـــذل للخليـــل إذا دنـــا ... مـــا لي وأتـــرك مالـــه موفـــورًا
وإذا أردت ثـــواب مـــا أعطيتـــه ... فكفـــى بـــذلك نـــائلا تكـــديرا

آخر:

تبـغ ابـن عـم الـصدق حيـث لقيتـه ... فـإن ابـن عـم الـسوء أوغـر جانبـه
تبغيتـــه حتـــى إذا مـــا وجدتـــه ... أراني نهـــار الـــصيف تجـــري كواكبـــه
ورب ابـــن عـــم تدعيـــه ولـــو تـــرى ... خبيئتـــه يومًـــا لـــساءك غائبـــه
فـــإن يـــك خـــيرًا فالبعيـــد ينالـــه ... وإن كـــان شرًا فـــابن عمـــك صـــاحبه
ألا رب مـــن يغـــشى الأباعـــد نفعـــه ... ويـــشقى بـــه حتـــى المـــمات أقاربـــه

فخل ابن عم السوء والدهر إنه ستدركه أيامه ونوائبه

آخر:

أواخي كرام القوم ثم أحوطهم ولست بمذق القول مستطرف الوصل
ومالي من ذنب إليك فلا تكن إلي شيء كأنشوطة الحبل
فلا مرحبًا بالسخط منك وبالقلى فكل الذي يرضيك بالرحب والسهل

آخر:

وإني أخوهم عند كل ملمة إذا مت لم يلقوا أخًا لهم مثلي
ومولى دفعت الدر عنه تكرمًا ولو شئت أمسى وهو مغض على تبل

آخر:

تواصل أحيانًا وتصرم تارة وشر الأخلاء الحبيب الممزح

آخر:

كم من عدو أخي ضعن يجاملني يخفي عداوته أن لا يرى طمعا

آخر:

وكم تورعت من مولى تعرض لي رفهت عنه ولو أتعبته ضلعا

آخر:

كالتمر أنت إذا ما حاجة عرضت وحنظل كلما استغنيت للجاني
تنأى بودك ما ساغنيت عن أحد وما افتقرت فأنت الواغل الداني

آخر:

فيا قومنا لا خير في كل صاحب ... إذا اصطنع المعروف من وعددا

آخر:

متى ما يشا ذو الوصل يصرم خليله ... ويغضب عليه لا محالة ظالما

آخر:

أخوك الذي إن تدعه لملمة ... يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

آخر:

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر ... من الود قد بالت عليه الثعالب
فأصبح باقي الود بيني وبينه ... كأن لم يكن والدهر فيه العجائب
فما أنا بالباكي عليه صبابة ... ولا بالذي ملتك منه المثالب
إذا المرء لم يجبك إلا تكرهًا ... بدا لك من أخلاقه ما يغالب
فدعه فصرم المرء أهون حادث ... وفي الأرض للمرء الكريم مذاهب

آخر:

فإن تترك يومًا أخًا لك صالحًا ... ففي الأرض منأى عن بلادك واسع

آخر:

ولي ابن عم لو أن الناس في كبد ... لظل محتجرًا بالنبل يرميني
إني لعمر كما بابي بذي غلق ... عن الصديق ولا خيري بممنون

آخر:

إذا افتقرت نأى واشتد جانبه ... وإن رآك غنيًّا لان واقتربا
وإن أتاك لمال أو لتنصره ... أثنى عليك الذي يهوى وإن كذبا

مـــدلي القرابـــة عنـــد النيـــل يطلبـــه ... وهـــو البعيـــد إذا نـــال الـــذي طلبـــا
حلـــو اللـــسان بعيـــد القلـــب مـــشتمل ... عـلى العـداوة لابـن العـم مـا اصـطحبا

آخر:

ويـــــزعم لي الواشـــــون أني فاســـــد ... عليـــك وإني لـــست ممـــا عهـــدتني
ومـــا فـــسدت لي يعلـــم الله نيـــة ... عليـــك بـــل استفـــسدتني فـــاتهمتني
غـــدرت بـــودي جاهـــدًا فـــأخفتني ... فخفـــت ولـــو آمنتنـــي لأمنتنـــي
إلى الله أشـــكو لا إليـــك وطالمـــا ... شـكوت الـذي ألقـاه منـك فزدتنـي

آخر:

ولـست بـذي لـونين يهفـو ولا الـذي ... إذا مـــا خلـــيلي بـــان منـــه تقلبـــا
ولكـــن خلـــيلي مـــن يـــدوم وصـــاله ... عـــلى كـــل حـــال إن نـــأى أو تقربـــا

آخر:

ألـين لـذي القربـى مـرارًا وتلتـوي ... بأعنـــاق أعـــدائي حبـــالي فتمـــرث

قال فعنت:

مـا بـال قـوم صـديقًا ثـم لـيس لهـم ... عهـد ولـيس لهـم ديـن إذا ائتمنـوا
إن يـسمعوا ريـة طـاروا بهـا فرحًـا ... منـي ومـا سـمعوا مـن صـالح دفنـوا
صـم إذا سـمعوا خـيرًا ذكـرت بـه ... وإن ذكـرت بـسوء عنـدهم أذنـوا
وإن بطنـت أرجـي ودهـم ظهـروا ... وإن ظهـرت للقيـا فـيهم بطنـوا
فطانـة فطنوهـا لـو تكـون لهـم ... مـروءة أو تقـى لله مـا فطنـوا
وقـد علمـت عـلى أني أعايـشهم ... لا تـبرح الـدهر فـيما بيننـا إحـن

obeikan.com

كل يداجي على البغضاء صاحبه ... ولن أعالنهم إلا كما علنوا
شبه العصافير أحلامًا ومقدرة ... لو يوزنون بزف الريش ما وزنوا
جهلا علينا وجبنًا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن
كغارز رأسه لم يدنه أحد ... بين القرينين حتى لزه القرن

آخر:

البس قرينك إن أخلاقك فحشت ... فلا جديد لمن لا يلبس الخلقا

وقال زياد الأعجم:

أخ لك لا تراه الدهر إلا ... على العلات بسامًا جوادا
أخ لك ليس خلته بمذق ... إذا ما عاد فقر أخيه عادا

آخر:

أحذر وصال اللئيم إن له ... عضهًا إذا حبل وصله انقطعا

آخر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عني لمختلف جدًّا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبِي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنحس تمر بي ... زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وإن أجمعوا صرمي معًا وقطعيتي ... جمعت لهم مني مع الصلة الودا
أجود بمالي خشية أن يعمروا ... إذا ما هم شدوا على الصور العقدا

لهم جل ما لي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لم أكفهم رفدا

وتقدم خصمان إلى المغيرة بن شعبة، فقال أحدهما: إن هذا يدل علي بمعرفة بك، قال: صدق وإنها لتنفعه. قال: كيف أتضلع علي في الحكم؟ قال: لا، ولكن أنظر فإن توجه الحق له أخذته منك عنف، وإن توجه الحق لك عليه قضيت عنه إليك، إن المعرفة لتنفع عند الكلب العقور فكيف عند الرجل الحر.

شاعر:

لي صاحب قد كنت آمل نفعه سبقت صواعقه إلي صبيبه
يا من بذلت له المودة مخلصًا في كل أحوالي وكنت حبيبه
أيام نسرح في مراد واحد للعلم تنتجع القلوب عريبه
ونظل نشرع في غدير واحد نصف الصفاء لوارديه وطيبه
ما هكذا يرعى الصديق صديقه وحبيبه وقرينه ونسيبه

قال الفضل قال -صلى الله عليه وآله-: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس».

وقال شاعر:

زادني قرب صديقي فاقة أورثت من بعد فقري مسكنه

آخر:

وإن أخاك الكاره الود وارد وأنت بمرأى من أخيك ومسمع

وآخر:

الله يعلم أن فرقة بيننا فيما أرى خطب علي يهون

آخر:

إلفان داما على ودادهما ... قد أمكنا الحب من قيادهما
تحالفا إن صفا الهوى لهما ... أن يحفظاه إلى معادهما
ما من محبين جاهرا بهوى ... إلا سعى الناس في فسادهما

آخر:

وإني لأستحيي من الله أن أرى ... رديفًا لوصلي أو على رديف
وإن أرد الماء الموطأ ورده ... وأتبع ود المرء وهو ضعيف

بشار:

وكاشح معرض عني هممت به ... ثم ارعويت وقلت الناس بالناس

آخر:

ولا خير في قربى لغيرك نفعها ... ولا في صديق لا تزال تعاتبه

آخر:

تبدل فما لي من هواك بديل ... ولا لك عندي في الأنام عديل
وكن قاطعًا إن شئت أو كن مواصلا ... فأنت هوى لي كيف شئت وسول
رجائي وإن قصرت فيك طويل ... وصبري وإن أعرضت عنك قليل

آخر:

إني لأبغض كل مصطبر ... عن إلفه في الوصل والهجر

آخر:

فإن يك من لقائك غاب وجهه ... فلم تغب المودة والإخاء

ولم يغـــب الثنـــاء عليـــك منـــي بظهـــر الغيـــب يتبعـــه الـــدعاء
ومـــا زالـــت تتـــوق إليـــك نفـــسي عـــلى الحـــالات يحـــددها الوفـــاء

آخر:

مـن أيـن لي في سـائر النـاس صـاحب إذا صـد عنـي رده الـنظم والنثـر

آخر:

وإذا ســـمعت نميمـــة فتعـــدها وتحفظـــن مـــن الـــذي أنباكهـــا
وذر النميمـــة لا تكـــن مـــن أهلهـــا وتجنـــبن مـــن صـــاغها أو حاكهـــا

وكتب ابن ثوابة إلى ابن فراس الكاتب:

فصل

عهدي بك يا سيدي يتطوع بنافلة لابتداء، فكيف تخل بفريضة الجواب، وهل يرضى الصديق منك أن تبره قريبًا، وتجفوه بعيدًا، وتذيقه حلاوة الوصل دانيًا، وتجرعه مرارة القطيعة نائيًا، وما عليك لو رضيت بالبين فاجعًا، واكتفيت بالدهر قاطعًا:

والـــدهر لـــيس بمعتـــب مـــن يجـــزع والبـــين بالـــشمل لمجمـــع مولـــع

فما ظنك بمن يجري ذوي المروءة مجرى سائر من يرى باطنه يخالف ظاهره، وتأويله ينافي تنزيله، وهذا هزل يترجم عن جد، والضد يبرز حسنه الضد، أودعتني، إذا ودعتني:

شـــوقًا إليـــك تفـــيض منـــه الأدمـــع وجـــوى عليـــك تـــضيق عنـــه الأضـــلع

فكم أتلهف على ما أنفدناه في حال الاجتماع من عيش رخي، ويوم فتي، وسرور امتدت ظلاله، وليل غاب عذاله، فارغب إلى الله في إعادة تلك العهود، إنه فعال لما يريد.

شاعر:

يا ذا الذي ألف القطيعة دهره ... إن القطيعة موضع الريب
إن كان ودك كامنًا في نية ... فاطلب صديقًا عالمًا بالغيب

سمعت أبا سعيد السيرافي الإمام يقول: العرب تقول: أوصل الناس أوضعهم للصرم في موضعه.

شاعر:

وما كل من يظنني أنا معتب ... ولا كل ما يروى علي أقول

آخر:

رب ابن عم ليس بابن عم ... داني الأذاة ضيق المجم
وإن أتى يوم شديد الغم ... لم يك قرن المقطع المهم

وقال بشار:

أراك اليوم لي وغدًا لغيري ... وبعد غد لأقربنا إليكا
إذا آخيت ذا فارقت هذا ... كأن فراقه حتم عليكا
فأقدمهم أخسهم جميعًا ... وأحدثهم أحثهم لديكا
وكلهم وإن طرمذت فيه ... ستتركه وشيكًا من يديكا

أبو الأسود الدؤلي:

وما ساس أمر الناس إلا مجرب ... حليم ولا صافيت مثل كريم
فما الحليم واعظ مثل نفسه ... ولا لسفيه واعظ كحليم

آخر:

وأعرض عن ذي المال حتى يقال لي ... قد أحدث هذا جفوة وتعظما
وما بي جفاء عن صديق ولا أخ ... ولكنه فعلي إذا كنت معدما

آخر:

وإن أمانتي لا يحتويها ... خليل في زيال واجتماع
سأرعاها وإن هو غاب عنها ... لكل أمانة بالغيب راع

آخر:

وذي حسد يغتابني حين لا يرى ... مكاني ويثني صالحًا حين أسمع
تورعت أن أغتابه من ورائه ... وما هو إذ يغتابني متورع

آخر:

وسوء ظنك بالأذنين داعية ... بأن يخونك من قد كان مؤتمنا

آخر:

احفظ نصيحة من بدا لك نصحه ... ولرأي أهل الخير جهدك فاقبل

القطامي:

لعلك إن رددت علي نصحي ... ستندمك الذي عملت يداكا

أبو الأسود:

ألا رب نـصح يغلـق البـاب دونـه وغـش إلى جنـب الـسرور يقـرب

عبد الرحمن بن حسان:

ومتخـذ ودًا لمـن لا يـوده كمعتـذ عـذرًا إلى غـير عـاذر

ومـستوقد حربًـا عـلى غـير ثـروة كمقـتحم في الـيم لـيس بماهـر

وعـاش بعينيـه لمـن لا يبالـه كـساع برجليـه لإدراك طـائر

وقال أعرابي: بالمداراة تستخرج الحية من جحرها، وتستنزل الطائر من الهواء، وتقنص الوحش من البيداء.

شاعر:

أخـو البـشر محمـود عـلى حـسن بـشره ولـن يعـدم البغـضاء مـن كـان عابـسًا

وقال أسماء بن خارجة:

أردت مـساتي فاعتمـدت مـسرتي وقـد يحسن الإنـسان يومًـا ولا يـدري

وقيل لقس بن ساعدة: صف لنا صديقك فقال:

رحيـب الـذراع بالـذي لا يـشينه وإن كانـت الفحـشاء ضـاق بهـا ذرعـا

وقال قيس بن الخطيم:

فـإن ضـيع الإخـوان سرًّا فـإنني كتـوم لأسرار العـشير أمـين

وعنـدي لـه يومًـا إذا مـا ائتمنتـه مكـان بـسوداء الفـؤاد مكـين

obeikan.com

وقيل للحراني: بينك وبين سهل بن هارون صداقة فانعته لنا كي نعرف فقال: هو كالخير، وازن العلم، واسع الحلم، إن فوخر لم يكذب، وإن موزح لم يغضب، كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أوفت أحيت، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء طهور لملتمسه، وناقع لغلة من احتر إليه، وكالهواء الذي نقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور.

شاعر:

غمست نفسك في خضراء مغدقة ... وغيرتك على إخوانك النعم

آخر:

لقد أتاك العدى عنا بمنكرة ... فرددوها بإسراف وتكثير
لا تسمعن بنا إفكًا ولا كذبًا ... يا ذا الفواضل والنعماء والخير

آخر:

كأني وشبلا لم نبت ليلة معًا ... ولم نصطحب خدنين قبل التفرق
ولم نتماحض صادق الود بيننا ... ولم نبتعد يومًا لخير فنلتقي
حليم إذا ما الجهل أنصل نبله ... وحص أثيث الريش عن كل أفوق
سجيه حلم صاغها الله شيمة ... فتمت على ما قال غير التخلق

آخر:

ومن يتخذ جلى إخائك جنة ... وممتنعًا لا تلقه الدهر معورا

آخر:

وقد كنت جارًا للشباب وصاحبًا ... فكيف ولم أغدر به ملء جانبي
وغني على ما فات منه لقائل ... عليك السلام من خليل وصاحب

آخر:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم ... بعضًا ليدفع معورًا عن معور

آخر:

ذهب الذين إذا رأوني مقبلا ... هشوا وقالوا مرحبًا بالمقبل
وبقيت في خلف كأن حديثهم ... ولغ الكلاب تهارشت في منهل

آخر:

ألا ربما كان الشفيق مضرة ... عليك من الإشفاق وهو ودود

قالت عائشة: كنت أرى امرأة تدخل على النبي -صلى الله عليه وآله- وكان يقبل عليها بحفاوة، فشق ذاك علي، فعلم ذاك مني، فقال: «يا عائشة هذه كانت تغشانا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

وأروي هنا ذراوة من كلام أرباب الحذق والخرق، فإن فيه فائدة حسنة لا أرى الإضرار عنه، والإخلال به.

سمعت ابن السراج الصوفي يقول: قلت لأبي الحسن البوشنجي: من أصحب؟ قال: من يصفو كدرك بصفائه، ولا يكدر صافيك بكدره.

وقلت لغلام ابن بابويه القمي: من أعاشر؟ فقال: من إذا أحسنت قال: الحمد لله الذي وفق هذا لم أرى، وإذا أسأت قال: الحمد لله الذي لم نبله بأشد مما أرى.

وقال أبو المتيم الرقي: قلت لابن المولة: من أخلص إليه، وأشتمل بسري وعلانيتي عليه؟ قال: من إذا لم يكن لنفسك كان لك، وإذا كنت لنفسك كان معك، يجلو صدأ جهلك بعلمه، ويحسم مادة غيك برشده، وينفي عنك غش صدرك بنصحه، اصحب من إن قلت صدقك، وإن سكت عذرك، وإن بذلت شكرك، وإن منعت سلم لك، قلت: يا سيدي من لي بمن هذا نعته؟ قال: كن أنت ذاك تجدك على ذاك، ويجدك مثلك على ذاك، كأنك إنما تحب أن يكون غيرك لك، ولا تحب أن تكون أنت لغيرك.

وقيل لبرهان الصوفي: من الصديق؟ قال: يا هذا من بضع نصفه معدوم عليك فاطلب من يسعك بخلقه، ويؤنسك بنفسه، ويواسيك من قليله، إن رضي عنك لم يغلظك، وإن سخط عليك لم يمقتك، يبدي لك خيره لتقتدي به، ويواري عنك شره لئلا تستوحش منه، فأما من تكون مثال نفسه في كل حال تلون به الدهر، وهم صدره في كل أمر، يقلب به الليل والنهار، يقدم حظك على حظه، ولا يسارق النظر بلحظه، ولا يغلظ القول بلفظه، ولا يتغير لك في غيبه، ولا يحول عما عهدته في شهادته، يعانق مصلحتك بالاهتمام، ويثبت قدمك عند الإقدام والإحجام، فذاك شيء قد سد الناس دونه كل باب، وقصر الطمع فيه عن كل قاب، فليس له شبح إلا في الوهم، ولا خيال إلا في التمني والسلام.

وقلت لجعفر بن حنظلة: من أصحب؟ قال: أخطأت، قل لي من لا أصحب، فإني إن حصرت لك من لا تصحب فقد أرشدتك إلى من تصحب، فإني إن حصرت لك من لا تصحب فقد أرشدتك إلى من تصحب، قال: فمن لا أصحب؟ قال: لا تصحبني ولا تصحب من كان مثلي، وما زادني على هذا، ولحقني من هذا الكلام كرب وصرف الزمان، فرأيته بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين وهو متوجه إلى الحج فقلت له: أيها الشيخ لقد جرحت سري بكلامك في وقت كذا وكذا، ولعلك ذاكر مما كان هناك، قال: أردت بتنفيرك مني إغراءك بي، وهذا من خدع المشايخ للمريدين.

وحدثني ابن السراج الصوفي قال: كنت بالشام عند الروبذباري أبي عبد الله، فكتب إلى المهلبي، وكان من مشايخ الشام، كتابًا فيه شوق وعتب يقول في فصل منه: أراحك الله يا سيدي من شوق من لا تشتاق إليه، وعتب من لا تغتابه، فإنه إذا أجاب هذا الدعاء حرس وقتك لك، وأفرغ بالك عليك، وكنت في زينة حالك ساعيًا، ولحقائق سرك وعلانيتك راعيًا، ولكن لو رحمت أصدقاءك في شوقهم إليك، صنتهم وغياك عن عتبهم عليك، وليس بضائر أن تجعل اهتمامك بهم، وطلوعك عليهم، وتجديدك العهد بناسمتهم في عرض ما تتقرب إلى الله به إن كان حسنًا، أو في جملة ما تستغفر الله منه إن كان قبيحًا. وبعد فليس كل من أوتي الصبر، وأعين بالجلد، وكان له من نفسه داع إلى الجفاء، ومجيب إلى الهجر، أكمل ذلك كله في البعد هن خلانه، والبراءة من خلصانه، والله الذي هو مالك همنا، والسابح في سرائرنا، لولا أنك أحلى من زلال الحياة إذا طابت، وأطيب من العيشة إذا لذت، وأعذب من الزلال على الحرة، وأدب في الضمائر من الخواطر، وأعلق بالعيون من النواظر، ما اهتززنا مشتاقين إليك، ولا ألهبنا متهالكين عليك، ولكنك الروح، والصبر عن الروح

معوز، والحياة والبقاء مع فقد الحياة معجز، فإن فاء بك رأيي في الانكفاء إلى أحداق طامحة نحوك، وهمم طائحة في الوجد بك، ومجالس خضرة نضرة بأحاديثك، ومسامع صاغية إلى لذيذ لفظك، وشهي جدك وهزلك، فتصدق علينا بنفسك إن الله يجزي المتصدقين.

سالم بن وابصة:

ونيرب من موالي السوء ذي حسد ... يقتات لحمي ولا يشفيه من قرم
داويت صدرًا طويلا غمره حقدًا ... منه وقلمت أظفارًا بلا جلم
كقنفذ الرمل ما تخفى مدارجه ... خب إذا نام عنه البوم لم ينم
ملازم لخداع ما يفارقه ... يبدي لنا الغش والعوراء في الكلم
كأن سمعي إذا ما قال محفظة ... أصم عنه وما بالسمع من صمم
حتى أطبى وده رفقي به ولقد ... نسيته الحقد حتى عاد كالحلم
إن من الحلم ذلا أنت عارفه ... والحلم عن قدرة صنف من الكرم

آخر:

فمن شاء رام الصرم أو قال ظالمًا ... لذي وده ذنب وليس له ذنب

آخر:

وهون وجدي أنه ليس واجدًا ... من الناس إلا قد أصيب بصاحب

آخر:

وما زال يدعوني إلى الهجر ما أرى ... فإني وتثنيني عليك الحفائظ
وأنتظر العتبي وأغضي على القذى ... وأصبر حتى أوجعتني المغائظ

آخر:

ولي صـــديق عـــدمت عقـــلي ... إن قلـــت إني لـــه صـــديق
مـــا نلتقـــي في الزمـــان حتـــى ... يجمـــع مـــا بيننـــا الطريـــق

آخر:

نـشدتك بالبيـت الـذي طـاف حولـه ... رجـال بنـوه مـن لـؤي بـن غالـب
فإنـك قـد جربتنـي هـل وجـدتني ... أعينـك في الجـلى وأحميـك جـانبي
وإن معـشر دبـت إليـك عـداوة ... عقـاربهم دبـت إلـيهم عقـاربي

آخر:

مـــن لم يـــردك فـــلا تـــرده ... لـــتكن كمـــن لم تـــستفده

آخر:

إذا كنـــت تحـــصي ذنـــوب الـــصـ ... ـــديق وتنـــسى ذنوبـــك بالواحـــده
فإنـــك أنبـــل أهـــل الـــز ... مـــان طـــرًّا عـــلى هـــذه القاعـــده

وكتب بعض آل ثوابه إلى صديق له:

فصل

فأما ما أشرت به من معاتبة أبي فلان، واستقبحته من سيرته في بعض نقض العهد، وتضييع الود فالناس يا أخي أصدقاء الحال يتصرفون بتصرفها، ويحولون بحولها، والحزم أن يؤخذ صفوهم، ويقبل عفوهم، ولا يعاتبوا على هفوتهم، والله يعلم أني لكل من وادت على حب واف، وميل صاف، وإخلاص شاف.

وكتب أيضًا هذا الكاتب إلى آخر:

فصل

وددتنا أعزك الله، فأحسنت ظاهر التودد، ولاقيتنا فعمرت الحال بالتفقد، ثم أخذت بوثائق الصرمة والجفوة، وخليت عن علائق الصلة والمبرة، حتى كأن ما أسلفته كان حلمًا، وما استأنفته كان غنمًا، فإن قلت: إن الشغل بالسلطان، والتصرف مع الزمان، عاقاك عن جميل العادة، وقضي حق السلام والعيادة، فقد كان لك في الرسول فسحة، وبالكتاب بالعذر حجة، وكان الأولى أن تربط وشل ثقتنا بك، وتميط سيئ ظننا عنك، وتجعلنا في حيز السكون إليك، ونحن نرجو أن تستقبل الإعتاب، وتستهجن هذا الكاب، وتراجع فينا ما أنت أولى به من الصواب، إن شاء الله.

وكتب أيضًا:

فصل

حقوقك مفترضة، وثقتي بك مستحكمة، وربما كانت الصلة في إظهار ضدها، وكان بادئ الجفوة أبقى للحال، وأعمر لها، وما أحسبني أحتاج إلى زيادة في علمك بما أنت عليه قديمًا وحديثًا من ودك، زاد الله في مننه ونعمه عندك.

وكتب أيضًا:

فصل

أنا أجري مجرى أوليائك، ومن لبس الضافي من نعمائك، فإن زرتك لم أوجب عليك حقًّا بمواصلة، وإن أغببتك، لم أخف منك حيفًا ولا لائمة، فالحمد لله الذي جعلني بهذه المنزلة في المتحققين بك، والثقة بفضلك.

شاعر:

أخشى القطيعة بيننا وأظنها ستكون إن دمنا على الهجران
وأرى اللجاجة غير شك ربما قطعت شوابك حرمة الخلان

وكتب الكاتب الأول أيضًا:

فصل

أنا واحد منكم أهل البيت، داخل في جملتكم، وجاري مجرى لحمتكم، فإن شملتكم نعمة، شركتكم في التجمل بها، وإن تجددت لكن دولة تجاوزتكم في الابتهاج بها، وإن وقفت بكم حال تصريف معكم فيها، ومن كان بهذه المنزلة في المشابكة والممازجة لم يخش منكم إذا غاب نقمة، ولا إذا حضر جفوة، ولا إذا قصر محاسبة، فالحمد لله الذي أخلصني لكم، وجعلني على ثقة بكم، لا يضيق بي عندكم عذر بما لا يجب لي عليكم شكر.

شاعر:

عدوك ذو العقل خير لك من الصديق الوامق الأحمق
فما أحكم الرأي مثل امرئ يقيس بما قد مضى ما بقي

آخر:

لا أسمع الدهر جليسي الأذى ... إن لساني عن جليسي كليل
إن خليلي واحد وجهه ... وليس ذو الوجهين لي بالخليل

شاعر:

أبني إن سعادة ... بالمرء طاعة ذي التجارب
خذ من صديقك ما صفا ... لك لا تكن جم المعاتب
وإذا منيت بجاهل ... فاحضر بحلم غير عازب
ما نال غنمًا ذو السفاه ... ولا أخو حلم بخائب
واشرب على الأقذاء ملتمسًا ... بها صفو المشارب
واشكر فإن الشكر محتوم ... على الإنسان واجب
ما خير من لا يشكر النعمى ... وينصر في النوائي

آخر:

وإذا وصلت بعاقل أملا ... كانت نتيجة قوله فعلا

آخر:

وكيف يسود المرء من هو مثله ... بلا منة منه عليه ولا يد
إذا لم يكن للمرء عقل ولم يكن ... يدافع عن إخوانه لم يسود

آخر:

أعاتب إخواني وأبقي عليهم ... ولست بمستبق أخًا لا أعاتبه

آخر:

ولست برائي عيب ذو الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين لرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

آخر:

أصافي خليلي ما استقام بوده ... وأمنحه ودي إذا يتجنب
ولست بعاد صاحبي بقطيعتي ... ولا أنا مفش سره حسن أغضب

آخر:

فانظر لنفسك من يحبك بين أطراف الرماح
من لا يسؤك لسانه بالعيب أن يلحاك لاح

آخر:

أرضى عن المرء ما أصفى مودته ... وليس شيء مع البغضاء يرضيني
ليس الصديق بمن تخشى غوائله ... ولا العدو على حال بمأمون

آخر:

ولاق ببشر من لقيت تكن له ... صديقًا وإن أمسى مغبًّا على حقد

آخر:

ما لي صديق من يواصلني ... في اليسر ثم يصد في العسر
اغفر ذنوب أخيك ما قصرت ... دون الحوائج فارض باليسر

آخر:

لا تفشِ سرًّا إلى غير الصديق ولا ... إلى المشيع له يومًا إذا عتبا
قد يحقر المرء ما يهوى فيركبه ... حتى يكون إلى توريطه سببا
شر الأخلاء من كانت مودته ... مع الزمان إذا ما خاف أو رغبا
إذا وترت امرءًا فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

آخر:

ليس الصديق الذي يعطيك شاهده ... شهد الوداد وخان الغيب غائبه

وقال عبيد بن الأبرص:

قد يوصل النازح النائي وقد ... يقطع ذو السهمة القريب

آخر:

تلوم على القطيعة من أتاها ... وأنت شببتها في الناس قبلي

آخر:

قد فرق الله بين شيمتنا ... في كل أمر فكيف نأتلف

قال جعفر بن محمد -رضي الله عنهما-: من أفطر من أجل أخ له، ثم لم يمنن عليه عدل له ذلك بصيام شهر.

وقال الحسن البصري: لا ينظر الله إلى من بذل الود لأخيه حتى ائتمنه ثم انطوى له على غل.

شاعر:

وأخ إن جـــــاءني في حاجـــــة كـــان بالإلحـــاح منـــي واثقًـــا
وإذا مـــــا جئتـــــه في حاجـــة كـــان بـــالرد بـــصيرًا حاذقـــا
يعمـــل الفكـــرة لي في الـــرد مـــن قبـــل أن أبـــدأ فيهـــا ناطقـــا

آخر:

أراك مـــع الأعـــداء في كـــل مـــوطن وقلبـــك مـــن ضـــغن عـــلي مـــريض
ومـــا بي مـــن فقـــر إلى أن تحبنـــي ومـــا ضرني أني إليـــك بغـــيض

وقال ابن عباس: العاقل الكريم صديق كل أحد، إلا من ضره، والجاهل اللئيم عدو لكل أحد إلا من نفعه.

وقال آخر:

لنـــا صـــديق مـــبغض لـــلأدب إخوانـــه مـــن جهلـــه في تعـــب
يغـــضب حينًـــا عنـــد حـــد الرضـــا نوكًـــا ويـــرضى عنـــد حـــال الغـــضب
كأنـــه مـــن ســـوء تأديبـــه أســـلم في كتـــاب ســـوء الأدب

آخر:

الحمـــد لله عامـــل الـــصدقه كـــان صـــديقًا فقـــد لـــوى عنقـــه

آخر:

يـــا صـــديقي مـــا كنـــت لي بـــصديق إنـــما كنـــت للزمـــان صـــديقا

قال بعض السلف: أحق الناس بأن يتقى: العدو القوي، والصديق المخادع، والسلطان الغشوم.

شاعر:

إذا عدوك لم يظهر عداوته ... فما يضرك إن عاداك أشرار

وقال رجل لعمر بن الخطاب: والله إني لأحبك في الله، قال: لو كنت كما تقول لأهديت إلي عيوبي.

وقال أعرابي: السؤال عن الصديق أحد اللقائين.

شاعر:

من لم يكن ذا صديق ... يفضي إليه بسره
ويستريح إليه ... في خير أمر وشره
فليس يعرف طعمًا ... لحلو عيش ومره

آخر:

وأبيض قد صادفته فدعوته ... إلى بدوات الأمر حلو شمائله
أخي ثقة إن أبتغ الجد عنده ... أجده ويلهيني إذا شئت باطله
وإني لمعراض عن المرء بعدما ... يبين وتبدو لو أشاء مقاتله

آخر:

أغيب عنكم بود لا يغيره ... طول البعاد ولا ضرب من الملل

آخر:

ولا يلبث الحبل الضعيف إذا التوى وجاد به الأعداء أن يتخذما

قال الحسن البصري: ليس من المروءة أن يربح الرجل على أخيه.

وقال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره اثنين، ولا يستأثر دون أخيه بورق ولا عين.

وقال الحسن: لأن أقضي لأخ من إخواني حاجة أحب إلي من أن أصلي ألف ركعة.

وقال الحسن: ما تحاب اثنان ففرق بينهما إلا ذنب يحدثه أحدهما.

وقال الحسن: لا تشتر مودة ألف بعداوة واحد.

وقال الشاعر:

إذا ما امرؤ ولى علي بوده وأدبر لم يهدر بإدباره ودي

قيل لأعرابي: كيف ينبغي أن يكون الصديق؟ قال: مثل الروح لصاحبه، يحييه بالتنفس، ويمتعه بالحياة ويريه من الدنيا نضارتها، ويوصل إليه نعيمها ولذتها.

وأخبرنا ابن مقسم العطار النحوي، قال: أنشدنا ثعلب لأعرابي:

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامني قطيعتها تلك السفاهة والظلم
ويسعى إذا أبني ليهدم صالحي وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم

يحـــاول رغمـــي لا يحـــاول غـــيره ... وكـالموت عنـدي أن يـسوغ لـه الـرغم
فـإن أنتـصر منـه أكـن مثـل رائـش ... ســهام عــدو يــستهاض بهــا العظــم
وإن أعـف عنـه أغـض عينًـا عـلى قـذى ... ولـيس لـه بالـصفح عـن ذنبـه علـم
فـــما زلـــت في لـــين لـــه وتعطـــف ... عليـــه كـــما تحنـــو عـــلى الولـــد الأم
لأســتل ذاك الــضغن حتــى اســتللته ... وقـد كـان ذا ضـغن يـضيق لـه الحـزم
فـداويت منـه الحقـد والمـرء قـادر ... عـلى سـهمه مـا دام في كفـه الـسهم

وقلت لابن برد الأبهري، وكان من غلمان ابن طاهر: من الصديق؟ قال: من سلم سره لك، وزين ظاهره بك، وبذل ذات يده عند حاجتك، وعف عن ذات يدك عند حاجته، يراك منصفًا وإن كنت جائرًا، ومفضلا وإن كنت ممانعًا، رضاه منوط برضاك، وهواه محوط بهواك، إن ضللت هداك، وإن ظمئت أرواك، وإن عجزت آداك، يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك في القسم والوسم. قلت: أما الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز، قال: إنما عز هذا في زمانك حين خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق، واستعمل النفاق في الوفاق، وخيف الهلاك في الفراق، والله لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أصدقاء ينطوون له على مودة أذكى من الورد والعنبر، إذا لحظهم بطرفه تهللوا، وإذا ناقلهم بلفظه تدللوا، وإذا تحكم عليهم تعجلوا، وإذا أمسك عنهم نولوا وخولوا، وكان يجدون به ما لا يجدون بأهليهم وأولادهم، رحمة الله عليهم، فلقد كانوا زينة الأرض، في كل حال من الشدة والخفض، وإني لأذكرهم فأجد في روحي عبقًا من حديثهم، قلت: كيف كان انبساطهم في الاجتماع؟ قال: ما كانوا يتجاوزون الليلة الحلوة، والمزح الخفيف، واللفظ اللطيف، والرمز الرشيق، والتبسم المقبول، وإذا افترقوا فإنما هم في اهتمام يعود بنظام عيشهم، وتدوم لهم مسرة حياتهم، الكلمة واحدة، والطريقة واحدة، والإرادة واحدة،

والعادة واحدة، والوحدة إذا ملكت الكثرة نفت الخلاف، وأورثت الائتلاف، ثم تكلم في الوحدة والواحد والأحد بكلام في غاية الرقة، مع الإيضاح، ولولا أن هذا الموضع يجفو عنه لرسمته فيه، ولكن قد قيل لكل مقام مقال، ولكل فعل أوان، وفي حفظ الحدود استمرار الموجود، على ما هو به موجود.

وأنشد لعبد الله بن طاهر:

وما المرء إلا اثنان هذا موكل ... بما يعجب الإخوان إن قال أو فعل
فينزل محمودًا إذا حل منزلا ... ويرحل مفقودًا إذا قيل قد رحل
فأما الذي لا خير فيه فإنه ... وإن أطعم السلوى وألعق من عسل
يذيب عن لحم العدو مخافة ... ويأكل من لحم الصديق إذا آكل
وما قلبه إلا وعاء معطل ... من الود محشو من الغل والدغل
ومن قل منه الود للناس لم ينل ... من الناس إلا مثل ذلك أو أقل

قيل لأبي السائب: ما آفة الملال؟ قال: كثرة الإدلال.

وقيل لابن أبي عتيق: ما يدعو المحب إلى الهجر؟ قال: إدمان المحبوب للغدر.

لما انتقل ابن المنجم عن جيرة عبيد الله بن طاهر إلى دار إسحاق بن إبراهيم الموصلي كتب عبيد الله إليه أبياتًا:

ما من تحول عنا وهو يألفنا ... أبعدت عنا ولأيًا صرت تلقانا
فاعلم بأنك مذ فارقت جيرتنا ... بدلت جارًا وما بدلت جيرانا

فكتب إليه ابن المنجم:

بعدت عنكم بداري ودون خالصتي ... ومحض ودي وعهدي كالذي كانا
وما تبدلت مذ فارقت قربكم ... إلا همومًا أعانيها وأحزانا
وهل يسر بسكنى داره أحد ... وليس أحبابه للدار جيرانا

آخر:

كن بالتحفظ من كل من عرفت ... فقد يصير عدوًا من كان يومًا صديقا

آخر:

يخرج أسرار الفتى جليسة ... رب امرئ جاسوسه أنيسه

وقال الحارني: الجليس الصالح، كالسراج اللائح، والجليس الطالح، للمرء فاضح، مجالسة الأشكال تدعو إلى الوصال، ومجالسة الأضداد تذيب الأكباد.

وقال النبي -صلى الله عليه وآله-: «مثل الجليس الصالح كمثل الداري إن لا يجدك من عطره، يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لا يحرقك بشرره، يؤذك بدخانه».

شاعر:

خليلي للبغضاء حال مبينة ... وللحب آيات ترى ومعارف

آخر:

إذا كنت تغضب من غير جرم ... وتعتب من غير عتب عليا
عددتك ممن حوته القبور ... وإن كنت ألقاك في الناس حيا

آخر:

إن المـــرء أعـــراه الـــصديق بـــدا لـــه ... بـأرض الأعـادي بعـض ألوانهـا الربـد

آخر:

أحـب الفتـى ينفـي الفـواحش سـمعه ... كـــأن بـــه عـــن كـــل فاحـــشة وقـــرا
سـليم دواعـي الـصدر لا ناشـطًا أذى ... ولا مانعًـــا خـــيرًا ولا قـــائلا هجـــرا
إذا مـا أتـت مـن صـاحب لـك زلـة ... فكـــن أنـــت محتـــالا لزلتـــه عـــذرا
غنـى الـنفس مـا يكفيـك مـن سـد خلـة ... فـإن زاد شـيئًا عـاد ذاك الغنـى فقـرا

آخر:

وأنـــت امـــرؤ إمـــا ائتمنتـــك خاليًـــا ... فخنـت وإمـا قلـت قـولا بـلا علـم
فأنـت مـن الأمـر الـذي كـان بيننـا ... بمنزلـــة بـــين الخيانـــة والإثـــم

آخر:

لعمـــرك مـــا أدري وإني لأوجـــل ... عـــلى أينـــا تغـــدو المنيـــة أول
وإني أخـوك الـدائم العهـد لم أخـن ... إن أبـزاك خـصم أو نبـا بـك منـزل
أحـارب مـن حاربـت مـن ذي عـداوة ... وأحـبس مـا لي إن غرمـت فأعقـل
وإن سـؤتني يومًـا صـفحت إلى غـد ... ليعقـب يومًـا منـك آخـر مقبـل
كأنـك تـشفي منـك داء مـساءتي ... وسـخطي ومـا في ريبتـي مـا تعجـل
وإني عـلى أشـياء منـك تريبنـي ... قـديمًا لـذو صـفح عـلى ذاك مجمـل
سـتقطع في الـدنيا إذا مـا قطعتنـي ... يمينـك فـانظر أي كـف تبـدل
وفي النـاس إن رثـت حبالـك واصـل ... وفي الأرض عـن دار القـلى متحـول
إذا أنـت لم تنـصف أخـاك وجدتـه ... عـلى طـرف الهجـران إن كـان يعقـل

ويركب حد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل
وكنت إذا ما صاحب رام ظنتي ... وبدل سوءًا بالذي كنت أفعل
قلبت له ظهر المجن فلم أدم ... على ذاك إلا ريث ما أتحول
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تقبل

آخر:

فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معًا ... كفى بالمرات فرقة وتنائيًا

آخر:

أفاطم أعرضي قبل المنايا ... كفى بالموت هجرًا واجتنابا

آخر:

لا تطلبن الود من متباعد ... ولا تنأ من ذي بغضة إن تقربا
فإن القريب من يقرب نفسه ... لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

آخر:

لعمرك ما أبقى لي الدهر من أخ ... حفي ولا ذي خلة أواصله
ولا من خليل ليس فيه غوائل ... وشر الأخلاء الثير غوائله

النمر بن تولب:

أحب حبيبك حبًّا رويدًا ... فقد لا يعولك أن تصرما
وأبغض بغيضك هونًا رويدًا ... إذا أنت حاولت أن تحكما

آخر:

لقد عجبت وما بالدهر من عجب ... يد تشح وأخرى منك تأسوني

آخر:

أتيت أنادي الدهر جد لي بصاحب ... وخل طلاب الدهر ما أنا طالب
فما جاء لي منه بغير مجانب ... وآخر خير منه ذاك المجانب
أخلائي أمثال الكواكب كثرة ... وما كان ما يرمى به الأفق ثاقب
بلى كلهم مثل الزمان تلونًا ... إذا سر منه جانب ساء جانب

آخر:

ومن البلاء أخ خيانته ... علق بنا ولغيرنا نشبه

آخر:

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر ... من الود قد بالت عليه الثعالب
فأصبح نابي الود بيني وبينه ... كأن لم يكن والدهر جم العجائب

آخر:

تكاشرني كرهًا كأنك ناصح ... وعينك تبدي أن صدرك لي دوي
لسانك ماذي وغيبك علقم ... وشرك مبسوط وخيرك منطوي

آخر:

كم من صديق لنا أيام دولتنا ... قد كان يمدحنا فصار يهجونا

آخر:

دعني أواصل من قطعت ... تراه بي إذ لا يراكا
إني متى أحقد لحقدك ... لا أضر به سواكا
وإذا أطعتك في أخيك ... أطعت فيه غدًا أخاكا

حتـــــــى أرى متقـــــــسمًا يومًـــا لـــذا وغـــدًا لـــذاكا

آخر:

يـا صـديقي بـالأمس صرت عـدوًا ســـؤتني ظالمًـــا ولم ترســـوا
كلـما ازددت لـك في الحـب تـ زيـــدت نبـــوة وعتـــوا

آخر:

مـــــا لي بحائجـــــة أرادني الزمـــــان بهـــا يـــدان
لمـــا بلغـــت مكـــاني فيـــك بلغـــت في مـــدى الزمـــان
ونـــصبتني غرضًـــا يبـــيح دمـــي ولحمـــي مـــن رمـــاني
هـــذا جـــزاء مقـــدماتي إذ أكـــون ولـــيس ثـــاني
وعـــدا عـــلي بـــك الزمـــان مـــذربًا نحـــوي لـــساني

آخر:

هبنـــي أســـأت كـــما زعمـــت فـــأين عاقبـــة الأخـــوه
فـــإذا أســـأت كـــما أســـأت فـــأين فـــضلك والمـــروه

أخبرنا المرزباني، حدثنا الصولي، حدثنا أحمد بن يزيد المهلبي، حدثنا هبة الله بن إبراهيم بن المهدي قال: كتب أبي إلى بعض من عتب إليه في شيء: لو عرفت الحسن لتجنبت القبيح، ولو استحليت الحلم لاستمررت الخرق، وأنا وأنت كما قال زهير:

وذي خطـل بـالقول يحـسب أنـه مـصيب فـما يلمـم بـه فهـو قائلـه
عبـأت لـه حلمـي وأكرمـت غـيره وأعرضـت عنـه وهـو بـاد مقاتلـه

وإن من إحسان الأهل إلينا، وإساءتك إلى نفسك أنا أمسكنا عما تعلم، وقلت ما لا تعلم، وتركت الممكن، وتناولت المعجز، فالحمد لله الذي أوضح غدرك، وأبان أمرك، وقبح عند الناس ذكرك.

وقال أعرابي: نصح الصديق تأديب، ونصح العدو تأنيب.

شاعر:

وتطرف الكف عين صاحبها فلا يرى قطعها من الرشد

قال أبو سعيد السيرافي فيما سمعته منه: الصديق يكون واحدًا وجمعًا ومذكرًا ومؤنثًا. قال المرواني وكان حاضرًا: هذا والله من شرف الصديق، قلت: ما نزيغ بهذا، قال: أما ترى هذا المثال كيف عم هذه الأشياء المختلفة حتى تكون صورة الصديق محفوظة فيها، وملحوظة منها، ولذلك قال الله تعالى: {أو صديقكم} فأخرجه مخرج الواحد، وهو يريد الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

أخبرنا أبو السائب القاضي عتبة بن عبد الله، حدثنا الحسن بن عروة، حدثنا محمد بن عبد الله القرشي، حدثنا محمد بن عبد الله الأشكري عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر -رضي الله عنهما- قال: أوصاني أبي قال: يا بني لا تصحب فاسقًا فإنه بائعك بأكلة فما دونها، قلت: وما هو دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا تصحب بخيلا فإنه يقطع بك في مالك أحوج ما تكون إليه، ولا تصحب كذابًا فإنه بمنزلة السراب يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب، ولا تصحب أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا

تصحب قاطع رحم فإني وجدته ملعونًا في ثلاثة مواضع من كتاب الله: في سورة البقرة، وسورة الرعد، وسورة الذين كفروا.

وقال ابن أبي خازم الشاعر الجاهلي:

وكن من الإخوان مستوحشًا وحشة إنسي بجنان

أخبرنا الصواف أبو علي، حدثنا ابن المؤمل، قال: سمعت موسى بن جعفر يقول: خير إخوانك المعين لك على دهرك، وشهم من سعى لك بسوق يومه.

وقال بعض السلف الصالح: خير إخوانك من وعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه. قلت لبرهان الصوفي: ما تفسير هذا؟ قال: لأنك إذا رأيته رأيت هيأته، وشارته، وحركته، ونظرته، وقومته، وقعدته، وهذه كلها نواطق، ولكن بلا حروف، وشواهد ولكن بلا لفظ، وإشارات ولكن بلا أدوات، وأما إذا جاء الكلام فقد استوعب أقصى البيان، وأتى على آخر الإرادة، فأراد هذا القائل أنه إذا أراك نفسه فقد حضك على اتباع أمه، ودعاك إلى الاقتداء به، وأن تحرج من مسكه، وتبرز من تبيانه، فهذا كلام في غاية الإيضاح.

قال محمد بن علي -رضي الله عنهما-: كفى بالله ناصرًا أن ترى عدوك يعصي الله فيك وتطيعه.

قال أنس: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله-: «ما تحاب رجلان إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه، هذا أخبرنا به المرزباني عن ابن السراج عن المبرد عن الرياشي عن أبي عاصم عن مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس.

قال رجل من العباد لعابد آخر: إني لأحبك في الله، قال: أعوذ بالله أن أكون ممن يحب في الله والله علي ساخط.

وقالت امرأة لرابعة العدوية: إني لأحبك في الله، قالت: فأطيعي من أحببتني فيه، قالت: من طاعتي له محبتي لمن أطاعه.

أخبرنا ابن مقسم النحوي قال: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمر بن شبة، حدثنا الأصمعي، قال: وقف أعرابي يسأل فقال: أخ في تلاد الله وجار في بلاد الله، وطالب خير من فضل الله، فهل من أخ يواسي في ذات الله؟ قال ابن السراج: التلاد: المال الذي لم يكتسب، سمعته من علي بن عيسى عنه.

قال أبو الدرداء: ما أنصفنا إخواننا، يحبوننا في الله، ويفارقوننا في الدنيا، إذا لقيني قال: أحبك يا أبا الدرداء، وإذا احتجت إليه في شيء امتنع مني.

قيل للأوزاعي: أيبلغ من حب الرجل لأخيه أن يكون أحب إليه من أخيه لأمه وأبيه؟ قال: نعم ومن أمه وأبيه!

شاعر:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًا ما من صداقته بد

سمعت العسجدي يقول وقد أنشد هذا البيت: فما الحيلة إذا كان المخلص لا يوجد، والمرائي لا يفقد، والحاجة قائمة إلى التعاون، والتعاون مورث للتهاون، والتهاون باعث على الكلام، والكلام بين العتب والاستزادة، والتظلم والاستراحة، ثم قال: لا حيلة إلا الصبر، فإن فساد دخائل الإخوان مضموم إلى جميع حوادث الزمان، والله المستعان.

وقال المهلبي لبني أمية:

مهـــلا بنـــي عمنـــا مهـــلا موالينـــا امـــشوا رويـــدًا كـــما كنـــتم تكونونـــا
الله يعلـــــم أنـــــا لا نحـــــبكم ولا نلـــــــومكم أن لا تحبونـــــــا

وأنشدنا أبو السائب القاضي قال: أنشدني محمد بن يزيد لنفسه:

بنفـسي أخـي بـر شـددت بـه أزري فألقيتـه حـرًا عـلى العـسر واليـسر
أغيـــب فـــلي منـــه ثنـــاء ومدحـــة وأحـضر منـه أحـسن القـول والبـشر

وكتب أبو النفيس إلى العباداني: سبحان من لم يغنك عنا حتى سلانا عنك، ولا شغلك بغيرنا حتى عوضنا منك، ولا خار لنا في بعدك، حتى صنع لنا في فقدك، ولا هون عليك الوجد بنا حتى خفف عنا الموجدة عليك، ولا حظر عليك وصلنا حتى أباح لنا هجرك، ولا سهل عندك الرزء بنا حتى رفع عنا المصيبة فيك.

وكتب أيضًا: أخت هذه الحمد لله الذي لم يزين لك الكفر بحرمتنا حتى حسن عندنا الشرك في صحبتك، ولا طوى عنا بساط قربك حتى أسبل علينا سجاف بعدك، ولا علق حبلك بغيرنا حتى كفانا مئونة عتبك، ولا خوفك بالرغبة عنا حتى أمننا بالزهد فيك، ولا دمس جيبك بالأسف علينا حتى طهر قلوبنا من الشوق إليك، ولا سقاك صفو الهجر حتى أروانا بزلال الصبر، ولا أوسع لك في الانحراف عنا حتى أوضح لنا العذر في الانصراف عنك، ولا أذكرك قبح الجفاء حتى أنسانا خالص الصفاء، ولا عراك من يمن الإجماع حتى ألبسنا حبرة الإفراق، فدم على هجرنا فقد استبدلنا بك، وسل عنا فقد تعزينا عنك والسلام.

شاعر من بني أسد:

وأستنقذ لمولى من الأمر بعدما ... يزل كما زل البعير عن الدحض

آخر:

وإني لأنسى عند كل حفيظة ... إذا قيل مولاك احتمال الضغائن

وإن كان مولى ليس فيما ينوبني ... من الأمر بالكافي ولا بالمعاون

آخر:

ومولى خفت عنه الموالي كأنه ... من البؤس مطلي به القار أجرب

رئمت إذا لم ترأم البازل ابنها ... ولم يك بها للمبسين محلب

آخر:

تثاقلت إلا عن يد أستفيدها ... وخلة ذي ود أشد به أزري

وقال ساعدة الهذلي: ولا أوذي الصديق بما أقول.

قال أبو زيد في الأمثال: رب أخ لك لم تلده أمك.

وقال أيضًا: أخي خذلة وأنا عذلة وكلانا ليس بابن أمه.

وقال أيضًا: الصبي أعلم بمبضعي جده.

وقال أيضًا: النفس تعلم من أخوها النافع.

وقال:

القوم إخوان وشتى في الشيم ... وكلهم يجمعهم بيت الأدم

وقال بعض السلف: من علامات العاقل بره بإخوانه، وحنينه إلى أوطانه، ومداراته لأهل زمانه.

وقال شاعر:

لعمـــرك إني الخليـــل الـــذي لـــه عـــلي دلال واجـــب لمفجـــع
وإني بـــالمولى الـــذي لـــيس نـــافعي ولا ضـــائري فقدانـــه لمتـــع
أولئـــك إخـــوان الـــصفاء رزئـــتهم ومـــا الكـــف إلا إصـــبع ثـــم إصـــبع

والعرب تقول:

خـــل طريـــق مـــن وهـــي ســـقاؤه ومـــن هريـــق بـــالفلاة مـــاؤه

وقال أعرابي: الصديق للظهر سناد، وللدهر عتاد، ولليوم جمال، وللغد مال.

وقال شاعر:

إن كنـــت تطلـــب في الزمـــان مهـــذبًا فنـــي الزمـــان وأنـــت في الطلبـــات
خـــذ صـــفو أخـــلاق الـــصديق وأعطـــه صـــفوًا ودع أخلاقـــه الكـــدرات

قال ابن المعتز: إذا صحت النية، وتوكدت الثقة سقطت مئونة التحفظ.

أخبرنا ابن مقسم قال: قرأت على أحمد بن يحيى أنشدنا ابن الأعرابي:

إذا أحـــسن ابـــن العـــم بعـــد إســـاءة فلـــست لـــشري فعلـــه بحمـــول

أي إذا أحسن وأساء لا أحمل عنه الشر؛ أي: لم أؤاخذه، وأراد بالشر فعليه فقلب.

وقال آخر: صحبة الأشرار، تورث سوء الظن بالأخيار.

سدوس بن ذهل اليربوعي:

إذا مـــا امـــرؤ ولى غنيًّـــا بـــوده وأدبـــر لم يـــصدر بإدبـــاره وقـــر

ولبنى هذيل مثل وهو: هذا التصافي، ولا تصافي المحلب، أصله أن هذيلا أصابت دمًا في بعض العرب، فأسر أصحاب الدم رجلين من هذيل متصادقين، فقالوا لهما: أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا؟ فقال كل واحد مهما: أنا ابن فلان الحسيب النسيب، ذو الثأر المنيم، فاقتلوني دون صاحبي، فكل بذل نفسه للقتل دون صاحبه، فعيوا بأمرهما لما رأوا من تأبيهما فقالوا: هذا التصافي لا تصافي المحب، وصفحوا عنهما، أي لا تصافي للنادمة على الشراب.

وروى يعقوب قول نابغة بني جعدة:

أدوم عـــلى العهـــد مـــا دام لي إذا كـــذبت خلـــة المحلـــب

آخر:

أخ لي أمـــا كـــل شيء ســـألته فيعطـــي وأمـــا كـــل ذنـــب فيغفـــر

آخر:

كـــان لنـــا صـــاحب فبانـــا وحـــاد عـــن وصـــلنا وخانـــا
تـــاه علينـــا وتـــاه منـــا فـــما نـــراه ولا يرانـــا

وقال أعرابي: المودة قرابة مستفادة.

شاعر:

أخ لـــك لا تغـــيره الليـــالي ولا الأيـــام عـــن خلـــق جديـــد

وقال أعرابي: وصول معدم خير من جاف مكثر.

وقال محمد بن سليمان لابن السماك: بلغني عنك شيء، فقال: لست أبالي، قال: ولم؟ قال: فإن كان حقًّا غفرته، وإن كان باطلا رددته.

وقال أعرابي: اللّٰهم إني أعوذ بك من سلطان جائر، ونديم فاجر، وصديق غادر، وغريم ماكر، وقريب ناكر، وشريك خائن، وحريف مائن، وولد جاف، وخادم هاف، وحاسد محافظ، وجار ملاحظ، ورفيق كسلان، وجليس وسنان، ووكيل ضعيف، ومركوب قطوف، وزوجة مبذرة، ودار ضيقة.

شاعر:

فلا تعتقد خلا يسرك بعضه وإن غاب يومًا عنك ساءك كله
إذا شئت أن تبلو امرءًا كيف طبعه فدعه وسل من قبلها كيف أصله

شاعر، ويقال أنه لعمارة بن عقيل:

ألم ترني والمرء ابن أمه إذا ما أتت عوجاء لا تتقوم
ضممت جناحي عن أبي النضر بعدما تلومته ما كان لي متلوم
وقلت له لما التقينا وقال لي مقالة مزر عائث يتجرم
أتعذلني في أن أبيعك مثل ما به بعتني والبادئ البيع أظلم
وليس على ود امرئ ليس عنده وفاء ولا عهد إذا غاب مندم

وقال ابن المقفع: لا صديق لثلاثة: للميت، والفقير، والمحبوس.

وسئل الجنيد الصوفي: من تصحب؟ قال: من قدر أن ينسى ماله ويقضي ما عليه.

شاعر:

ليت شعري ما كانت الحال بعدي ... أعلى العهد أم تكرهت ودي
أنا ذاك المسيئ والذنب ذنبي ... فاعف عني يا أكرم الناس عندي
لا يكون الغفران إلا لمولى ... وتكون الذنوب إلا لعبد

محمود الوراق:

لا تحدسن أخاك وارع له ... ه على الأيام عهده
حسد الصديق صديقه ... وأخاه من سقم المودة

شاعر:

وأول خير من صديق أفدته ... رجوعي بتسهيل الصديق حجابي
وأعرف ما لي عنده بغلامه ... وبالبشر منه عند رجع جوابي

آخر:

زرعت في القلب مني من مودتكم ... زرعًا تمكن في الأحشاء والكبد

آخر:

جزى الله عني صالحًا بوفائه ... وأضعف أضعافًا له في جزائه
أخًا لي إذا ما جئت أبغيه حاجة ... رجعت بما أبغي ووجهي بمائه
بلوت رجالا بعده بإخائهم ... فما ازددت إلا رغبة في إخائه

آخر:

تاه على إخوانه قاسم ... فصار ما يطرف من كبره
أعاده الله إلى حاله ... فإنه يحسن في فقره

آخر:

لم يبق في الناس حر ... ولا صديق يسر
وكل من ترتضيه ... عند المذاقة مر

آخر:

أكل هذا الجفاء يا حكم ... كذا يكون الإخاء والكرم
الحمد لله لا صديق لمن ... زلت به في زمانه القدم

آخر:

إذا كنت تأتي المرء توجب حقه ... ويجهل منك الود فالهجر أوسع

آخر:

تكثر الإخوان ما لم يخبروا ... وعلى الخبر قليل في العدد
لا تودن امرءًا لم تبله ... وانظرن بعد ابتلاء من تود
خالق الناس على أحسابهم ... لا يغرنك ثياب وجسد
رب محمود على الصورة قد ... نال ذمًّا وذميم قد حمد
فإذا الصورة والحمد معًا ... جمعًا يومًا لإنسان سعد
قل بحلم أودع القول فللصـ ... ـمت خير من مقال في فند
ودع المزح فيارب امرئ ... قاده المزح إلى ما لم يرد

شاعر:

إذا كان إعراض الفتى مثل أكله ... فذاك ضعيف الرأي مستجهل العقل
وليس بموثوق به في مودة ... ولا حسن رأي عند عقد ولا حل
فآخ صديق الصدق إنك إنه ... وإن هو نافى بالتخطط والشكل

يقال: أمور ليست لها ثبات منها: ظل الغمام، دخلة الأشرار، وثناء الكذابين، والمال الكثير يرثه الأحمق، ومودة النساء.

قال أكثم بن صيفي: العيش في سبعة أشياء: الولد البار، والزوجة الصالحة، والأخ المساعد، والخادم العاقل، والعافية السابغة، والقوت الكافي، والأمن الشامل.

شاعر:

إذا رأيت امرءًا في حال عسرته ... مصافيًا لك ما في وده دخل

فلا تمن له أن يستفيد غنى ... فإنه بانتقال الحال ينتقل

آخر:

لا تحمدن على الإخاء مؤاخيًا ... حتى تبين قدر غور إخائه

فتذم أو تختصه من بعد ما ... تبلو سريرته وصدق وفائه

شاعر:

إذا أنت شاجرت الرفيق فلِن له ... ومن خير من رافقت من لا تشاجره

كاتب: اشتريتك بالتنصل إذ بعتني بالتجني.

فيلسوف: لا تعدن من آخاك في أيام مقدرتك للمقدرة، واعلم أنه ينتقل عليك في أحوال ثلاثة: يكون صديقًا يوم حاجته إليك، ومعرفة يوم استغنائه عنك، ومتجنيًا ذنبًا يوم حاجتك إليه.

شاعر:

وشرك عن صديقك غير ناب ... وشرك عند منقطع الترات

شاعر:

فـانظر لنفـسك مـن تـصاحب مـنهم ... لـــيس الـــصحيح داؤه كـــالأجرب

شاعر:

إذا غبــت لم تنفــع صــديقًا وإن تقــم ... فأنــت عــلى مــا في يــديك ضــنين

آخر:

أبـــا هاشـــم لا فـــرق الله بيننـــا ... ففـي قـربكم أنـسي وفي بعـدكم حتفـي

شاعر:

الأخـــــلاء في الرخـــــاء كثـــــير ... فـــإذا مـــا بلـــوت كـــانوا قلـــيلا
وإذا مـــا أصـــبت خـــلا حفيظًـــا ... راعيًـــا للإخـــاء بـــرًا وصـــولا
فتمـــسك بحبلـــه أبـــد الـــدهر ... وأكـــرم بـــه أخـــا وخلـــيلا

قال الراجز:

إني وإن عيرتنـــــي نحـــــولي ... أو ازدريـــــت عظمـــــي وطـــــولي
لا أعجـــف الـــنفس عـــلى خلـــيلي ... أعـــرض بـــالود وبالتنويـــل

قال أبو زيد الأنصاري: يقال عجفت نفسي على المريض إذا صبرت عليه.

شاعر:

مـــذ بـــدا يخطـــر مـــا لم يـــرني ... وإذا يخلـــو لـــه لحمـــي رتـــع

آخر:

ورب امـــرئ تغتـــشه لـــك ناصـــح ... ومـــؤتمن بالغيـــب غـــير أمـــين

قال أبو زيد العذري:

وابل الرجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسمن أمورهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي الليانة والتقى ... فبه اليدين قرير عين فاشدد
ومتى يزل ولا محالة زلة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

آخر:

أحين تناهت بك المكرمات ... رميت بحبلي على غاربي
فما بال عينك مطروقة ... إذا ما رميت بها جانبي

شاعر:

أراك مع الأعداء في كل موطن ... وقلبك من ضغن علي مريض
وما لي من فقر إلى أن تحبني ... وما ضرني أني إليك بغيض

شاعر:

أما المزاحة والمراء فدعهما ... خلقان لا أرضاهما لصديق
إني بلوتهما فلم أحمدهما ... لمجاور جارًا ولا لرفيق

قال ابن عباس: ما من غرة إلا وعلى جانبها عرة، وما الذئب في فريسته بأسرع من ابن عم دني في عرض ابن عم سري.

قال الأصمعي: وقف أعرابي على قوم يعيبون رجلا من إخوانه. فقال: أبطئوا عن عيب من لو كان حاضرًا لسارعتم إلى مدحه.

شاعر:

إن شر الناس من يكشر لي ... حين يلقاني وإن غبت شتم

وكـــلام ســـيئ قـــد وقـــرت عنـــه أذنـــاي ومـــا بي مـــن صـــمم
لا تـــــراني راتعًـــــا في مجلـــــس في لحـــوم النـــاس كالـــسبع الـــضرم

قال المدائني: يقال: من رمى أخاه بذنب قد تاب منه ابتلاه الله به.

وقال عمر بن الخطاب: كفى بك عيبًا أن يبدو لك من أخيك ما يغني عليك من نفسك، أو تؤذي جليسك.

الأخطل:

إني تـــدوم لـــذي الـــصفاء مـــودتي وإذا تغـــــير كنـــــت ذا ألـــــوان
وأصـــد عـــن عيـــب الـــصديق تكرمًـــا عمـــدًا ومـــا دهـــري لـــه بهـــوان
وأفـــارق الخـــلان عـــن غـــير القـــلى وأميـــت بعـــض الـــسر بـــالكتمان

كاتب: ولعمري إن في الحق أن يقبل الاعتذار، ما لم يكن معه الإصرار، وأن لا تحمل المتستر بالصداقة على المكاشفة بالعداوة ما صلح ظاهره، وتصنعت سرائره.

وقال آخر: إخوان الشر كشجرة النار يحرق بعضها بعضًا.

وقال آخر: إنما سمي الصديق صديقًا بصدقه لك، وسمي العدو عدوًا لعدوه عليك، لو ظفر بك: وقال أيضًا: من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندمًا، ليكن الأنس أغلى أعلاق مودتك، وأبطأها عرضًا على صديقك.

وقال: علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب، ولا يبتدئ بكتاب.

وقال: إخوان السوء يتفرقون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوصل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والثقة، ثم يوكلون الأعين بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيرًا ستروه، وإن رأوا شرًّا وظنوه أذاعوه ونشروه.

وقال آخر: إنما تطيب الدنيا بمساعفة الإخوان ونفع بعضهم بعضًا في كل باب، وإلا فعلى الصداقة الدماء، وما أرجو إذا كانت تنقطع في الدنيا، ولا تتصل بما أحب في الدنيا.

شاعر:

أنت امرؤ قصرت عنه خليقته إلا من الغش للأدنين والحسد

حدثنا ابن مسرف قال: كان بين محمد بن السماك وبين رجل مؤاخاة

فانقطع عنه الرجل، فكتب إليه ابن السماك: أما بعد: فإن لكل شيء ثمرة، وثمرة المودة الزيارة والسلام. وكتب إليه في آخره:

لقد ثبتت في القلب منك مودة كما ثبتت في الراحتين الأصابع

فأجابه الرجل: أما بعد يا أخي فقد زرعت في قلوبنا مودتك، فتعهد زرعك بسقي الماء، وإلا فلا تأمن، والسلام.

شاعر:

صديقك حين تستغني كثير وما لك عند فقرك من صديق

فلا تغضب على أحد إذا ما طوى عنك الزيارة عند ضيق

آخر:

إذا المـرء لم يبـذل لـك الـود مقـبلا مـدى الـدهر لم يبـذل لـك الـود مـدبرا

آخر:

أقـام معـي مـن لا أحـب جـواره وجـاراي جـارا الـصدق مـرتحلان
ولا يـستوي الجـاران جـار مكـارم وجـار طويـل العمـر دون مجـاني

آخر:

أعاتـب لـيلى إنـما الـصرم أن تـرى خليلـك يـأتي مـا أتـى لا تعاتبـه
ومـا أهـل لـيلى مـن خليـل فينفعـوا ومـا أهـل لـيلى مـن عـدو نجانبـه

قيل للإسكندر: بما نلت هذا الملك على حداثة السن؟ قال: باستمالة الأعداء، وتعهد الأصدقاء.

وقال آخر: العتاب حدائق المتحابين، وثمار الأوداء، ودليل على الضن بالصفاء، وحركات الشوق، ومستراح الواجد، ولسان الإشفاق.

وقال آخر: التجني رسول القطيعة، وداعي القلى، وسبب السلو، وأول التجافي، ومنزل التهاجر.

وقال آخر: من عاشر الناس بالمسامحة دام استمتاعه بهم.

شاعر:

وكنـت إذا صـحبت رجـال قـوم صـحبتهم وثبتنـي الوفـاء
فأحـسن حـين يحـسن محـسنوهم وأجتنـب الإسـاءة إن أسـاءوا
وأبـصر مـا يعيـبهم بعـين عليهـا مـن عيـونهم غطـاء

آخر:

إني رأيتك لي محبًّا ... وإلي حين أغيب صبا
فهجرت لا لملالة ... حدثت ولا استحدثت ذنبا
لكن لقول قد مضى ... من زار غبًّا زاد حبًّا
الله يعلم أنني ... لك أخلص الثقلين قلبا

وقال جحظة فيما حدثنا ابن سيف، كتب رجل إلى صديق له:

لله أنت على جفائك ... ماذا أؤمل من وفائك
فكرت فيم هجرتني ... فوجدت ذاك لسوء رأيك
فرأيت أن أسعى إليك ... وأن أبادر في لقائك
كيما أجدد ما تغير لي ... وأخلق من إخائك

لإسحاق بن إبراهيم الموصلي في أبي دلف العجلي:

اجعل أبا دلف كمن لم تعرف ... واهجره معترفًا وإن لم يخلف
آخ الكرام المنصفين بوصلهم ... واترك مودة كل من لم ينصف
لا خير في صدق الإخاء موكل ... بأذى الصديق ملولة مستطرف

شاعر:

سأحبس نفسي إذ كرهت مودتي ... وأكسر قلبي منك باليأس والصبر
وأذكر ودًّا كان مني تكرمًا ... وإن حلت عن وصلي وملت إلى الهجر
فشكري لما أوليتني لك دائم ... وحبي جديد ليس ينقص في الدهر
فما زلت أبكيكم بعين سخينة ... كما كانت الخنساء تبكي على صخر

آخر:

إذا نائبات الدهر يسرن للفتى ... أربع خصال قلما تتيسر
كفاف يصون الحر عن بذل وجهه ... فيضحي ويمسي وهو حر موقر
وكأس يسليه إذا الهم ضافه ... ومحسنة إحسانها ليس ينكر
ورابعة عزت وقل حصولها ... صديق على الأيام لا يتغير
فذاك الذي قد نال مالكًا بلا أذى ... وأسعد بالخيارت إن كان يفكر

أخبرنا المرزباني، أخبرنا القراطيسي قال: أخبرنا أبو العيناء قال: كتب رجل إلى صديق له: أما بعد فإني ما اتهمت حسن ظني بك حين توجه إخائي نحوك، ولا تجدد أملي باعتمادي عليك، ولا استدعتني رغبة فيك إلى من سواك، ولا أراني اختياري غيرك عوضًا منك.

وحدثني أبو طائع الطلحي قال: كتب الجارحي إلي مرة: الله يعلم أنك ما خطرت ببالي في وقت من الأوقات إلا مثل الذكر منك لي محاسن تزيدن صبابة إليك، وضنًّا بك، واغتباطًا بإخائك.

شاعر:

لئن جد أسباب العداوة بيننا ... لترتحلن مني على ظهر شيهم

والشيهم ذكر القنافذ، وإنما يريد لتصيبك مني داهية، هكذا حفظت عن ابن الأعرابي، وكان كبيرًا.

قال جميل بن الصريري لابنه: يا بني اصحب السلطان بشدة التوقي كما تصحب السبع الضاري، والفيل المغتلم، والأفعى القاتلة، واصحب الصديق بلين الجانب والتواضع، واصحب العدو بالإعذار إليه، والحجة فيما بينك وبينه، واصحب العامة بالبر، والبشر، واللطف باللسان.

شاعر:

إن الكـــريم الـــذي تبقـــى مودتـــه ... ويحفـظ الـسر إن ضـافى وإن صرمـا
لـيس الكـريم الـذي إن ذل صـاحبه ... بـث الـذي كـان مـن أسراره علـما

قال فيلسوف: اعتزل عدوك واحذر صديقك.

وقال عمرو بن العاص: الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لوطف.

وقال خلف الأحمر: وصف لي رجل أخًا له، فقال: كنت لا تراه الدهر إلا وكأنه لا غنى به عنك، وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبت غفر ذنبك، وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسن وكأنه المسيء.

شاعر:

إذا أنـــا لم أجـــز الـــصديق بنـــصحه ... وأقـــص الـــذي تـــسري إلي عقاربـــه
فمـن يتقـي يـومي ومـن يرتجـي غـدي ... لنائبـــة والـــدهر جـــم نوائبـــه
لحـى الله مـولى الـسوء لا أنـت راغـب ... إليـــه ولا رام بـــه مـــن تحاربـــه
ومـا قـرب مـولى الـسوء إلا كبعـده ... بـل البعـد خـير مـن عـدو تقاربـه
من الناس من يدعى صديقًا ولو ترى ... خبيئـــة جنبيـــه لـــساءك جانبـــه
يمـــن ولا يعطـــي ويـــزعم أنـــه ... كـــريم ويـــأبى لؤمـــه وضرائبـــه
وإني وتـــأميلي جذيمـــة كالـــذي ... يؤمـل مـا لا يـدرك الـدهر طالبـه
فأمـــا إذا اســـتغنيتم فعـــدوكم ... وأدعـى إذا مـا غـص بالمـاء شـاربه
ومـا تركـت أحلامكـم مـن صـديقكم ... لكـــم صـــاحبًا إلا قـــد ازور جانبـــه

آخر:

إذا أنت لم تعرض عن الحقد لم تفز ... بذكر ولم تسعد بتقريظ مادح

آخر:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه ... عن الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه

آخر:

عامل الناس بخلق رفيق ... والق من تلقى بوجه طليق
فإذا أنت قليل الأعادي ... وإذا أنت كثير الصديق

وقيل لفيلسوف: من تحب أن تصادق؟ فقال: أما في الدهر الصالح فالحسيب، اللبيب، الأديب، فإنك تستفيد من حسبه كرمًا، ومن أدبه علمًا، ومن لُبِّه رأيًا، وأما في الزمان السوء فارض بالمكاشر الذي يعطيك بعضه بالحياء، وبعضه بالنفاق، ويمتعك ظاهره، وإن ساءك باطنه، ولكل زمان حكم، ولكل ظهر عكم.

وقالت أعرابية:

يا دهر لا عريت من آبده ... ما أنا في فعلك بي حامده
صاحبت إخوانك طرًا فما ... حمدت منهم خلة واحده
وكنت من كلهم حاضنه ... في كل يوم بيضة فاسده

وقيل للواسطي المتكلم: كيف ترى أبا عبد الله البصري؟ فأنشد:

حرج الخليفة بغضه لعدوه ... وصفاؤه لصديقه سيان

وكتب ابن أكمل إلى ابن سورين، وكان بينهما ود متوارث: إن رأيت أن تروي ظمأ أخيك بغرتك، وتبرد غليله بطلعتك وتؤنس وحشته بأنس قربك، وتجلو غشاء ناظره بوجهك، وتزين مجلسه بجمال حضورك، وتجعل غداءك عنده في منزلك الذي هو فيه ساكنك، وتهب له السرور بك باقي يومه، مؤثرًا له على شغلك، فعلت إن شاء الله.

فأجابه: كيف أروي ظمأك إلي مني، وأنا أشد ظمأ إليك منك إلي، وعلى حيلولة ذاك فالتلاقي أبرد لغليل النفس، وأجلب لما شرد من الأنس، وها أنا قد هيأت كلي لطاعتك، وبشرت روحي بالاستمتاع بحديثك، وأخذت عياذ الاستفادة منك، وصلت على الدهر وأبنائه بما ملكته من تشريفك، والسلام.

قال أعرابي لآخر: ودك لا ينضى ملبوسه، ولا يتوى محروسه، ولا يذوي مغروسه.

وأنشدنا أبو سعيد السيرافي قال: أنشدنا قدامة بن جعفر الكاتب لشاعر:

وفتيان صدق ثابتين صحبتهم ... يزيدهم هول الجناب تآسيا

فإن يك خيرًا يحسنوا أملا به ... وإن يك شرًّا يشربوه تحاسيا

واعتذر رجل إلى أبي أيوب سليمان بن وهب الكاتب وأطال، فقال له: أقلل فإن الولي لا يحاسب، والعدو لا يحتسب له.

قال ابن السكيت: العرب تقول: أنت من حبة نفسي، أي ممن تحبه نفسي.

وقال: يقال: هو صفيي، وسجيري، وهم أصفيائي وسجرائي.

وحكى أبو عمرو واللفيف في معنى السجير، وهو خلصاني، وهم خلصاني.

ويقال: آخيت الرجل وواخيت، يقلبون الهمزة واوًا، كما يقال: آسيته وواسيته، وهو خلي وهم أخلائي.

فأما الشجير بالشين فهو الغريب.

قال أعرابي لصاحب له: إني لأصقل بلقائك عقلي، وأشحذ بمحادثتك ذهني، وأطوي بذكر محاسنك أيام، وأرجع من طويتك إلى أكرم موثوق به لرعاية عهد، وأفضل متكل عليه لمحافظة على ود.

وقال آخر لصاحب له: ما زلت أعلم أنك للسر ملء الصدر، وأنك في المساعدة أذكى من الجمر، وأرق من عتيق الخمر، ظريف المخاطبة، عذب المواصلة، لذيذ المجالسة، هنيء العشرة، مقبول الظاهر، سليم الباطن، منشور المطاوي، عار من المساوي.

قال أعرابي لرجل: إن فلانًا وإن ضحك لك فإنه يضحك منك، فإن لم تتخذه عدوًا في علانيتك فلا تجعله صديقًا في سريرتك.

وكتب آخر إلى صديق له: إنما قلبي نجي ذكرك، ولساني خادم شكرك.

وكتب آخر في بعض العتاب: قد طالت علتك أو تعاللك، واشتد شوقنا إليك، فعافاك الله مما يك من مرض في بدنك، أو إخائك، ولا أعدمناك.

قال إسحاق: قلت للعباس بن الحسن: إني لأحبك، فقال: رائد ذاك معي.

قال: وذكرت له رجلا، فقال: دعني أتذوق طعم فراقه، فهو والله الذي لا تشجى به النفس، ولا يكثر في إثره الالتفاف.

سئل أعرابي عن صديق له فقال: صفرت عياب الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفهرت وجوه كانت بمائها.

إبراهيم بن العباس الصولي:

يا أخا لم أر في الناس خلا ... مثله أسرع هجرًا ووصلا

كان لي في صدر يوم صيدقًا ... فعلى عهدك أمسيت أم لا

روى المدائني عن عبد الله بن سلم الفهري، قال: غاب مولى الزبير بن العوام عن المدينة حينًا، فلما آب قال له رجل من قريش: أما والله لقد أتيت قومًا يبغضون طلعتك، وفارقت قومًا لا يحبون رجعتك، قال: أنعم الله بمن قدمت عليه عينًان ولا خلف الله على من فارقته خيرًا.

وقرأت لعلي بن جعفر الكاتب، كاتب الطابع، رقعة له إلى صالح بن مسعود الكاتب النصراني لم تكن بذاك قلة ما لم أروها، لكني وجدت شعيرًا نقلته إلى هذا الموضع وهو:

بل عشت لي وبقيت منك ممتعًا ... في صالح الإخوان والأهل

حتى إذا نزل الحمام بواحد ... منا ليأخذه على مهل

متنا جميعًا لا يفرق واحد ... فيذوق فيه مرارة الثكل

وقال بعض السلف: الانبساط إلى العامة مكسبة لقرين السوء، والانقباض مجلبة للمقت، فإما اقتديت من قرناء السوء باعتقاد المقت، وإما ابتغيت أسر الإخوان بالصبر على المكروه.

قال عبد الملك بن مروان لرجل: ما بقي من لديك؟ قال: جليس يقصر مع طول الليل مع العلة، ودابة أشتهي معها طول السفر. وأنشد لأعرابي:

من أين ألقى صاحبًا مثل عمر ... يزداد طيبًا كلما طال السفر

قال بعض السلف: توق من الرجال من إن أنعمت عليه كفرك، وإن أنعم عليك من عليك، وإن حدثته كذبك، وإن حدثك كذبك، وإن ائتمنته خانك، وإن ائتمنك اتهمك.

لأبي الأسود:

أريت امرءًا كنت لم أبله ... أتاني فقال اتخذني خليلا
فخاللته ثم صافيته ... فلم أستفد من لدنه فتيلا
فألقيته غير متستعتب ... ولا ذاكر الله إلا قليلا
ألست حقيقًا بتوديعه ... وأتبع ذلك هجرًا جميلا

قال عمر بن الخطاب: مما يصفي لك ود أخيك أن تبدأه بالسلام، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الكنى إليه.

محمد بن عبد الملك الزيات:

أقول إذا ما بدا طالعًا ... وقد كاد أو هم أو قد ولج
من الناس من ليس حتى المما ... ت منه ومن أذاه فرج
ولو كنت تأمنه ليلة ... إلى الصبح لم يرض أو يدلج
ولو كان ذا من أحب العباد إليـ ... ـك لكان بغيضًا سمج
فكيف إذا كان ممن يكاد صـ ... ـدرك من بغضه ينفرج

آخر:

تريـــك أعيـــنهما في صـــدورهم إن الـــصدور يـــؤدي غـــشها البـــصر

آخر:

متـــى تـــك في صـــديق أو عـــدو تخـــبرك العيـــون عـــن القلـــوب

أنشدنا المبرد فيما حدثنا به أبو سعيد السيرافي عن ابن السراج عنه:

كيـــف العـــزاء لمـــن يعـــن لـــه شرب المـــدام ولـــذة الخمـــر
وحـــديث فتيـــان غطارفـــه وفـــوارس كـــالأنجم الزهـــر
إن جئـــتهم سروا وإن نزحـــت داري فـــإن حـــديثهم ذكـــري
يـــا ليتنـــي أحيـــا بقـــربهم فـــإذا فقـــدتم انقـــضى عمـــري
فتكـــون داري بـــين دورهـــم ويكـــون بـــين قبـــورهم قـــبري

قال حاتم الأصم: أربعة تذهب الحقد بين الإخوان: المعاونة بالبدن، واللطف باللسان، والمواساة بالمال، والدعاء في الغيب.

كتب سهل بن هارون الكاتب إلى جعفر بن يحيى:

إذا مـــا أتـــى يـــوم يفـــرق بيننـــا نمـــوت فكـــن أنـــت الـــذي يتـــأخر

وقال الجماز فيما حدثنا ابن المرزباني عن الصولي عن أبي العيناء عنه يصف صديقًا: لم أر في الناس وفيًّا بعد واحد كان أصفى لي مودته، وبذل لي مهجته، كان أطوع لي من كفي، وكنت أذل له من نعله، أتكلم بكلامه فينطق بلساني، إن قلت خيرًا أعانني، وإن ملت إلى سيئ ردعني، كان والله إذا قال فعل، وإذا حدث صدق، وإذا أؤتمن لم يخن، ضاحك السن، مسفر الوجه، كان إذا غاب

فكأنه شاهدي، وإذا غبت عنه فكأنه يراني، لا ينطق لسانه بخلاف ما يضمر جنانه، لا يدري أينا أسر بصاحبه، ولا أينا أصدق مودة بخليطه، آنس ما كنا إذا اجتمعنا، وأوحش ما كنا إذا افترقنا، ما تفرقنا طول صحبتنا إلا يومًا حسبناه حولا، أغبط ما كنا إذ رمى الهر فلم يشق إذ رمى من كل روحه روحي، ونفسه أعز علي من نفسي، فليته أصابني وأخطأه، وإذا لم يخطئه أصابني معه، فيكون موتنا معًا كما كان عيشنا معًا، مات فمات الوفاء بعده، خاب الرجاء فما ألذ بعده طعامًا، ولا أسيغ شرابًا، غمًّا له، واكتئابًا عليه، وشوقًا إليه، فلو كنت أقول الشعر لرثيته آخر الدهر، ولأتعبت بالقوافي الكاتبين، فبليت بعده بمن إذا أحببته أبغضني، وإن وددته عاداني، وإن أقبلت نحوه ولى عني، فهو كالذئب والغراب، ما للذئب يناله الغراب، وما للغراب فالذئب لا يطمع فيه، حسبك به غادرًا، تراه عن الوفاء مبطئًا، وإلى الخيانة مهملجًا.

قال أرسطوطاليس في رسالة أفدناها أبو سليمان: تعهد الإخوان بإحياء الملاطفة، فإن التارك متروك، ثم تعهد إخوان الإخوان، فإن إخوان الإخون من الإخوان، وهم بمنزلة العلم المستدل به على الوفاء، ثم تعهد أهل المكاشرة المتشبهين بالإخوان بالصبر عليهم، إما طمعًا في تحويل ذلك منهم صدقًا، وإما اتقاء كلمة فاجر وقعت في سمع مائق ذي دولة.

وذكر أعرابي مودة رجل، فقال: مودة رثة العقال، وسماء قليلة البلال، وأرض دائمة الإمحال، هو اليد الحذاء، والأزمة الحصداء، أبعد مقاله قريب، وأقرب فعاله بعيد، يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول.

شاعر:

أتناسيت أم نسيت إخائي والتناسي شر من النسيان

عبد الصمد بن المعذل:

هي النفس تجزي الود بالود مثله ... وإن سمتها الهجران فالهجر دينها
إذا ما قرين بت منها حباله ... فأهون مفقود عليها قرينها
لبئس معار الود من لا يوده ... ومستودع الأسرار من لا يصونها

لما تباعد بين يحيى بن خالد وعلي بن عيسى بن ماهان وجه علي أبا نوح ليتعرف ما في نفسي يحيى، فكتب يحيى على يد أبي نوح:

فصل

عافانا الله وإياك، كن على يقين أني بك ضنين، وعلى التمسك بما بيني وبينك حريص، أريدك ما أردتني، وأريدك أن تنوب عني ما كان ذلك بي وبك جميلا، فإن جاءت المقادير بخلاف ما أحب من ذلك لم أعد ما يحمد، ولم أتجاوز إلى شيء مما يكره، هاجني على الكتاب إليك مسألة أبي نوح غيابي، وإعلامك رأيي وهواي، فما تبدلت، ولا حلت، فجمعنا الله وإياك على طاعته، وأنشد:

لكل أديب تبرى هيئة ... وهذي تدل على همته
ولم أر مثل فتى ماجد ... يداري الأمور على فطنته
يجازي الصديق بإحسانه ... ويزجي العدو إلى غفلته
ويلبس للدهر تبانه ... ويخضع للقرد في دولته
بلوت الرجال وجربتهم ... فكل يدور على لذته

قال سفيان بن عيينة: صحبت الناس خمسين سنة ما ستر لي أحد عورة، ولا رد عني عيبة، ولا عفا لي عن مظلمة، ولا قطعته فوصلني، وأخص إخواني لو

خالفته في رمانة فقلت: هي حامضة، وقال: هي حلوة لسعى بي حتى يشيط دمي.

وقال أعرابي في صاحب له: أفصح خلق الله كلامًا إذا حدث، وأحسنهم استماعًا إذا حدث، وأكفهم عن الملاحاة إذا خولف، يعطي صديقه النافلة، ولا يسأله الفريضة، له نفس عن العوراء محصورة، وعلى المعالي مقصورة، كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان، والشمس التي لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للجيران، والبارد العذب للعطشان.

كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي يدعوه إلى الأرض المقدسة فكتب إليه سلمان: إن بعدت الدار من الدار فإن الروح مع الروح قريب، وطائر السماء على إلفه من الأرض يقع.

قال معبد بن مسلم:

جزى الله الموالي عن أخيهم ... وكل صحابة لهم جزاء
بما فعلوه إن خيرًا فخيرًا ... وإن شرًّا كما امتثل الحذاء
فما أنصفتم والنصف يرضى ... به الإسلام والرحم البواء
لزدتهم النصحية من لدني ... فمجوا النصح ثم ثنوا فقاؤا
وقلت فدى لكم عمي وخالي ... فما قبل التودد والفداء
فكيف بهم وإن أحسنت قالوا ... أسأت وإن غفرت لهم أساؤا

قال بنا المرزباني: حدثنا القراطيسي قال: أنشدنا أبو العيناء قال: أنشدنا السدري:

وإني لأهوى ثم لا أتبع الهوى ... وأكرم خلاني وفي صدود

وفي الناس عن بعض التضرع غلظة وفي العين عن بعض البكاء جمود

قال أبو العيناء: قلت لأعرابي: كيف أنت؟ قال: كما يسرك إن كنت صديقًا، وكما يسوءك إن كنت عدوًا.

وكتب ابن ثوابة إلى صديق له: ما انفككت عن ودك، ولا انفركت عن عهدك.

شاعر:

إذا كثر التجني من خليل بلا ذنب فقد مل الخليل

كتب الحسن بن وهب إلى صديق له يعلمه صبابته إليه، ووحشته لفراقه فقال: وقد قسمك الله بين طرفي وقلبي، ففي مشهدك أنس قلبي، وفي عينيك لهو طرفي، فأجابه الصديق: وقفت على الفضل الذي أخبرت به بما أخبرت، فسيان عليك رأيتني أم لم ترني إذا كان بعضك يؤنس بعضًا فتسلو عني، ولكني أراك فيخشع قلبي، وأغيب عنك فتدمع عيني، فسيان بين من سلا أبده، ومن حزن أمده.

فكتب إليه الحسن: يا حانقًا على الجرة، ثم تمثل:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

هكذا أنشدنا علي بن عيسى الرماني بالشين ورد السين.

قال يونس النحوي: لا تعادين أحدًا وإن ظننت أنه لا يضرك، ولا تزهدن في صداقة أحد، وإن ظننت أنه لا ينفعك، فإنك لا تدري متى تخاف عدوك،

وترجو صديقك، ولا يعتذر أحد إليك إلا قبلت عذره وإن علمت أنه كاذب، وليقل عتب الناس على لسانك.

وقال جعفر بن يحيى لصديق له: أنت من جوارحي يميني، ومن سوانحي يقيني.

وذكر أعرابي قومًا فسد ما بينهم بعد صلاح ومودة: والله ما زالت عيون العداوة تنجم من صدورهم فتمجها أفواههم، وأسباب المودة تخلق في قلوبهم وتخرس عنها ألسنتهم حتى ما تجد للشر مزيدًا، ولا للخير مريدًا.

وقال أعرابي: خير الجلساء من إذا عجبته عجب، وإذا فكهته طرب، وإذا أمسكت تحدث، وإذا فكرت لم يلمك.

شاعر:

وخل كنت عين النصح منه ... إذا نظروا ومستمعًا سميعًا
أطاف بغية فنهيت عنها ... وقلت له أرى أمرًا شنيعًا
أردت رشاده جهدي فلما ... أبى وعصى أبيناه جميعًا

كتب بعض الهاشميين إلى يحيى بن خالد: علمي بمودتك يمنعني من استحثاثك، ووصلة إخائي تشكو إليك تقصيرك، وأملي فيك يصبرني على تأنيك.

شاعر:

إني لألبسكم على علاتكم ... لبس الشفيق على العتيق المخلق
ولقد أرى ما لو أشاء عتبته ... وأصد عنه ببغيتي وترفقي

لـــيرى العـــدو قناتنـــا لم تنـــصدع ويكـــــون ذاك كأنـــــه لم يخلـــق
وإذا تتبعـــت الـــذنوب فلـــم تـــدع ذنبًـــا قطعـــت قـــوى القـــرين المـــشفق
وســـمعت أو نقلـــت إليـــك مقالـــة عـــوراء نطقتهـــا صـــموت المنطـــق

وقال ابن عائشة: مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلوب صدأ الذنوب، ومجالسة أهل المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكي النفوس.

شاعر:

إن الكـــريم أخـــو الكـــريم وإنـــما يـــصل اللئـــيم حبالـــه بلئـــيم

كتب إبراهيم بن العباس الصولي إلى صديق له: أنصف الله شوقي إليك من جفائك، وأخذ لبري من تقصيرك، ولا سلط الدهر على حسن ظني

بك كما سلطه على لطيف محلي منك.

وقيل لديجانس: لم لا يشتد فرحك بأخيك في حياتك كشدة حزنك عليه بعد وفاته؟ قال: لأني كنت أعلم في حياته أنه يموت، والآن أعلم أنه لا يعيش.

شاعر:

أصـــافي المـــرء يـــألفني فيجـــري جميعًـــا بـــاختلاف واتفـــاق
وعهـــد الـــود محفـــوظ إذا مـــا أمنـــا في الـــوداد مـــن النـــافق
وأقطـــع كـــل ذي بـــر وصـــول إذا مـــزج الخليقـــة بـــاختلاق
وكـــم مـــن معقـــب حـــسن اجـــتماع لتنويـــه بـــسر الافـــتراق
وكـــم مـــن معقـــب حـــسن اجـــتماع لتنويـــه بـــسر الافـــتراق

شاعر جاهلي:

لي ابن عم لو أن المزن طاع له ... ما نالني منه ما يروى به الثغر
يود لو أنني أرمي بمندبة ... من الشواجب لا يعفو لها أثر
إذا رآني أبدى لي مكاشرة ... وتحتها لهب الأحقاد يستعر
فلو ذبحنا على صراء صردحة ... تزايل الدم منا حين ينهمر
إذا رآني خال الشمس طالعة ... من نحو وجهي إليه حين يبتدر
لا يحملني على حدباء جائحة ... مهلا أبا الجهل لا يطمح بك الأشر
إني ومن وخدت تدمى مناسمها ... إليه ينكبها الحزان والطرر
لولا وشائح أرحام مؤكدة ... لقد تبينت ما آتي وما أذر

شاعر:

ومكاشر ما زال يمذق لي ... مذقًا وأمحضه الهوى محضا
يرضى ويسخطني وأحسبه ... أني متى أرضيته يرضى
جعل النميمة شيمة خلقًا ... فرفضته عنا حتى رفضا
وتزايدت عندي مثالبه ... حتى لأشبه بعضه بعضا
فهجرته وتكرت صحبته ... إن النمائم تورث البغضا

شاعر:

هون عليك فما أرتضي ... قط الصديق على المباحث

وقال كعب الحبار لرجل أراد سفرًا: إن لكل رفقة كلبًا فلا تكن كلب أصحابك.

وقال محمد بن يوسف: قلت للجوري: إني أريد الشام فأوصني، قال: إن قدرت أن تنكر كل من تعرف فافعل، وإن استطعت أن تستفيد مائة أخ إذا خلصوا لك، فتسقط تسعة وتسعين وتكون في الواحد شاكًا فافعل! وقال علي بن عبيدة: لا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ولا إخاء لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه حتى يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره، وحتى لا يرى منهم خللا ولا زللا. وقال يحيى بن معاذ: من لم يزرك، ولم يواسك، ولم يتحفك فهو من إخوان الطريق.

حدثنا العسجدي قال: جاء رجل إلى أبي إسحاق الكسائي ليلا، فقال: ما جاء بك؟ قال: ركبني دين، قال: كم هو؟ قال: أربعمائة درهم، فأخرج كيسًا فأعطاه، فلما رجع عنه بكى، فقال له أهله: ما يبكيك؟ قال: بكائي أني لم أبحث عن حاله وألجأته إلى الذل. قال ابن السماك الواعظ: الحسد أأم الطبائع، فمن ثم وكل بالأقرب فالأقرب، واعلم أن العدو يعود بالملاطفة صديقًا، والظالم بالإنصاف محسنًا، والعاتب بالعتبى حبيبًا، والحاسد بمنزلة البغل الشموس يطيعك في تناول مراده، ويكلفك أرضًا بعيدة الطلب، وكذلك الحاسد يدنيه منك سوء الطمع، ويبعده منك سوء الطبع.

وقال أبو زافر يعاتب أخاه نوحًا:

جربت من نوح أمورًا كثيرة ... وطيبت من نفسي وما كدت أفعل
فلما أبى إلا اعوجاجًا تركته ... وبعض انتهاء النفس أبقى وأوصل
فأي أخ يا نوح يومًا علمتني ... إذا كان أمر يونس الريق معضل

وقال أيضًا:

إذا ما قلت نوح مستقيم ... أبت أخلاقه إلا اعوجاجا

فـــأي أخ علمـــت أخـــاك يومًـــا ... إذا مـــا اللـــد أكثـــرت الـــضجاجا
فأنـــت مخيلـــة لا شـــك فيهـــا ... فلـــما أمطـــرت كانـــت عجاجـــا

شاعر:

رب صـــديق كنـــت أدعـــو لـــه ... أن يجعـــل الـــدنيا كـــمالا لديـــه
حتـــى إذا صـــار إلى حـــاجتي ... حقًـــا وصـــارت حـــاجتي في يديـــه
حـــال عـــن الـــود وعـــن عهـــدنا ... وأظهـــر الـــشح عـــلى درهميـــه
فـــما مـــضى بعـــد دعـــائي لـــه ... يومـــان حتـــى صرت أدعـــو عليـــه

شاعر:

خـــذ لقلبـــي مـــن التجنـــي أمانًـــا ... واكفنـــي أن أذم فيـــك الزمانـــا
أنـــت صـــيرت في فـــؤادي مكانًـــا ... لـــك فـــاحفظ بـــالود ذاك المكانـــا
كـــن لـــودي عـــلى إخائـــك عونًـــا ... مـــن زمـــان يغـــير الإخوانـــا

قيل ليحيى بن خالد: أي شيء أقل؟ قال: قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديق قليل الآفات كثير الامتناع يضب مواضع المدح.

وقال أخو ثقيف: مودة الأخ التالد وإن أخلق، خير من مودة الطارف، وإن ظهرت بشاشته وراعتك جدته.

شاعر:

لعمـــرك مـــا مـــال الرجـــال ذخـــيرة ... ولكـــن إخـــوان الثقـــات ذخـــائر

آخر:

وكنـــت جلـــيس قعقـــاع بـــن شـــور ... ولا يـــشقى بقعقـــاع جلـــيس

ضحوك السن أمار بعرف وعند النكر مطراق عبوس

بشار:

فدع التبحث عن أخيك فإنه كسبيكة الذهب الذي لا يكلف

آخر:

إن القوم غطوني تغطيت عنهم وإن بحثوا عني ففيهم مباحث
وإن نبثوا بئري بئارهم وأخرجت ما تخفيه تلك النبائث

أبو العتاهية:

يدل على الإنسان ظاهر فعله ولا علم لي بالباطن المتغيب

آخر:

بلغت من السنين مدى طويلا ولم تعرف عدوك من صديقك
فسرت على الغرور ولست ترى شراب أم سراب في طريقك

وأنشد ابن حبيب:

أيها الفارغ المريد لغيب الناس مهلا عن المغيبة مهلا
إن في نفسك التي في جنبيك عن الناس لو تفكرت شغلا
عجبًا منك في ثناك لحمي فإذا ما رأيتني قلت أهلا
إن ذا الفضل والمروءة لا يقبل قولا يخالف القول فعلا

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: من وجد دون أخيه سترًا فلا يكشفه.

وقال: رب أخ لك لم تلده أمك.

وقال: اصحب الناس بما تحب أن يصحبوك بمثله.

وقال: الإخوان إخوان الثقة، وإخوان المكاشرة، فإخوان الثقة أهل بسط الكف، ولين الجناح، وهم أقل في الناس من الكبريت الأحمر، وإخوان المكاشرة فابذل لهم حلاوة المنطق، وطلاقة الوجه، وإذا كنت من أخيك على ثقة فابذل له نفسك ومالك، وصاف من صافاه، وعاد من عاداه.

وقال علي بن حماد: قال الحسن: مثل الصاحب مثل الرقعة في القميص، فينظر امرؤ بأي شيء يرقعه.

وقال الحسن: إن المؤمن شعبة من المؤمن، يحزن لحزنه، ويفرح لفرحه، وهو مرآة أخيه، وإن رأى منه ما لا يعجبه قومه وسدده، ووجهه، وحاطه في السر والعلانية، إن لك من خليطك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذكر من آخيت، فاختاروا الإخوان والأصحاب والمجالس.

وقيل لعدي بن حاتم: ما أثقل الأشياء عليك؟ قال: اختيار الصديق، ورد السائل، ومسألة اللئيم. فقيل له: فما أضر الأشياء للرجل؟ قال: كثرة الكلام، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد.

وقال يونس بن عبيد: ليس لملول صديق.

وقال الشاعر:

البس جديدك إني لابس خلقي ... ولا جديد لمن لا يلبس الخلقا

قال النمري: الجديد ها هنا الصديق الحديث العهد كأنه استجده بالصداقة. والخلق الصديق القديم الصداقة. يقول على وجه التوبيخ: عليك

بالإخوان الجدد فإني متمسك بإخواني القدماء، ثم قال: لا جديد لمن لا يلبس الخلق، أي من لم يقم على مودة الصديق القديم لم يقم على مودة الصديق الجديد.

قال: ومثله قول العرجي:

سميتني خلقًا لحلة قدمت ... ولا جديد إذا لم يلبس الخلق

قال: والناس يظنون أن الجديد والخلق ها هنا ثوبان.

وقال العرجي:

لا يحول الفؤاد عنك بود ... أبدًا أو يحول لون الغراب

وقال ربيعة الأسدي:

إن المودة والهوادة بيننا ... خلق كسحق اليمنة المنجاب

آخر:

ما سمعنا باسم الصديق فطالبنا ... بمعناه فاستفدنا الصديقا
أتراه في الأرض يوجد لكن ... نحن لا نهتدي إليه طريقا
أم ترى قولهم صديق مجاز ... لا ترى تحت لفظهم تحقيقا

شاعر:

ذهب الذين أحب قربهم ... وبقيت كالمقمور في خلف
من كل مطوي على حنق ... متصنع يكفي ولا يكفي

المتلمس:

عـلى كلهـم آسـى وللأصـل زلفـة ... فزحـزح عـن الأذنـين أن يتـصدعوا
وقـد كـان إخـواني كـريمًا جـوارهم ... ولكـن أصـل العـود مـن حيـث ينـزع

وقال المقنع الكندي:

وصـاحب الـسوء كالـداء العيـاء إذا ... ما ارفض في الجلد يجري ها هنا وهنا
يجـري ويخـبر عـن عـورات صـاحبه ... ومـا يـرى عنـده مـن صـالح دفنـا
كمهـر سـوء إذا رفعـت سـيرته ... رام الجـماح وإن خفـضته حرنـا
إن يحـي ذاك فكـن منـه بمعزلـة ... وإن يمـت ذاك لا تـشهد لـه جننـا

آخر:

رأيـت مـوالي الألى يخـذلونني ... عـلى حـدثان الـدهر إذ يتقلـب
فهـلا أعـدوني لمـثلى تفاقـدوا ... وفي الأرض مبثوثًـا شـجاع وعقـرب

الحارث دعي الوليد:

فـإن أنـت أقـررت العـداة بنـسبتي ... عرفـت وإلا كنـت فقعًـا بفدفـد
ويـشمت أعـداء ويخـذل كاشـح ... عمـرت لهـم سـمًّا عـلى نـاب أسـود

شاعر:

ومعـشر منقـع لي في صـدورهم ... سـم الأسـاود تغـلي في المواعيـد
وسـمتهم بـالقوافي فـوق أعينـهم ... وسـم المعيـدي أعنـاق المقاحيـد

آخر:

وغنـي لـتراك الـضغينة قـد بـدا ... تراهـا مـن المـولى فـما أسـتثيرها

قال بعض السلف: خالطوا الناس ورابدوهم.

وقال أبو العيال الهذلي:

وأخـــاك إن آخـــاكم وعتابـــه إذا جـــاءكم بتعطـــف وســـكون

ثعلبة بن صعير:

وإذا خليلـــك لم يـــدم لـــك وصـــله فـــاصرم لبانتـــه بحـــرف عـــاقر

وقال ذو الإصبع العدواني:

لي ابـن عـم عـلى مـا كـان مـن خلـق مخـــالف لي أقليـــه ويقلينـــي

أزرى بنـــا أننـــا شـــالت نعامتنـــا فخـــالني دونـــه بـــل خلتـــه دوني

وقال أسامة بن الحارث الهذلي:

تـــذكرت إخـــواني فبـــت مـــسهدًا كـــما ذكـــرت بـــوًّا مـــن الليـــل فاقـــد

وقال عبدة بن الطبيب:

واعـصوا الـذي يبـدي النميمـة بينكم متنـــصحًا وهـــو الـــسام المنقـــع

يزجـــي عقاربـــه لتبعـــث بيـــنكم حربًـــا كـــما بعـــث العـــروق الأخـــدع

حـــران لا يـــشفي غليـــل فـــؤاده عـــسل بـــماء في الإنـــاء مشعـــشع

لا تـــأمنوا قومًـــا يـــشب صـــبيهم بـــين القوابـــل بالعـــداوة ينـــشع

وقيل لعبد الله بن عورة، وكان خطيبًا: تركت المدينة ولو رجعت إليها لقيت الناس، فقال: وأين الناس؟ إنما الناس رجلان: شامت بنكبة، أو حاسد لنعمة.

شاعر:

أخـــاك أخـــاك إن مـــن لا أخًـــا لـــه كـــساع إلى الهيجـــا بغـــير ســـلاح

وأنشد يونس بن فروة:

فلقد رضيت بعصبة آخيتهم وإخاؤهم لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دخلة أني لعرضك في إخائك ظالم

وقال بعض الحكماء: إن الأخ إذا لم يكن صديقًا فهو نسيب الجسم، والصديق وإن لم يكن أخًا فهو نسيب الروح.

أخبرنا ابن مقسم، حدثنا ثعلب، حدثنا عبد الله بن شبيب قال: سمعت العتابي يقول: سمعت أعرابيًا يقول لصاحب به: لا تنكرني لك فأعرف نفسي بك، ودع سرح القلب محميًّا، وثمر الفؤاد مجنيًّا فيوشك أن تبعد الطية على غير أهبة ولا أوبة.

شاعر:

وكنا كغصني بانة ليس واحد يزول على الحالات عن رأي واحد
تبدل بي خلا فخاللت غيره وخليته لما أراد تباعدي
ألا قبح الرحمن كل مما ذق يكون أخًا في الخفض لا في الشدائد

وكتب أحمد بن إسماعيل الكاتب إلى ميمون بن عارون: أعلمني رسولي أنك سألته عمن آنس به في ناحيتي، ومن في الناس اليوم يؤانس أو يجالس؟ نحن إلى الأنس منهم أحوج منا إلى الأنس بهم، وصورة الأمر في فسادهم أنه لما كان الدين عمود المحاسن، ونظام الفضائل، وعصم الأخلاق، وكان الناس قد خلوا أو أكثرهم منذ صاروا يتعاطونه مع المراء من الدين في معاملاتهم ومواداتهم، مدخولا من جوانبه، مختلا من أوساطه وأطرافه، فلن ترى إلا ذامًّا مذمومًا، زاريًا مزريًّا عليه، حالفًا بالقبيح، محلوفًا به.

وحديث أن رجلا قال لسفيان الثوري: أوصني! فقال: أقل معرفة الناس، وأنكر من تعرفه منهم، وابدأ بي، وأغضب من شئت، ودس من يسأله، فوالله لو لاحيت رجلا في زمانه فغضب لما أمنت أن يترامى به غضبه إلى سفك دمي، وأفرط أعزك الله مفرط في هذا الزمان، فقال: لا أقول كما قال سفيان لنقصان دهرنا عن دهره، ولكني أقول: أرض من شئت، ودس من يسأله عنك، وما أنكره لكثرة الشر في الناس أن يكون جواب كثير ممن يرضى مثل جواب من يغضب، إلا أني أرجو أن لا تكون هذه القضية عامة.

وأنشدني عبيد الله بن عبد الله لنفسه:

وحده الإنسان خير ... من جليس السوء عنده

وجليس الصدق خير ... من جلوس المرء وحده

وهذا لعمري كما قال، ولكن كيف لنا بجليس الصدق؟ ولربما نفع قرب العدو، وضر قرب الصديق، وهذا كلام ينكر ظاهره إلى أن يظهر تفسيره، أما العدو الذي ينفع قربه فهو الذي مقدار ضره أن يثلب ويعيب، ويجد مطعنًا ليذيع ويشيع، فإذا قرب هذا صورته ممن يعاديه وكله بحراسة نفسه، ومراعاة أموره، وتحصين تدبيره، وتحسين أفعاله، وكان برصيده له رقيبًا عليه، وإذا رام تحفظ الإنسان بهذا الرصد وترقيه هذه الرتبة صلحت أموره، وكان سبب صلاحها قرب هذا العدو منه، وإنما صار للعرب مآثر تنشر، ومفاخر تذكر، بتوقيهم المعاير والمعايب، في المقاوم والمجامع، ولم يخل أحد قط من ولي مؤدب، أو عدو مؤنب، أو تقريع بخطأ أو تهجين بنقص إلا من أهمل نفسه، ومن عادة الإهمال الهلاك، وقل من تحفظ فسلم من غضاضة، فكيف به إذا أضاع التحفظ من نفسه، وأمنه من غيره.

وقال بعض المتقدمين: لا صلاح للملك إلا بنفسه ووزرائه وعداء يخرجون عليه فيصلح نفسه من أجلهم.

ومما دونوه من الكلام: أنه يجب على العاقل أن يتخذ أبويه أصدقاء، وإخوانه رفقاء، وأزواجه ألافًا، وبنيه ذكراء، وبناته خصماء، وأقاربه غرماء، والعلماء أولياء، والجيران رقباء، ويعد نفسه فردًا وحيدًا، فذكروا رقبة الجيران، وحضوا على توقيها، فكيف بالجار العدو، وأما الصديق الذي يضر قربه فهو الذي إذا قرب توصل بصداقته إلى معرفة الأسرار، وعلم الأخبار، ثم تحفظ الزلل، والتقط الخلل، وأحصي الفلتات، وعد الهفوات، وراعى عثرات الألسن، وبوادر القول والعمل، عند الغضب والرضا، وفي أوقات الاسترسال التي يخلو الإنسان فيها من اغتفال، ثم جعل ذلك سلاحًا معدًّا يحمله على صديقه وقت العداوة وقد قيل في ذلك: يحصي العيوب عليك أيام الصداقة للعداوة ونحن لم نخالف في ما عممنا به من الذم في باب الإخاء والأنس قول النابغة:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

وقول الآخر:

هم الناس والدنيا ولم يزل القذى ... يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الإنصاف أن تطلب الأ ... خ المهذب في الدنيا ولست مهذبا

وقال آخر:

وكنت إذا الصديق نبا بأمري ... وأشرقني على حنق بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي ... مخافة أن أعيش بلا صديق

هؤلاء إنما أوجبوا الإغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة الإخاء، وإنما وقفوا بالصفح والعفو على ما يخلو الإنسان يأنس به من مثله، ألا ترى النابغة يقول: أي الرجال المهذب؟ والآخر يقول: مخافة أن أعيش بلا صديق، والآخر يقول: ومن قلة الإنصاف أن تطلب الأخ المهذب في الدنيا ولست مهذبًا، نقول كما قالوا، ونغفر كما غفروا لو وجدنا من يسلم لنا جملة إخائه، وإنما نشكوا فقد عمود الإخاء الذي حصوله يغفر ما دونه، وحيث بلغنا من هذه الشكوى، وهذا الذم، فلسنا نجحد النعمة في بقية جميلة في هذا الزمان من أحرار الإخوان قد قدمك الله فيهم فضلا وبرًّا، وهمة عليه، وأخلاقًا رضية، ومع ذلك فإن على العاقل في شريطة الإخاء إذا وجد موضع الدين والوفاء أن يقتصد في المؤاخاة، ويتقصر من العدة على من تفي طاقته بما يجب لهم، فإن حقوقهم إذا زادت على وسعه لحقته الإضاعة لبعضها، وجنت الإضاعة عليه العداوة ممن أضاع حقه، ولذلك قيل: كثرة الأعداء من كثرة الأصدقاء، وانتظم في هذا المعنى:

إذا اتسع الإخاء عرت حقوق ... مراعيها مقيم في مضيق

فإن خصت رعايته فريقًا ... أخل بما عليه في فريق

وإن رام القيام لهم جميعًا ... بشرط الود لم يك بالمطيق

وأوحش بعضهم فأفاد منه ... عدوا كان في عدد الصديق

فخذ ممن تؤاخيه بقصد ... وقدر فتح أبواب الحقوق

وقال:

إذا كثر الإخوان للمرء وابتغوا ... معونته في صرف دهر وغدره

فوحدته لا تستقل بحقهم ... وكثرتهم لا تستقل بضره

وكنت أعلمتني أنك استحسنت مني البيتين في ذكر العدو والصديق وهما:

إن كنت تطلب فضلا إذا ذكرت ومجدا
فكن لعبدك خلا وكن لخلك عبدا

وكان سببهما أن صديقًا لي ضرب عبدًا له فحضره صديق له فمنعه الصديق فلم يمتنع، فكتبت إليه بهذين البيتين أذكره بحق الصديق في عبودية الطاعة، وأخوة العبد في حق الإيمان، قال الله تعالى: {إنما المؤمنون إخوة}، هذا ما في التسلط على المماليك من الدناءة!

ولأحمد بن إسماعيل أيضًا إلى إسحاق بن سعد: وكأن الزمان يخص الإخاء وأهله من كدره ونكده بما لا يعم به غيرهم، فما تشاء أن ترى ذوي صفاء قد فرقت بينهما نوى فحصلا من التزاور على التكاتب، ومن أنس الاجتماع على وحشة الافتراق، ومن بهجة اللقاء على لدغة الشوق وكثرة التوق، ومن راحة المباوحة والمفاوضة على ضيق الصدور بالأسرار، وكرب النفوس بالكتمان إلا وجدتهما، ولا تشاء أن تجد أمثالهما قد جمعتهما الديار، واعترضت بينهما الأحداث، فاجتماعهما في معنى التفرق، وقربهما في صورة البعد، إلا أن شوقهما أبرح، ونزاعهما إلى اللقاء أشد، وحسرتهما على ما يفوت منع أكثر إلا رأيتهما، فأما أهوان اللقاء، وعبيد العيون الذين تجمعهم الرغبة والرهبة، ويتزاورون في المواصلة من العهدة إذا ولت مطمعة، وأخلفت مخيلة، أو نابت نائبة، فاكتراثهم لإعراض الدهر بينهم تستر، لأن الحاضر منهم لا تزعجه من أخيه الغيبة، والغائب لا تقر عينه بالأوبة، فالفرقة لا تورثهم وحشة، والاجتماع لا يجدد لهم أنسة، وربما وجدت تراضيهم بمخالفة ظاهرهم باطنهم، قد أتيح لهم متعة بعشرتهم؛ لأن كلا منهم قد قدم التحرز من صاحبه، واستشعر الاحتراس منه،

فليس يستودعه ما يخاف ضياعه، ولا يأمنه على ما يحتاج إلى الاهتمام به، وأعطاه مقدارًا من ظاهره، وقفت عليه عادته، وأسقطت مئونة التحصيل عنه، ولبسته على علم به، فإن أظهر له جميلا لم يغتر بظاهره، وإن وقف على غل أو غش لم يجدد له علمًا بباطنه، فليس يبدو له من أفعاله ما ينفره فيقطعه ولا يغيب عنه منها ما يأمنه فيسكن إليه، ويخاف جناية الاسترسال عليه، ولا يبقيه في مشهده ومغيبه منه ما لا يعرفه، فيجريان في هذا الميدان مدة طويلة متيمنين بالمؤاكلة، والمشاربة، واللقاء والمحادثة، وأخو الثقة يرمق الحركة، ويراعي اللحظة، ويتأول اللفظة، وإن ظهرت منكرة وقف عندها، وتعرف سببها، وتبين موقعها من العمد والخطأ، ومقدارها في الصغر والكبر، وهل يقل صغيرها عن المعاتبة، أو يبلغ كبيرها ترك المراجعة، وينزل الأمور بين هذين الطرفين منازلها، ويعمل فيما يستقر عليه بما هو أصون لعقدته وإن كانت نفيسة، لأن أخا الثقة من الإخوان يمنح الأنس، ويبث ذات النفس، ويظهر العجر والبجر، ويكشف الأسرار، ويخص بخواص الأخبار، ويدخر للنوازل، ويفزع إليه في النوائب، فيعد للمشهد والمغيب، واليوم والغد، والمحيا والممات، والنفس والعقب، ويستظهر بإخائه على الزمان، ويعتضد به في الحدثان، وإنما يستحق ذلك ما نقي جيبه، وسلم غيبه، وخلص قلبه، وصح لبه، ولوقوفه على هذه الغاية من الاستحقاق يراعيه من أودعه أجل ودائعه، وجعله أفضل عدده، والحمد لله الذي جعلك مقدمًا في إخوان الصفاء، يثق بك الصديق، وتخف المحنة عليه في مراعاة طويتك بصحة عقدك، وكرم عهدك، وتسمكك في وردك وصدرك بعصم الدين التي تشتمل على المناقب، وتنفي المقابح والمعايب، وتؤدي صاحبها إلى فوز البد، وتحوز له النعيم المقيم، فتمم الله نعمه، وأوزعك شكره، وأمدك بمزيده:

تنازعنـــا الـــوداد وكنـــت أجـــري إذا بلـــغ المـــدى جـــري الـــسبوق
فحـــاز الـــسبق إســـحاق بـــن ســـعد وخلفنـــــي بقارعـــــة الطريـــــق

الاستزادة على حسب الحرية، ومن لم يجد ألم الجفوة لم يعرف موقع المبرة، وأيام السلطان والقدرة غنيمة ذي النبل والهمة، تعتقد بها المنن، وترعى فيها الحرم، وتبنى المكارم لليوم والغد، والنفس والعقب، ولي ما شهدته من مودة صحيحة موروثة، وأسباب شابكة متقدمة، ورغبة متجددة، وأمل متأكد، ولكل من ذلك حق وحرمة، وأنا شريك في النعمة بالهوى والنية، مطلق اللسان بوصف فضائلك في محافل ذي الشرف والحرية، كبتًا لعدوك الذي ليس بينه وبين الله عصمة، ونصرًا لوليك ولي الدين والمروءة، ومعي معاضدة الأخ، وخدمة العبد، وطاعة اليد، والسلام.

وقال أيضًا في فصل آخر: وإذا سلمت لي الحال القديمة بيننا التي كان العهد فيها باللقاء يتراخى، فإذا التقينا وجدنا على جدته، وأعطى المفضول منا - أعني نفسي - من آتى قاصرًا - أعنيك - من الإعظام والإجلال حقه، وسلك الفاضل بالإنصاف والتواضع سبيل فضله، لم أحفل بما يحدث بعد ذلك من إدراك أمل وفوته، ونيل طلبة وتعذوها.

وكتب عبد الله بن المعتز إلى أحمد بن يحيى الشيباني أبياتًا منها:

إنـــا عـــلى البعـــاد وللتفـــرق لنلقـــي بالـــذكر إن لم نلتـــق

فأجابه: لم تعد ما في النفس، بلغك الله أملك، ونحن وإن لم نلتق كما قال رؤبة:

إني وإن لم تـــــرني فـــــإنني أراك بالغيـــــب وإن لم تـــــرني
أخوك والراعي لما استرعيتني

ولكني أحذر عليك، فإنه لا تفى محبتي إليك، ومن لم يحذر فقد ضيع الحزم، وأنا أسأل الله أن يجعل عليك واقية برحمته.

وكتب آخر: من عاقته العوائق عن المحاورة، عول على المكاتبة، وأنا آنس بذكرك فضلا عن مكاتبتك، وبمكاتبتك فضلا عن رؤيتك، ولو تقاربت المنازل كتقارب القلوب لأحبت داعي الشوق إليك في الحذاء والرداء، والضياء كتقارب القلوب لأحبت داعي الشوق إليك في الحذاء والرداء، والضياء والدجى وأنشدني منشد:

كنا نزوركم والدار جامعة ... في كل حال فلما شطت الدار

صرنا نقدر وقتًا في زيارتكم ... وليس للشوق في الأحشاء مقدار

ولرب منازل متقاربة لقلوب متباعدة، يجمعهم النفاق، وتفرق بينهم الأخلاق! وكنت كتبت إلى صديق يمرح في بعض ما يستهدي:

لا تجعلن بعد داري ... مخسًا لنصيبي

فرب شخص بعيد ... إلى الفؤاد قريب

ورب شخص قريب ... إليك غير حبيب

ما البعد والقرب إلا ... ما كان بين القلوب

لابن ثوابة: فلبثت بعدك بقلب يود لو كان عينًا فيراك، وعين تود لو كانت قلبًا فلا تخلو من ذكراك.

وقع أحمد بن صالح بن شيرزاد إلى رجل: أنت ضعيف الإخاء، قليل الوفاء، معاملك معك في عناء، ومعاشرك منك في بلاء.

وكتب إلى صديق له: وصل كتابك مخبرًا بعافيتك، مبشرًا بسلامتك، مذكرًا بلذيذ عشرتك، وطيب ألفتك، ناطقًا بصحيح ودك، وكريم عهدك، وإني لآنس بذكرك، فضلا عن مكاتبتك، وبمكاتبتك فضلا عن رؤيتك، إلا أني في ذلك كما قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

إن ما قل منك يكثر عندي وكثير من الحبيب القليل

عيسى بن فرخشانه: اعتقدت ودك، وأوجبت حقك، واعتددت بشكك، ولحفظ حالك عندي رقيب من عنايتي لا يفتر فيك لفظه، ولا يصرف عنك لحظه، وذكر السيد استيحاشه لقصدي، وحنينه إلى لقائي، والأنس آخر ما يبذل من ذات النفس، وأجل ما تخص به السادة أولياءهم، والإخوان إخوانهم، وبه تنال راحة المفاوضة والمباثة، وعليه تبنى الثقة والمشاورة، وإليه ينتهي إخاء المودة، فإذا بلغه أهلها قضوا حقوقها، واستوفوا شروطها، والسيد ممن لا يخص بأنسه إلا من ترتضي أخلاقه، وتحمد مذاهبه، وكفى بذلك فضلا لمن ناله، فأين يبلغ شكري ما قضي به من ذلك لي.

وكتب أيضًا: وأنا - والله - أيها السيد ما زلت كاتبًا، وممسكًا، وفائزًا، ومثابرًا، الوالي المخلص، والواد المصحح، ومن إذا شد عروة أوثقها، وإذا عقد مودة صدقها، ولا خير في المذق والشوب، والمماذق أخو المنافق، والشائب هدف العائب، والرجل بمواقع اختياره إذا مال ووالى، وإذا انحرف وعادى، وإذا اجتنب واجتبى، يدل على خطره وقدره، ويقوم نفسه قيمة يرجع إليها من عامله وعدل عليه.

محمد بن بحر: وصل كتابك فناب عن زهر الرياض حسنًا، وأخبر عن فتيق المسك عرفًا، لما جمع من غريب المعنى، وبديع اللفظ، وتصرف كاتبه – لا عدمته – في بر جدده، وتفضل وكده.

القاسم بن محمد الكرخي: قد واصلت أيامًا تباعًا، غدوًا إليك ورواحًا، حتى ملني البكور، وسئمني التجهيز، وشكاني الطريق، ولحاني الصديق، وفي كل ذلك أعاق عنك بالحجاب:

ولا خير في ود امرئ متكاره عليك ولا في صاحب لا توفقه

هذا من عتاب جاش به الصدر، وقل عن كتمانه الصبر، فإن عطفك حفاظ فأهل البر والفضل أنت، وإلا فإني على على العهد ولا أقول:

فما ملني الإنسان إلا مللته ولا فاتني شيء ظللت له أبكي

كاتب: أطال الله بقاءك، والمخاطبة بكل دعاء تخاطب به إخوان الصفاء وإن ضعفت اليد عن اسقصائه، وضاق ما يكتب فيه عن استيفائه.

للحسن بن مسلم: زاد الله من عمري في عمرك، ورفعك إلى الدرجة الموازية لقدرك، وضاعف الكرامة والنعمة والسعادة لك، وقدمك في المحبوب قبلي، وقدمني للمحذور قبلك، إني – وجعلني الله فداءك – وإن كنت آنس بك في الحول وقتًا، وأغبر في بقيته خلوًا مستوحشًا، فإن موقع وقتك عندي منه، كموقع ربيعة من سائر شهوره، لما يبهجني من السرور بك، ويونق بصري من بهي منظرك، ويرتغ فيه لبي من رياض علمك وأدبك، ويجدد لي من يوافق فؤادك، وملذوذ ثمار ودك، ما يروق به الربيع العيون من بهيج زينته، ويجود به على الأرض من غيوثه، ويلبسها من زخارفه، وينشر عليها من موشى حلله،

ويملأها من خصبه وبركته، وأشبه مغيبك - جعلت فداك - بأضداد هذه الصفات، غير أني أحيا بالتذكر والرجاء مدى النأي إلى اللقاء، وأجد عقلي بما أفدت في ساعة منك متقوتًا زمنًا طويلا ، يقول أنوشروان الملك: قوت العقول الحكم، وقوت الأجساد المطعم، فلا زلت من نورك مقتبسًا، ولإخوانك في القرب والبعد مؤنسًا، ولا زالت الأقدار تسعفنا فيك ببلوغ أمل، ودنو محل، حتى تطول العشرة، وتدوم الغبطة والمسرة.

كاتب: لئن بعد - أسعدك الله - مزارنا بعد قرب، لما باعد ذلك، بحمد الله، قلبًا من قلب، ولا حل مما بيننا عقدًا من ود، ولا منع من محافظة على غيب وعهد، وإن انقطعت منا المكاتبة أحيانًا لاعتناق علة أو شغل، فتواصل التشاكل لا ينقطع لانقطاع الكتب، وقد جعل الله - وله المن والطول - نعمتنا عند بعض بنجوة من التقصير، وفي حال غنية عن المعاذير، فجعل الله ما عراك تمحيصًا، وعقباه تخليصًا، وأعادك إلى أحسن ما عودك، وما لم تجري به آلاؤه عندك.

وكتب آخر: إن لم يكن جمعنا - أسعدك الله - تلاق يأنس فيه بعضنا ببعض، وتتصل به أسباب بيننا في القرب والبعد، فكفى بالمشاكلة مؤانسة، وبالمشاكهة مواصلة، تثبت علائق الثقة، وتدقع عواض الحشمة، وتزين استعمال الدالة.

لليزيدي: فأما ما عندي مما أبذله لك رغبة، وأرضى بقبولك إياه مثوبة فمودة أقيم عليها بقية عمري، وأستوفي لك حقوقها على نفسي، وطاعة أصحح فيها سري وعلني، وأتبع شروطها فيما وافقني وخالفني، وشكر أشغل به خاطري وعقلي وأعمل فيه لساني، وثناء حسن أسعى فيه وأجتهد، وذكر جميل

أقوم به وأقعد، وأن أوالي بك وأعادي، وأصافي وأصادي، ولو ملكت غير ذلك لبذلته، ولو علمت وراء ما أنا عليه مكانًا لبلغته.

وكتب آخر: ما أعلمني أن في سعة صدرك، وفضل رأيك، وعلو قدرك، ويمن تبريك، وشدة تحصيلك، وما مكن الله لك من سلطانك ما أغنى عن مسألتي عما أراه في أمري، فوالله ما حلت لك عن عهد، ولا من موالاة إلى عداوة، ولا عن وفاة إلى غدر، ولا عن شكر إلى كفر، ولا قصرت فيما ظننت إنه يقضي عني الحق بما بلغته الطاقة والوسع، فإن تكن الدنيا بلغتني ما لا يجدي معه سعي، فذلك على الزمان لا علي:

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ولا تجود يد إلا بما تجد

فوالله ما كنت بذميم العهد لك في شدة ولا رخاء، ولا في حال سراء ولا ضراء، على قدر ما تبلغه طاقتي وتناله يدي، وليس من قصر به القدر بملوم على تصبر، ولا من نصح بالنية إذا أعجزه الفعل بمعدود في أهل الغش.

كاتب: وإن الذي {يعلم السر وأخفى} ليعلم أني لم أحل لك عن عهد، ولا رجعت لك عن ود، ولا انطويت لك على غل، في وقت رخاء، ولا شدة، ولا نعمة، ولا محنة، ولا خلفتك بقبيح في نفس، ولا مال، ولا عرض من الأعراض، اللّهم إلا أن تكون تعتد علي بعتاب أجريته بيني وبينك في بعض ما يعاتب الصديق صديقه، وما ظننت أن ذلك يخرج عن طريق المودة، ولا يوجب العداوة والجفوة، لأنه أمر سلكت فيه سبيل نصيحة لم آمل فيه إلى غش لك ولا خيانة، وربما احتملت للناصح الكلمة المرة، ولم تخرجه عن حد الأمانة والثقة، وإن كان مخطئًا في المشورة، لأنه قد اجتهد عند نفسه ولم يرد سوءًا ولا غائلة.

كاتب: وقد هيأ الله لك دولة لست تغبي فيها عن الإحسان إلى المحسن جزاء له، والتغمد للمسيء احتجاجًا عند الله، وطلبًا للفضل الذي لا يذم أخذ به، فإن مدد الأعمار، فضلا عن الدول، قصيرة، وأيام العز، وإن طالت يسيرة، وإن اعتقدت فيها المنن اتبعتها أيام الشكر، وهي أحسن منها عاقبة وأحمد مغبة، وشراء الصديق صعب عسير، وبيعه سهل ممكن، وحيث وجهت المعروف فهو عائد بثناء جميل، أو ثواب جزيل، وقليل البر يستبعد لك الحر، ويستر الهوان بصرف وجوه الأمال:

ومن يسأل الأيام نأي صديقه وصرف الليالي يعط ما كان يسأل

أحمد بن إسماعيل بن عباد: فما كان أولاك أن تحميني من سوء الظن بك، وألا تجعل من مصائبي المصيبة بمودتك، وأن أعجب عندي من إمساكك عن مكاتبتي إمساكك عن ذكري في كتبك إلى قوم قد علمت أنهم لا يخفون عني مكاتبتك إياهم، ولكني مع هذا أقول:

أترسل بالسلام وصدر عيسى يشد على عدوي الحزام
فلولا أن يكون العهد منكم لما أرسلت نحوكم سلامي
ولكن الفتى ليست عليه تمائم قد علمت من الحمام

ولا أقول فيك كما قال إبراهيم بن المهدي لعمرو بن بانة ودعاه يومًا فامتنع من المصير إليه لسخط السلطان عليه فكتب إليه: ليس يخلو أمير المؤمنين أن يكون ساخطًا فما يأبى أن يغرني، وإنك لموقوف بينهما بحمد الله، فأما فلان فلو كان الصديق إذا نزلت به نائبة، أو نالته نكبة، أو نبا به الدهر نبوة استوى عدوه وصديقه في الجفاء به، والاحتراس من خلطته وعشرته، وتلك معونته على دهره، لكان اسم الصديق اسمًا معلقًا على غير معنى، ولكانت حرمة مودته،

واعتقاد إخائه في أيام الرخاء وزمانه ضياعًا لا حظ فيه، كلا والله إن الرجل ليبذل لأخيه في النكبة ماله، وقد أعفى الله مالك وإنه لحظر نفسه في معونته، وقد صان الله نفسك لك، وإنه ليفارق الأوطان والأهلين في إيثار موافقته، ولقد أعفاك الله من أن ترد عليك مسألة في ذلك، وما أردت إلا أن أعلم أن لي صديقًا قد أبقى لي الدهر منه مثل الذي أخذ، وأنفس منه، وأن الأيام لم تبلغ من مساءتي كل ما أحذره، ولله روح منتظر، وفرج مأمول، وصنع متوقع، ولنا ذنوب ما نتهم غيرها، ورحمة الله أكثر منها.

كتب ابن أبي البغل إلى النعمان بن عبد الله أبي المنذر: كتابي – أدام

الله عزك – من أصفهان، وعادة الله عندي جميلة، والحمد لله رب العالمين، ولم تتأخر كتبي عنك – جعلني الله فداءك – مع ما ألزمه نفسي من الحقوق المعترضة للمتقدمين في المنزلة المرعية بين المتخالصين في المودة، لا إغفالا للحق، ولا إضاعة للحظ، لكن عرضت لي أحوال وأشغال وأسفار ورجوت أن تزيل عني الاستزادة تمحل لي عذرًا كعذرك في تأخر كتبك فتقع متاركة أو مسامحة، ثم جرت خطوب تكشفت عما ساءني منك، وخفت أن يغني العتاب من إعتابك في سورتك، فأمهلت توقعًا إلى الغاية، ومؤملا منك عند بلوغها حسن المراجعة، وأن تتأمل فتعلم أني ما حلت عن عهدك، ولا زلت عن ودك، ولا جنيت بيد ولا لسان عليك فتتوكل لي على نفسك، وتتعطف بجميل أخلاقك، وترعى مني ما يرعاه الحر من صديقه، وتبقي علي مما أجريت إليه، فاستمر بك اللجاج ووصلت ما أتيته في أمر فلان بإدامة النبو عني، والوضع مني، وجعلت ذكري باللقب دون الاسم، وبالاسم دون الكنية، وبالكنية دون الدعاء، وما هكذا أفعل عند ذكرك، ولا أخللت بما يجب علي من عظيمك

ووصف فضلك ومحاسنك، ولولا الرغبة فيك، والضن بك لوجدت عن هذا القول مذهبًا ومنتدحًا، ولكني ملكتك مني رق المودة فقل صبري على سوء.

القاسم بن محمد الكرخي: لو كنت أعلم أنك تعتب إذا عاتبت لشدوت من ذلك في مذهب لا أبلغ بك فيه القصوى، ولا أقتصر منه على الأدنى، ولا أخليك من الاستزاده في غير شكوى، والتعريف في غير تعنيف، والاحتجاج في غير تبكيت ولا توقيف، ولكن شر القول ما لم يسمع، ولم يكن لقائله فيه منتفع، وأشبه البر بالعقوق ما استكرهت عليه النفوس، ولم يكن له باعث من النية والضمير:

وليس بمغن في المودة شافع إذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وما آمن أن أكون قد عزرت بمن كتبت له إليك فإن كنت قد حلت عن كل جهة فهنيئًا لك سوء العهد.

وله: الكتب تحيي ما أمات الفراق، وتجدد من عهد المودة ما أخلقه الزمان، وقد انقطعت بيننا انقطاعًا كاد يعرض الشك معه في اليقين المعتمد عليه، والصحيح الموثوق به من إخائك، على أني لا أصرف شيئًا من العتاب إليك إلا عدت على نفسي بأمثاله لك، واستوفيت عليها استيفاء غير مسامح لها في المعذرة، ولا معذر في المعاتبة، فإن الحقوق بيننا توجب من التواصل ما نحن على ضده في ظاهر التعامل، فأما ما تنطوي عليه النيات ودًّا وإخلاصًا فأرجو أن أكون فيه على منزلة تعجز المجتهد، وأن تكون على مثلها، وذلك هو الغرض المقصود، والمغزى المأمول، فإن الواصل بنية وإن انقطعت كتبه واصل، والواصل بنفسه إذا مذق وده أقطع.

كاتب: أنت - أعزك الله - واجد عندي مودة غير مدخولة، وعشرة

غير مملولة، ودوام عهد على طول المودة، وحسن احتمال للصنيعة، واستقلالا يشكر العارفة، مع سعة العذر، ولين المطالبة، والتغمد بالصفح عند الزلة، والصبر على الجفوة في غير ذلة، والتغابي الذي يجلب الغفلة، واستفراغ المجهود في تحري الموافقة، ولست مسئولا إلا ما تتعاطاه ممكنًا، وتبذله، وتوجب ما سألنا، فالفضل معك، والرغبة إليك، وإلا فحط ما أضعت، ويسر ما منعت، على ظننا يتجاوز حد الظنون، تشبيهًا بالعيان، وقريبًا من اليقين، ألا نفند رأيك، ولا نسوء اختيارك، إن شاء الله.

سعيد بن عبد الملك في الحث على المواصلة: أكره أن أصف لك ولنفسي موضع العذر والقبول، فيكون أحدنا معتذرًا مقصرًا، والآخر مقبلا متفضلا، ولكني أذكرك ما في التلاقي من تجديد البر، وفي التخلف من قلة الصبر، والله أسأل أن يوفقك وإيانا لما تكون معه عقبى شكر، لا عقبى صبر.

كاتب: أخبرني - جعلني الله فداءك - أحصلنا منك على اعتلالات تتمحلها، ومعاذير نتخيلها، في هجر تظهره، وتدعي أنك لا تستشعره،

وجفاء تبديه، وتزعم أنك لا تنويه، لا كان من قبل هذا ولا أفلح، لأني إنما أحب اعتقاد الصديق لي الخير لتولينيه، وأكره انطواء العذر لي على القبيح خوفًا من أن تبلينيه، وإذا كان فعلاهما بي سببين لم أعرف بهما فاصلا، لأن السرائر مغيبة عن العيان، ولو اطلع عليها لما كان في صافيها نفع، ولا في دخل دخيلها ضرر، ما لم يبد من أهل السوء والشر، بل لكان العدو الذي أحذره ويسرني، أحب إلي من صديق آمنه ويغرني، وأسكن إليه ويضرني، ولهذه العلة تراني

أخالف أكثر الناس في هذا الباب وأقول: إن الواجب أن ترد باطن الناس إلى ظاهرهم، وتستشهد أفعالهم على سرائرهم، إذ كانت الأفعال نتائج النيات وثمراتها، وأسلك مع إخواني في هذا السبيل وأسألهم أن يجروني على مثل هذه الوتيرة، ويعفوني من سريرة لا تعلم مصدوقتها، ولا تعرف حقيقتها، وأجريهم على ذلك فليس من العدل أن يطالب المرء لنفسه بما لا يبذله منها، وإذا عاملت الصديق الذي تصافيه بالجفاء، فقد حملته على السيرة في الأعداء، وهذا فاحش الخطأ، وأفحش منه أن تمنح العدو من الصلة تصنعًا، ما تمنعه الصديق تطوعًا، والله المستعان والمستودع لما لديك، والمستزاد في الإحسان إليك.

كاتب: وليس يضيق بيننا أمر من جهة الحجة إلا اتسع من قبل المودة، والحرمة، والأسباب المتصلة.

آخر: وأنت أيها الأخ في حال الجفوة إذا اعتمدتها أبر من غيرك في حال الصلة إذا توخاها وقصدها.

آخر: ولولا أنك قلت فقلت، وكتبت فأجبت، لكان ما عندك من المعرفة بموقعي منك في هذا وغيره مغنيًا عن الإفصاح، ونائبًا عن الإيضاح، وليس ينبغي لنا أن نتنازع فضلا متى تفرد به أحدنا فهو شائع بيننا، إذ كان ما خصك فقد خصني، وما شملك فقد شملني وأنا أسال الله إذا منَّ بالنعمة أن يجعلك المقدم فيها، وإذا امتحن بمحنة أن يجعلني وقاية لك منها.

كاتب: أنت تعرض عني إعراض المتجرم، وترجع إذا رجعت رجوع المتذمم، فأما ما سبق إلى قلبك من التهمة فكيف أطنب في مساءتك، وعلى قلبي من هواك رقيب يحجره أن يتصرف إلا في إرادتك.

سعيد بن عبد الملك: أول أسباب المودة ما أنت به عارف، وله آلف، وإن كنت لا أعتد به برًّا، بل أرى لك فيه منَّة وحقًّا إذ صدقت المخيلة، وخلصت على المحبة، ولست أستريب بما توجبه على حال من الأحوال، بل أشكرك على النية دون الفعل، وتلك إرادة مثلي ومثلك، وعندي مزيد لكل ما تحب، وإسراع إلى كل ما تهوى وتريد.

كاتب: والله لا قابل إحسانك مني كفر، ولا تبع إحساني إليك منّ، ولك عندي يد لا أقبضها عن نفعك، وأخرى لا أبسطها إلى ظلمك، فتجنب ما يسخطني فإني أصون وجهك عن ذل الاعتذار.

حمد بن مهران: لي - أعزك الله - سابق حرمة يحفظها مثلك ولو اجترمت، ومتقدم حق يرعاه كرمك ولو اقترفت، وسالف لا ينقضه وفاؤك ولو اجترحت، وخالص مودة لا يضيعه حياؤك ولو زللت.

جعفر بن يحيى: عندنا الاغتفار لما اقترفت، وسالف لا ينقضه وفاؤك ولو اجترحت، وخالص مودة لا يضيعه حياؤك ولو زللت.

جعفر بن يحيى: عندنا الاغتفار لما اقترفت، وتصديق كل ما قلت

واحتججت بذكره، واعتذرت بوصفه، والإسقاط لما جحدته، والإكذاب للجور الذي اقترفته، والرجوع عما أنكرته، والزيادة فيما اخترته، واستدعاء لك وإن انصرفت، وحياطة لما قدمت وإن ذممت، وإيثارًا للإغضاء والاحتمال فإنها أبلغ في الإصلاح، وأنجع في الاستنجاح، وأبلغ في التعليم، وأكبر في التوقيم، وإن احتيج إليه في مثلك ممن تؤمن عليه قريحته، وترده إلى الاستقامة تجربته.

سليمان بن وهب: من انصرف عن الحجة إلى الإقرار بما يلزمه وإن لم يكن لازمًا فقد لطف للاستعطاف، واستوجب المسامحة والإنصاف.

لابن ثوابة: وصل إلي كتاب مخالف لما كنت أعرفك به من الصفح، والفضل، والأخذ بمحاسن الأمور، فإن كنت شفيت به غيظًا، وبردت به غليلا فما أسهله، وإن كنت لم تندم عليه ندم المتنزه عن سوء المجازاة، ولم تراجع الجميل بعده فما أشده، وأي ذنب كان فأرجو أن لا يجتمع على عبدك الخطأ والإصرار على الذنب، ولا أفارق استصلاح رأيك، وارتجاع ودك ما حييت وإن لم أصل إلى حيازة ما كان لي منه، فإني قانع ببعضه، ما استقل شيئًا من أقسامه، ولا أيأس فيك من عقبى الأيام، وحين مراجعة الدهر حتى يكون هذا الذي حدث بيننا من ظلم وعتب منك نافيًا لكل وحشة، ومؤكدًا لكل ثقة، فلست فيما أنكرته بواجد، ولا الفضل في أخلاقك وشيمك بمستغرب.

وله: فإن رأيت أن أصفح مستأنفًا، كما صفحت متقدمًا، وتتفضل عائدًا كما كان الفضل منك بادئًا، فإني قاطع كل سبب إلا ما وصلني بك، وتارك مكاتبة الناس جميعًا إلا من أجرى لي ذكرًا عندك، واستدعى إحسانًا ورفدًا منك.

لمحمد بن مكرم: وخاتمة الأعذار بيني وبينك صدقي إياك عما عندي أنك لا تحدث نبوة، إلا أحدثت لي عنك سلوة، ولا يزداد أملي في إثابتك ضعفًا، إلا ازدادت منتي في قطيعتك قوة، حتى لا أقبل العتبى، ولا أختار المراجعة، وحتى يسلمني لليأس منك إلى العزاء عنك، فإن ترع فصفح لا تثريب فيه، وإن تماديت فهجر لا وصل بعده، والسلام.

وله: ما زالت نيتي وسريرتي الحفاظ الحر، والوفاء المر لإخواني عند النكبات كما قال حماد عجرد:

أنا عبد الوفاء لا أطلب الدهر ... من الرق ما حييت فكاكا

وصل الله لك بالصنع صنعًا ... وبالمزيد مزيدًا

البصير: من ذممت عهده، واستقرت فعله، أو لبسته على التجاوز له عما أنكر فأنت الأخ المرضي إخاؤه، والمحمود عندي بلاؤه، المخالط أمري بأمره، في عسره ويسره، الباذل ما لا أسأله، والحامل لي على نفسه فوق ما أحمله، ومن لا يخلفني عدة المثابرة عليه، ويخل بموضعي عند إيابي إياه.

وله: فأما من احتج في إساءته وأغضبه على أخيه أن يستعتبه فقد جعل العقل خصمه، وظلم الإخاء حقه، وما ساهلناك فيه، أو حادثناك إياه فلفرط الضن بك، والمحاماة عن ودك، والله يقيني فيك، ويدفع لي عنك.

شاعر:

وإذا ينوبك والحوادث جمة ... حدث حداك إلى أخيك الأوثق

كتب عمارة بن حمزة إلى محمد بن زياد الحارثي يطلب إخاءه:

أما بعد فإن أهل الفضل في اللب، والوفاء في الود، والكرم في الحق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلهم، ويخبر عن صحة

ودهم، وثقة مؤاخاتهم، فتجوز لهم بذلك رعية الإخوان، وتصطفى لهم سلامة الصدور، وتجتنى لهم ثمرة القلوب، ولقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك، وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلي مرتبها في الفضل، وجمل بها ثناؤك

في الذكر، وشهد لك بها لسان الصدق، فعرفت بمناقبها، ووسمت بمحاسنها، وأسرع إليك الإخوان بمحبتهم مستبقين، وبرغبتهم فيك متقاطرين، يبتدرون ودك، ويصلون حبلك، فمن أثبت الله عندك ودًّا فقد وضع خلته عندك موضع الحرز والثقة، وملأ به يديه من أخي وفاء وصلة، واستنام بك إلى شعب مأمون، وعهد محفوظ، وصار مغمورًا بفضلك عليه في الود، يتعاطى من مكافأتك ما لا يستطيع، ويتطلب منه ما لا يلحق، ولو كنت لا تؤاخي إلا من كان في وزنك، وبلغ من الخلال مبلغ حدك، ولا آخيت أحدًا، ولكنت من الإخوان صفرًا، وقد رأيت أن آخذ بنصيبِي من ودك، وأصل وثيقة حبلي بحبلك، وعملت أن تركي ذلك غبن، وإضاعتي إياه جهل.

وله: غير أني إن كنت مقصر القوة، فلست بمقصر النية، وإن كنت مقصر الرأي، فلست بمقصر الرغبة.

وله أيضًا: أما بعد فإن خير الإخوان من عظم حلمه، وحسن لفظه، وشرهم من عجلت بادرته، وساءت مقالته، وقد عرفنا فضلك، وعدنا إلى موافقتك، فصل الأول من طولك، بالآخر من مراجعتك.

وله: لا تكن كمن يرى الحسن من نفسه، ويتغابى عن الجميل من غيره، وإني المأمون اليوم في إخائه، المداوم لمن عاهد بوفائه، والغالب على الأكثر ملق النطق، والتلافي بالظنون.

ابن المقفع: أما بعد: أصلحنا الله وإياك صلاحًا دائمًا يجمع لنا ولك به الفضيلة في العاجلة، والكرامة في الآجلة، فإني لا أعرف أمرًا أعظم عند أهل منفعة من أمر ترك ذكره لفضله، ولا أعلم أمرًا أحق بأن يستغنى أهله بفضله

عندهم عن ذكره فيما بينهم من أمر أوشج الله بيننا وبينك في الدنيا أسبابه، وثبت حقوقه، وعظم حرمته فأبقى الله لنا ولك ما أحرزه بيننا وبينك في الدنيا حتى نكون إخوانًا في الآخرة حين تصير الخلة عداوة بين أهلها إلا خلة المتقين.

كاتب: لا تجمعن دعوى السراة، وتكبر الولاة، وتحكم القضاة.

كاتب: لا تدعوك قوة ملكك لفضلك في صلة إخوانك إلى استصغار ما يتخلصون إليه من صلتك، فإنك إن قايستهم بتفضلك عليهم قل كثيرهم في جنب ما يأتيه إليهم.

كاتب: إنا – حفظك الله – لو كنا قطعناك ثم كافأتنا بقطيعتك إيانا ما كان لك أن تفردنا بالذنب دون نفسك إذ صرت فيه نظيرًا، لأنك أنكرت علينا ما ركبته، وطلبت منا ما تركته، وقد علمت أن المكافئ لم يدع وراء ما فعل، ولا يستوجب تقاصي ما جهل، فاحكم لنا عليك بمثل ما تحكم به علينا لك.

جرير بن يزيد: أما بعد: فإنه لولا خلق الله له الناس من تقِل قلوبهم، وتصرف حالاتهم ونياتهم واختلافهم، لما تشعبوا من أصلهم، ولا ائتلف منهم اثنان بعد تشعبهم، ولابد فيما يحدث بين الناس من علل الوحشة، وأسباب العداوة والفرقة، ويجري بينهم من المودة ودواعي الصلة من سابق ومسبوق، وداع ومجيب، فسابق إلى قطيعة يجتني بها من صاحبه الوحشة، ومبتدئ بصلة يجتلب بها من صاحبه الثقة، ويزرع بها في قلبه المقة، وقد بلغني عنك في وفائك وفضلك ما حركني لودك، ورغبني في خلتك، ودعاني إلى طلب فضلك، فأجبت دعاءك إلى الصلة والملاطفة بما أحسست لك من الثقة، وحدث لي فيك من الرغبى، فاقبل ما بدا لك من ودنا، وأحسن الإجابة إلى ما دعوناك إليه من

إخائنا، واتبعنا بإحسان إذ كان الابتداء منا، فإن المجيب إلى الجميل شريك الراغب فيه، وإن المكافئ به شكل لمسديه، ولا تكرهن أن تكون لنا إذ دعوناك مجيبًا، وإذ سبقناك بالفضيلة تابعًا، فأنا قد أحسنا إجابة فضلك، واعلم أنك لو كنت سبقتنا إلى الصلة، وتقدمتنا إلى الرغبة، وطلبت فضلنا عليك بالمودة كنت بذلك للطول أهلا، وبه جديرًا، لأن مثلك في ذلك عطف نفسه على نفسه، ومثلنا رغب في صلته.

الحسن بن وهب إلى أبي صالح: لولا اتكالي عليك، لكثرت كتبي إليك، وإذا استحكمت الثقة نقص البر، لما يدخل النفوس من الكسل عن العمل، والاسترسال إلى الاتكال.

فكتب إليه أبو صالح وكتب في آخره:

يا مشفقًا حذرًا على ودي له ... كن كيف شئت فإنني بك واثق

كاتب: صمتت مخاصمة نفسي لك بلسان عذرك، فأنا وكيلك على ما أصلح من قلبي لك، وأمينك على القيام على نفسي بحجتك.

سعيد بن حميد: أنا - جعلت فداءك - أعتذر إليك بالشغل، وأعذرك به، وأرى أن من سلمت نيته، وصحت علانيته ومودته، لم يقدح في الثقة به، ولم يكن في تأخير كتبه ورسله ما يزيل إخاءه عن عهد، والله يديم نعمه لك، ويقدمني قبلك.

حمد بن مهران: وأما فلان فهو والله النفيس ودًّا، والوفي عهدًا، والبعيد من الأذى، الصافي من القذى، المتوطئ سرًّا وإعلانًا في إعظامك، وشكر إنعامك، والابتهاج بأيامك، وأكره حثك على زيادته فيكون قدحًا في رعايتك الذمام

لأهله، وسوء ظن بما توجبه لمثله، وكتابك إذا ورد آنس وسر، إلى أن نستغني بالنظر عن الخبر، وعن التكاتب بالتزاور.

كاتب: تفضلك يا أخي - أدام الله عزك - في وقت يتظاهر علي، وبرك يتوالى ويتضاعف لدي، وإن كان شكري دون ما تستحقه، فقد جل ما أوليتنيه عن الشكر، وأنت الذي بلغتني ما أردته، وأوطأتني خد الزمان على قسر، وما زلت - يعلم الله - قبل المشاهدة، أعد نفسي منك بجميل المساعدة، وعظيم المعاضدة، ثم وقع الالتقاء فصدق مخايل الفراسة، وبين آثار النفاسة، وقد - والله - استخلصتني أخًا صادق الإخاء، خالصًا من الأقذاء، يتصل شكره واعتداده، وتدوم محبته ووداده، فإن كان سيدنا عظيم الرعاية، كثير الإيجاب والعناية، فالمنة فيما ألفيته عليه من ذلك لك، لأنك جددت ما درس ذكره، وأحييت ما تقادم عهده، ووكدت اليد عند من تنمى عنده، وأنا أسأل الله أن يعلي يدك بالمكارم والفضائل، ويبسطها بالعرف والنائل، ولا يخليك من جميل أقسامه، وجزيل مواهبه وإنعامه، ومهما شككت في شيء أو ارتبت به فما يتخالجني شك ولا ارتياب في أنه لا مزيد في نيتك، ولا عناية فوق عنايتك، وإلى هذا اليقين قد سكنت نفسي، وبقوة الأمل فيك قويت منتي، وبحمايتك إياي استدركني، وبإزالتك ما أحذر زالت الفكرة عني، فلا أعدمنيك الله، وبلغك أمانيك، وبلغني غاية المحاب فيك.

شاعر:

أجيراننا ما أوحش الدار بعدكم إذا غبتم عنها ونحن حضور

كاتب: أنا أخوك المشارك لك في نعمتك الذي - يعلم الله - إنك تضعه بحيث يريد لنفسه من قلبك ونظرك، وأنت الذي لا أستزيد ولا أحتاج إلى كده لاكتفائي بعفوه وحسن ظني به لمن ليس مثلي من أهله.

كاتب: قد فتحت علي باب المعتبة، وأحوجتني إلى أن أغلقه عني بالمعذرة والحجة، وكلفتني من ذلك ما لم يكن لي خلقًا ولا عادة، ورأيتك عجلت فقبلت صيغة لسان كاذب، واستعملت مقالة بائر فاجر، فاستمع وأنصف، ولا يذهبن بك هوى مسرف، ولا يغلبن عليك شيء سبق إلى أذن أو قلب، فليس لك أن تغفل ولا تتغافل، ولا تجعل توهمًا كحق، ولا يقينًا كشك.

كاتب: أنا من الشوق إليك على ما يستوي في العجز عن وصفه الخطيب المصقع، والعي المفحم، وحق لمن فقدك ألا يقنع بغيرك، ولا يسكن قلبه دونك، لأن الله جعلك صفوًا لا كدر فيه، ووفاء لا غدر معه، فأما ما ذكرت مما توجبه لي وتتحراه في، فتفضلك الذي سبق استيجابي، وبرك الذي تقدم استحقاقي، وحقيق من جمع الله له خصال الفضل ما جمع لك برب معروف أسداه، وإتمام جميل ابتداه.

كاتب: لو اعتصم شوقي بمثل سلوك عن صلتي، لم أبتذل لك وجه الرغبة فيك، ولا تحسيت مرارة تماديك، ولكن استخفتني صبابة إليك فاحتملت صعب قسوتك، لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من انتصر لصلتي من جفائه، ولشوقي من إبطائه.

إبراهيم بن المدبر: ذكرت - جعلني الله فداءك - خوفك إملالي، والزيادة في إشغالي بكثرة كتبك، فأقول أخي قدمت قلبك، لم أرزق فيما قلته عدلك، هل

يمل الروح جسده، والجسد جوارحه، والجوارح سلامتها، والسلامة دوامها؟ ظلمتني عفا الله عنك، فأما الشغل فيك ولك، فإنه غير منقطع بذكرك والفكر فيك، والشوق والنزاع إليك، والخوض والإفاضة في محاسنك، والله ولي جمعنا سريعًا بما هو أهله، وقد كان والله قلبي شديد التطلع إلى ورود خبرك، وعلم وصول كتابي إليك لما كان يتصور لي من ابتهاجك به وأنسك بقراءته، قياسًا غير فاسد على موقع كتابك مني، وجلالته في نفسي، واغتباطي به، وسكوني إليه، وسروري به، فالحمد لله الذي تفضل من ذلك بما هو أهله ووليه.

وله: إني - لا أفقدني الله فائدة ودك - لما فقدت ما كنت تطالعني به من كتبك التي كانت منتزهات بصري، ومراتع لبي، ومسار قلبي، وكنت لا تخليني منها، مبتدئًا ومجيبًا، ولا تحوجني إلى التحريك فيها مستطبًا أو مستزيدًا، أعملت الفكر في ذلك فقلت: أجفوة؟ فكيف يجفو من ليس الجفاء من طبعه، أم نبوة؟ فكيف ينبو الشكل عن شكله، أم شغل؟ فهلا جعلني من شغله، أم علة؟ فكانت أحرى للنادرة بخبره، أم فرط ثقة منبه بي؟ فذلك لعمري أشبه به، فلما كانت هذه الخلة أثبت في الوهم، وأغلب في الظن سكنت نفسي إليها، وأتت مع سكونها إلا ما عودتها من النعمة بالمكاتبة، والإيناس بخبر السلامة.

سعيد بن حميد: ولكنك - والله يتولى عونك - لا تضعف عن حق وإن عرضت دونه العلل، ولا يتسهل لك سبيل إلى التقصير وإن سهلها العذر.

وله إلى محمد بن عيسى: فأما الوحشة لفراقك فعلى حسب الأنس بقربك، والسرور بمكانك، وما وهب الله منك لإخوانك، فإنك بحمد الله ممن لا يدخر بودهم مودة، ولا ينفرد عنهم بنعمة، ولا يؤثر نفسه عليهم في فائدة، ولا يسلمهم عند ثلمة، ولا يخليهم من محافظة ورعاية، ولا أدري أأدعو لك بدوام

الحال التي أنت فيها فأعق نفسي، وأؤثر برك، إلا أنني أسأل الله أن يحسن لك الاختيار حيث استقرت بك الدار، وتصرفت بك الحال، وأن يقينا فيك نوائب الأقدار، وحوادث الأيام، بمنه وطوله.

سعيد بن حنيف: يا سيد أخيه، ومولى عبده، ونسيج وجده وقريع زمانه، ومالك قلوب إخوانه، أطال الله بقاءك، وقفت من رقعتك - أعزك الله - على ما أذكرني الفراق قبل وقته، وعجل لي الاستيحاش ولم يحن حينه، وهيج - والله - علي أحزانًا قد كان متقادمها دفينًا يرجى زواله، فعاد مكينًا يحذر استفحاله، وأخطر ببالي ذكر أبيات ودعت بها أخًا فارقنا مرتحلا من طرسوس إلى الرملة، وكان كثير الإخوان، فودعه كل من شيعه من المنادمين بكلام منثور، وشعر مأثور، ونحن إذ ذاك أحداث وأتراب فكتبت إليه:

أبا بكر لئن صرفتك عنا ... تصاريف الحوادث والدهور
لقبلك نحن للشام ارتحلنا ... وإن كنا أقمنا بالثغور
فلم نرحل بأنفسنا ولكن ... بمحض الشوق عن مهج الصدور
فقدت بفقدك الود المصفى ... وأخلاقًا تكشفت عن بدور
أشيعه إلى سفر كأني ... أشيع والدي إلى القبور
وما ودعته إلا ونفسي ... تودعني بتوديع السرور
ولا أتبعته باللحظ إلا ... رددت اللحظ عن طرف حسير
أدافع عن مفارقتيه جهدي ... وكيف دفاع مقدور الأمور
وكان الشهر قبل اليوم يومًا ... فصار اليوم بعدك كالشهور
إذا ما الليل أخلصني محبًا ... وأسلمني إلى طرف سهور
أناجي فكرة أدنو وتنأى ... وتنطق حين أسكت عن ضميري

تسافر وهي لو صدقت مناها تمنت صدقها ذاك المسير
إذا لم أستطع بالدمع حزنًا على يوم الفراق فمن مجيري
أما حكم قضى حكم افتراق على جمع الأحبة بالقدير

أحمد بن سعد: ومهما أنكرت على نفسي ثباتًا على عهدك، ومقامًا على طاعتك، تحسن لي القبيح من فعلك، وتتخطى بي في مقابلة العتب إلى العتبي، والسخط إلى الرضا، وتقرب عندي من أسباب عذرك ما بعد، وتوضح من غامضه ما أشكل، حتى إذا أغناني الإنصاف منك لم تنب عنك منزلة الاعتراف التي تقتضيك الصفح عن الذنب، فكيف البراءة والعذر، فإن كنت محقًا فالحجة معي، وإن كنت جانبًا فهذا عذري.

وله: فكيف صرت تعذر نفسك وتعذلني، وتعفيها وتطلبني، وكان الحق عليك في تعهدي أوجب منه علي لفراغك وشغلي، وتمهلك وعجلتي، واستقرارك ووقاري، وأنت تعلم أني لم أقرأ لك كتابًا إلا هذا الكتاب المشحون بالعتاب، فإن شئت أن تستقصي المحاسبة فما أراك تتعداها بالحجة إلى غيرك، وجملة الأمر عندي بذل العتبى، ووقف نفسي على طاعتك.

كاتب: ووجدت استصغارك لعظيم ذنبي، أعظم لقدر تجاوزك عني، ولعمري ما جل ذنب يقاس إلى فضلك، ولا عظم جرم يضاف إلى صفحك، ويعول فيه على كرم عفوك، وإن كان قد وسعه حلمك، فأصبح جليله عندك محتقرًا، وعظيمه لديك مستصغرًا، إنه عندي لفي أقبح صور الذنوب، وأعلى رتب العيوب، غير أنه لولا بوادر السفهاء، لم تعرف فضائل الحلماء، ولولا ظهور نقص بعض الأتباع لم يبن جمال الرؤساء، ولولا إلمام الملمين بالذنب لبطل تطول المتطولين بالصفح، وإني لأرجو أن يمنحك الله السلامة بطلبك

لها، ويقيلك العثرات العثرات بإقالتك أهلها، وما علمت أني وقفت منك على نعمة أتدبرها إلا وجدتها تستمل على فائدة فضل، تتبعها عائدة عقل.

كاتب: وفضل ملك الإنعام ألزم من ملك الرق، ورق الحر أفخر من رق العبد، والعبد يعطيك طاعته طوعًا، وقد حزت مني طاعة العبد بنعمتك، وشكر المعتق بمنتك، ولا تزال دواعي الحفاظ تقتضيني الكتاب إليك بما انطوى عليه لك، فأكتب إليك إذا كتبت متعهدًا بالخدمة، وأترك إذا تركت إجلالا ومهابة، فإن أنزلت ذلك مني منزلته عندي جريت على سبيلي فيه، فإن مثلت لي غيره صرت إليه إن شاء الله.

سعيد بن حميد: ولو قلت إن الحق مسقط عني عيادتك لأني عليل بعلتك لصدقني الشاهد العدل من ضميرك، والأبر البادي من حالي لعينك، وأصح الخبر ما حققه الأثر، وأفضل القول ما كان عليه دليل من الفعل.

كاتب: وحضرته في مواطن العفو والعقوبة، فرأيته لا يتوخى لعفوه إلا من يرجو نزوعه عن الذنب، ولا يتجاوز بعقوبته إذا عاقب قدر مبلغ الجرم، ولا يؤاخذ بالإساءة من لم يتعمدها، ولا يحرم العائدة من استحقها، قد شاورته في أمور، فجمع لي العلم والنصحية، واستعنته على دهري فجمع لي لطف المكيدة، وبسالة النجدة، واستودعته سري فوليه بالحفاظ والأمانة، ووقفته على ما أهوى فحط إليه بالاجتهاد والمسارعة، وعرفته ما أكره فأدبر عنه بالتوقي والهيبة، ورأيته مضطلعًا بالنوائب، صبروا على الحق الواجب، محافظًا على الحقائق، لازمًا لعرى الوثائق، لازمًا لعرى الوثائق، يقف عند الشبهة، ولا يخشى إقدامه قبل التثبت، وأحزم عند المعرفة فلا يخاف بصنعه للتقدم بالحزم، يتغابى عن كثير مما يكره من رأي الإخوان والخلطاء، إما إغضاء من كرم يكره التوقيف

على التقصير، وإما محاجزة من أريب يكره المكاشفة فلا يعجل إلى العتاب حتى ينظر في مواقع العذر، ولا يلوم اللائمة حتى يبلغ غاية الفحص، ورأيت أحب الأمور إليه أوساطها، وأخف الحالات عليه أقصدها، من غير أن يدع الاستكثار من الإحسان بجهده، والتحفظ من الإساءة بملغ رأيه، لا غاية لحرصه على اعتقاد الفصل، ولا نهاية لرغبته في مجانية القصير، لا يستخفه السرور، ولا يضعضعه المكروه، ولا تزدهيه الحاجة، ولا تمهله الضرورة، قد قدر أموره على الصدق، ونزه نفسه عن الكذب، معظمًا لكل ما يسدي إليه من الجميل، مجتهدًا لنفسه في أداء ما يجب عليه من الشكر، لا يقتصر من المكافأة على السواء دون أن يتجاوزه إلى الإفضال، لا يتبع صنيعته منًّا، ولا يلتمس منها عوضًا، ولا يلزم أهلا بها مكافأة ولا شكرًا، إنما غايته في الإحسان احتراز الفضل، واكتساب الحمد، واحتساب الأجر، قد حطه التدبير عن البذير، وردعه الجور عن التقدير، فهو الذي لا تجاوزه همتك في فضل، ولا يقصر عنك رأيك في اختيار، بل أعظم الحاجة إليه من إخوانك، وعندهم به أعظم الغنى عنك في نوائب دهرك، وتنقل الحالات بك، قد كفيناك خبرته، واعتقدنا لك إخاءه وثقته، فالقه بألطف بشرك، وأحسن قبولك، واخفض له كنفك، وأخلص بينه وبينك مودتك، واسترسل إليه بذات نفسك، واسكن إليه بمكنون سرك، وأدخله معك في مهم أمرك، فإنك تبلغ بيسير خلطته من معرفة فضله، وكرم إخائه، وصحة وفائه، ونبل رأيه ما يكتفي به دليلا على كل ما تحب علمه من أمره.

كلثوم بن عمرو العتابي كتب إلى ريطة عن حفصة ابنته:

إن أول حاجتي إليك أن تتدبري كتابي إليك تدبر إنصاف، ثم تجيبني عنه جواب متثبت، فإن أخفى الجور جور الاستماع، وأنفع العدل عدل الجواب، وليس فيما بين هاتين موضع قدم لواحد من الأمرين، وأصل اختلاف العباد في جميع الأمور من علتين: إما جهل بما يدعون، وإما جحد لما يعرفون، والجاهل بما يدعي أرجى رجعة من الجاحد لما يعرف، وإن كان لا عذر له في ترك علم ما يجهل، كما لا عذر لأحد في جحد معروف، ولست أدري إذا ناضحت حجته أي حاليه أولى بالتعانيف، أجهله من جميل كنت أفعله؟ أم جحده بعد تعريف وتوقيف؟ وما اقتصرت بك على أدنى حال الإنصاف ألا أكون راجية أن أجدك في أفضلها، ولكني نهضت إلى الانتصاح من لا يميل بواضح يغنيني عن شبه المعاذير، ولم آمن مع ذلك أن تظني أني إلى مشكلات الأمور مضطرة، ولم أكن لأقدم الوهن، وأخلف القوة، ومع ذلك فإن من الحق ما يخبئ نار اللجاجة، ومنه ما يذكيها، فأتيتك من أقرب مأتاك، فلا يكونن ما أفدت به رضاك علة لمنعه، فإن هذه التي انتصلت علتها قبل اللجاجة والأراجيف ابتدأت في مقارعة القطيعة والصلة ووقفت بينهما موقف المراهنة، ولك، أصلحك الله، طول على العتب وعلى ذل الاعتذار، فلا يطمس ذلك نور ما يرد عليك، فإني أعتد عليك خصالا في كلها ضربت الأمثال منها قول أكثم بن صيفي: الجود بالمجهود منتهى الجود، وأنت تعلمين أن مجهودي كله كان لك، ومنه قول النابغة:

إذا كان مجبولا على النصح صاحبي ... عفا النصح عما زل من حيث لا يدري

وما استزدتني نصيحة قط، ولا اتهمتني على غش، ومنه قول طرفة:

ما لي إليك شفيع أستعين به ... إلا رجائي وإفرادك بالأمل

وما استبطأتك في أمر قط ولا أشرت بأملي إلى سواك، فأي مدخل المتهمة مع هذه الحال، وإن أجمع لصفة ما بيننا كقول الأعشى:

ومـــــا تفيـــــأت مـــــن سرور فـــــــتم إلا بكـــــــم سروري

هذه أعيان وسائلي التي نافرت إليها عتبك، واستعفيت من جحدها علمك، فأما ما يأخذه التخلق ويكون مثله على بعض الإخوان من بعض الشبهة من إيثار الهوى، وتحري الموافقة، والصبر على الجفوة، فذاك الذي إن ضرب لي سهم في إنصافك فقد ينال ذلك بأقل مما كنت تدعينه، وأما الغيبة فيما بيني وبينك، فقد أمكنك من ذلك الاعتداد به، ومحاكمتك إلى ما هو أرجى منه.

كاتب: واعلم أن الشجر يتفاضل في الثمر، فرب شجرة طيبة الحمل قليلته، وأخرى خبيثة الحمل كثيرته، وكذلك العلماء، فلا يمنعك من عالم، وعليك بحسن الاقتباس، والصبر على الناس، فإنك إن كنت لا تصحب إلا المهذبين من أهل العقول، ولم تصبر من الناس على الفضول، عدمت الحلم، ونسيت العلم، واعلم أن في الناس حكمة، ومجالستهم تجلو بعض الظلمة، فاحتملهم على المخالفة وتمويه المصادقة، واقتبس منهم المحاسن، وتجاف عن المساوئ، واعلم أن الأخلاء ثلاثة أصناف: فرع بائن من أصله، وأصل متصل بفرعه، وفرع ليس له أصل، فأما الفرع البائن من أصله فإخاء بني على مودة ثم انقضت فحافظ على ذمام الصحبة، وأما الأصل المتصل بفرعه فإخاء أصله الكرم، وأغصانه الهوى، وأما الفرع الذي ليس له أصل فالمموه الظاهر الذي ليس له باطن، ولهذه الصنوف علامات تدل عليها هذه الحالات.

ومن الإخوان كالجوهر، منه مموه مصنوع، وبعضه خالص مطبوع، فاعرف الرجال بالخبر، كما تسبر الجوهر بالبصر، واعلم أن ثقات الإخوان، بقدر ما

يستوجبون من الائتمان، فإن ميزان الكرام عادل، وصاعهم كامل، يوفيان الحالات فروضها، ولا يبخسانها حقوقها، فلو بلغت لرجل فوق قسطه في الإخاء خفتا على ذي الفضل، أو قصرت بآخر عن الوفاء، وأزرت بأهل العدل، واعلم أن لأهل الفضل حظوظًا مقسومة، ومنازل معلومة، بعضها أشرف من بعض، ولكل منزلة حماها، لهم الفعال فليست تصلح إلا لهم، واعلم أن أبناء الكرام بمنزلة سيل الغمام، ينسبون إلى الكرم ما لم يبلهم الخبر، كما ينسب الغيث إلى المنفعة ما لم يبدر له ضرر، فإذا بلوا حمد المحمود، وذم المنكود.

أبو الربيع: ما إن بلوت أحدًا إلا ردني إليك ابتلاؤه، ولا قفوت أثرًا إلا عطفني عليك اقتفاؤه، ولئن امتحنت سريرة قلبي بالشكر على إحسانك، كما امتحنت عزيمة رأيي بالصبر على حرمانك، لتهجمن بك شهود من ظاهر فعال على عيون تبصر بها باطن وفاء، وأن تحملني حفاظك، وتلبسني ذمامك، ويشتمل علي وفاؤك، وينفعني اليوم ما سلفت فيك بالأمس أكن وكيلا لسمعك في قلبي، وأمينًا لعينك علي، فإني خفيف المئونة، لطيف المعونة، لا قابل غنمًا، ولا سائل أكلا، ولا ساخط منك منزلة فويق العامة، ودوين الخاصة، ما لم ترفعني فوقها، وتجب لي ضعفها.

كاتب: ما أن يكلفني على معروفه من الثمن، إلا الإقرار له بالمنن، وله علي المنة والنعمة، والطول والحجة، فيما ترك وصنع، وأعطى ومنع، والله لقد بذل فكان بذله طويلا يربي على حقي، ومنع فكان منعه أدبًا يعطفني على حظي، وعاتب فكان عتابه تجديدًا لنعمه عندي، وتحضيضًا على تقوية نيته في نفعي.

يوسف بن القاسم بن صبيح إلى محمد بن زياد: حفظك الله وحاطك، رأيتك - أكرمك الله - في خرجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك، وإبلاغنا طيب خبرك، وقطعتنا قطع ذي السلوة، أو أخي الملة، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقًا، وإلى البعد منا توَّاقًا، فوقع بعدك بحيث توخيت من جهتين: إحداهما حلاوة الولاية، والأخرى لذة الراحة، فإن يكن ذلك كما رجمناه قاطعناك مجملين، أو لبسناك على يقين، وإن يكن إدلالا بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك، فليس قدر الهدايا وإن كثرت، ولا الفوائد وإن جلت احتمال لؤم الإخوان إذا كانت الهدايا إنما تراد لهم، والفوائد إنما تنال بهم، والمباهاة بأعراض الدنيا تؤثر بخلطائهم، وما أدري ما أقول في اختيارك ترك المكاتبة المحدثة عن الغيب بالأسرار المكتومة، والرسائل المعلومة، والأمور المفهومة، حتى كأنها محادثة والحضور، على تنائي الدور، والقلوب بها مشاهدة، وإن كانت الأبدان متباعدة، ولئن كذب فيك الرجاء، لقد نمى عن الوفاء، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا يقيم بعده على قطيعة ولا جفاء، فلا تتوهمن أني أردت إعتابك لعتابي، ولا إزرائك بكتابي، فإن وصلت فمشكور، وإن قطعت فمعذور.

الأخوص:

فإني للمودة ذو حفاظ ... أواصل من يهش إلى وصالي

وقال الفضل بن عبد الرحمن الهاشمي:

لست أصفي الود مني فاعلمي ... من إذا راجعه حتى اعتراض

كم سقيم الود قد أبرأته ... وعرفت الداء من عرق نبض

آخر:

عجبت لصون الود في مضمر الحشا ... لمن هو فيما قد بدا لي واتر

ومن طلبي بالود تبلى ولم يكن ... ليدرك تبلا بالمودة ثائر

ابن الدمينة:

ولقد منحتك لو جزيت مودة ... وخلائقك ليست بذات غوائل

عبد الله بن معاوية:

أكافي خليلي ما استقام بوده ... وأمنحه ودي إذا يتجنب

فما الحب إلا من لك وده ... ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

كثير:

وقد أصفيت سعدى طريف مودتي ... ودام على العهد الكريم توليدها

آخر:

لعمرك ما ود اللسان بنافع ... إذا لم يكن أصل المودة في الصدر

الأحوص:

وقد ثبتت في الصدر منها مودة ... كما ثبتت في الراحتين الأصابع

آخر:

لا خير في ود من تواصله ... وأنت من وده على وجل

آخر:

أيجزون بالود المضاعف مثله ... فإن الكريم من جزى الود بالود

جميل:

إن المودة مني غير زائلة ... عن حالها فقفي إن شئت أوسيري

obeikan.com

الفضل بن عبد الرحمن الهاشمي:

فـــإلا تجـــازيني بمثـــل مـــودتي فـــما أنـــا مـــن حـــب بـــأول هالـــك

آخر:

أني تـــودكم نفـــسي وأمـــنحكم ودي ورب محـــب غـــير محبـــوب

وللفضل:

لقـــد أعطيـــتكم ممنـــوع ود وصـــفوًا لم أكـــدره بمـــن

أنشد ثعلب:

ولقـد بلـوت النـاس ثـم خـبرتهم وعلمـت مـا فـيهم مـن الأسـباب
فـإذا القرابـة لا تقـرب قاطعًـا وإذا المـودة أشـبك الأنـساب

آخر:

كـــم صـــديق عرفتـــه بـــصديق كـــان أحظـــى مـــن الـــصديق العتيـــق
ورفيـــق صـــحبته في طريـــق صـــار بعـــد الطريـــق خـــير رفيـــق

وقال ابن دريد فيما روى لنا المرزباني عنه قال حكيم: المودة تعاطف القلوب، وائتلاف الأرواح، وحنين النفوس إلى مباثة السرائر، والاسترواح للمستكنات في الغرائز من وحشة الأشخاص عند تباين الالتقاء، وظاهر السرو بكثرة التزاور.

بكر بن النطاح:

بعثـــت إليـــك نـــصائحي ومـــودتي قبـــل اللقـــاء مـــشاهد الأرواح

الحارث بن خالد:

ووجـــدي بالأحبـــة يـــوم بـــانوا كوجـــد الـــصاد بالمـــاء التفـــاخ
ووجـــــدي دائـــــم وعهـــــدي متـــين مـــا يعـــود إلى انفـــساخ

آخر:

تـرى حرمـت كتـب الأخـلاء بيـنهم ابـن لي أم القرطـاس أصـبح غاليـا
فـما كـان لـو راعيتنـا كيـف حالنـا وقـد دهمتنـا نكبـة هـي مـا هيـا
فهبـك عـدوي لا صـديقي فـربما رأيـت الأعـادي يرحمـون الأعاديـا

آخر:

وتركـي مواسـاة الأخـلاء بالـذي تنـال يـدي ظلـم لهـم وعقـوق
وإني لأسـتحيي مـن الله أن أرى بحـال اتـساع والـصديق مـضيق

وقال أعرابي في وصف آخر: لسانه سلم موادع، وقلبه حرب منازع.

كتب سويد بن منجوف إلى مصعب بن الزبير:

فـأبلغ مـصعبًا عنـي رسـولا وهـل يلقـى النـصيح بكـل واد
تعلـم أن أكثـر مـن تنـاجي وإن ضـحكوا إليـك هـم الأعـادي

العنبري:

مـا أبـالي إذا حملـت عـن الإخـوان ثقـلي ودنـت بـالتخفيف
ورفـضت الكثـير مـن كـل شيء وتقنعـت بالقليـل الطفيـف
ورآني الأنـام طـرًا بعينـي زاهـد في وضـيعهم والـشريف
كيـف كانـت حـالي إذا كـان لا يعـرف مـيلي الرجـال مـن تثقيفـي

أنـا عبـد الـصديق مـا صـدق الـود وبعـض الأقـوام عبـد الرغيـف

قال أبو العيناء: مودة الكريم غراس، وشكر الشريف أحسن لباس.

شاعر:

تـدلي بـودي إذا لاقيتنـي كـذبًا وإن أغيـب فأنـت الهـامز اللمـزه

آخر:

أعـاذلتي كـم مـن أخ لي أوده كـريم عـلي لم يلـدني والـده
إذا مـا التقينـا لم يريني وكـده ولكننـي مـثن عليـه وزائـده
وآخـر أصـلي في التناسـب أصـله يباعـدني في رايـه وأباعـده
يـود لـو أني فقـدت أول فاقـد وأيـضًا أود الـود أني فاقـده

آخر:

إذا كـان في صـدر ابـن عمـك إحنـة فـلا تـستثرها سـوف يبـدو دفينهـا

طرفة:

وصـاحب قـد كنـت صـاحبته لا تـرك الله لـه واضـحه
فكلهـم أروغ مـن ثعلـب مـا أشـبه الليلـة بالبارحـه

شاعر:

خـير الـصديق مـن الـصدوق مقالـه وكـذا شرهـم المنـون الأكـذب
فـإذا غـدوت لـه تريـد نجـازه بالوعـد راغ كـما يـروغ الثعلـب

آخر:

احـــذر مغـــايظ أقـــوام ذوي أنـــف إن المغـــيظ جهـــول الـــسيف مجنـــون

آخر:

اصـــحب الأخيـــار وارغـــب فـــيهم رب مـــن صـــاحبته مثـــل الجـــرب

وقال الحسن بن وهب:

مـــا أحـــسن العفـــو مـــن القـــادر لا ســـيما عـــن غـــير ذي نـــاصر
إن كـــان لي ذنـــب ولا ذنـــب لي فـــما لـــه غـــيرك مـــن غـــافر
أعـــوذ بـــالود الـــذي بيننـــا أن يفـــسد الأول بـــالآخر

قال ابن عباس: إن الذباب ليقع على صديقي فيشق علي.

وقال ابن سيرين: لا تلق أخاك بما يكره.

وقال حبيب بن أبي ثابت: ليس من الأخوة أن يسر الرجل عن أخيه الحديث.

وقال أعرابي: آخ منيعًا يكن عدوك صريعًا.

وقال أعرابي: الصاحب كالرقعة في الثوب فلينظر الرجل بما يرقعه.

وقال بعض السلف: شر الإخوان من تتكلف له.

شاعر:

وإن ابـــن عـــم المـــرء فـــاعلم جناحـــه وهـــل يـــنهض البـــازي بغـــير جنـــاح

وقال بعض السلف: روح العاقل في لقاء الإخوان.

وقال أعرابي: اعتبر الناس بإخوانهم.

وقال معن بن أوس:

ألا من لمولى لا يزال كأنه ... صفا فيه صدع لا يدانيه شاعب

يدب دباب الغش تحت ضلوعه ... لأهل الندى من قومه والعقارب

أنشد ابن الأعرابي:

يا رب مولى حاسد مباغض ... علي ذي ضغن وضب قارض

له قرءٌ كقرءِ الحائض

أبو دهبل الجمحي:

وأعلم بأني لمن عاديت مضطغن ... ضبًّا وأني عليك اليوم محسود

كاتب: عرفني وقتك أوافقك فيه خاليًا، لا تزاحمني الألسن فيه على محادثتك، ولا الأعين عن النظر إليك لأقضي حق المودة، وآخذ بثأر الشوق.

الأخطل:

بني أمية إني ناصح لكم ... فلا يبتن فيكم آمنًا زفر

واتخذوه عدوًا إن ظاهره ... وما يغيب من أخلاقه دعر

مسكين الدارمي:

إذا ما خليلي خانني وائتمنته ... فذاك وداعيه وذاك وداعها

رددت عليه وده وتركته ... مطلقة لا يستطاع رجاعها

وإني امرؤ مني الحياء الذي ترى ... أعيش بأخلاق قليل خداعها

قيس بن الخطيم:

إذا ضـــيع الإخـــوان سرًا فـــإنني كتـــوم لأسرار العـــشير أمـــين
يكـــون لـــه عنـــدي إذا مـــا ائتمنتـــه مكـــان بـــسوداء الفـــؤاد مكـــين

شاعر:

أرى قومًـــا وجـــوههم حـــسان إذا كانـــت حـــوائجهم إلينـــا
فـــإن كانـــت حوائجنـــا إلـــيهم تغـــير حـــسن أوجههـــم علينـــا
ومـــنهم مـــن ســـيمنع مـــا لديـــه ويغـــضب حـــين نمنـــع مـــا لـــدينا
فـــإن يـــك فعلهـــم ســـمجًا وفعـــلي قبيحًـــا مثلـــه فقـــد اســـتوينا

قيل لأعرابي: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بين حاذف وقاذف، وبين ستوق وزائف.

شاعر قديم:

أنـــاجي أخـــي في كـــل حـــق وباطـــل وأرغمـــه حتـــى يمـــل ملائـــلي
فـــإن رامـــه بـــالظلم غـــيري وجـــدتني لـــه بـــاذلا مـــن ذاك نفـــس مقـــاتلي
فأظلمـــه جهـــدي وأمنـــع ظلمـــه بجهـــد ولا أخليـــه شـــحمة آكـــل
فـــإن ســـيم خـــسفًا أو هوانًـــا تربـــدت قـــسائم وجهـــي واعترتنـــي أفـــاكلي
وخـــضت غـــمار المـــوت دون منالـــه حفاظًـــا ولم أســـلم أخـــي للمناضـــل

وهذه أبيات تصلح للحفظ لما فيها من شرف اللفظ، وحسن الرونق، وصحة المعنى، وطراز العرب غير طراز المتشبهين بهم، ولعمري إن حسبية الطبع أكثر ماء، وأبهى نضارة من مثقف التكلف، والجواهر تشرف بمعادنها،

والفروع تزدهي بأصولها، والنجوم بأفلاكها، ومن الغي أن يقال: الأفلاك بنجومها.

قال عبد الله بن طاهر:

طلبت أخًا محضًا صحيحًا مسلمًا ... نقيًّا من الآفات في كل موسم
لأمنحه ودي فلم أجد الذي ... طلبت ومن لي بالصحيح المسلم
فلما بدا لي أنني غير مبتلى ... من الناس إلا بالمريض المسقم
صبرت ومن يصبر يجد غب ضره ... ألذ وأشهى من جنى النحل في الفم
ومن لم يطب نفسًا ويستبق صاحبًا ... ويغفر لأهل الود يصرم ويصرم

تفقد هذا النحت لهذا المحدث من ذلك النحت لذلك الأعرابي، فإنك تجد بين الديباجتين، بالحسن الصحيح، فرقًا يشهد لك بتقدم الدعي على الصريح.

قد تكرر اعتذاري من طول هذه الرسالة، هذا وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة، يسهل انتساخها وقراءتها، فماجت بشجون الحديث، وروادف من الطيب والخبيث، فاقبل حاطك الله هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أي حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها، يكثر في نفسك، وما يصغر منها ينقدك، يكبر بعقلك، والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مفضية إلى كرامة، فقد بلغت شمسي رأس الحائط، والله أستعين على كل ما هم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس، إنه نعم المعين، على أمور الدنيا والدين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على نبيه المصطفى محمد وآله الطيبين، والطاهرين أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.